الشيخ محمد بن عثمان الحشائشي

الرّحلة الصّحراويّة

عَبر أراضي طرابلس وَبلاد التوراق

قدم لها وعلق عليها وراجع ترجمتها الى العربية

محمد المرزوقي



الدار التونسية للنشر

الشيخ محمد بن عثمان الحشائشي

الرّحلة الصّحراويّة

عَبر أراضي طرابلس وَبلاد التوراق

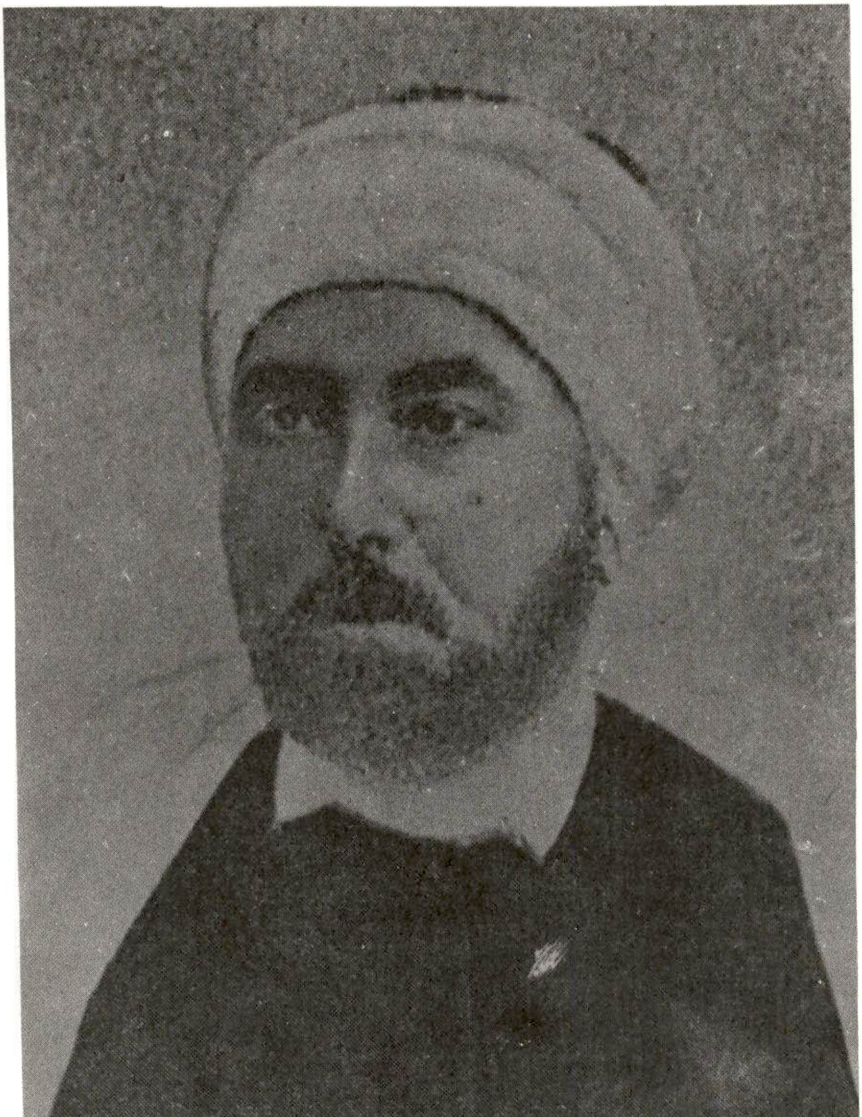
قدم لها وعلق عليها وراجع ترجمتها إلى العربية
محمد المرزوقي

الدار التونسية للنشر

الحشائشي (محمد بن عثمان)

الرحلة الصحراوية / محمد بن عثمان الحشائشي .
ــ تونس : الدار التونسية للنشر ، 1988 (تونس : المطبعة العربية) ،
268 ص . : غـلاف مصور ملون ؛ 24 سم .

إ.ق. 327 /88 ISBN 9973 — 12 — 038 — 8



الشيخ محمد بن عثمان الحشائشي

بسم الله الرحمان الرحيم

والصلاة والسلام على رسوله الكريم

التقديم

شغفي بالرحلات :

كنت — منذ التعليم الابتدائي — مغرما — الى حد الجنون — بمطالعة كتب الرحلات ومعاجم البلدان ، فلا تكاد عيني تقع على كتاب من هذا النوع حتى ألتهمه التهاما ، وأعيد قراءته المرة والمرات مهما كان ذلك في الامكان : وهي نزعة لا ادرك لها باعثا او سببا ، فلم تفلت مني رحلات . ابن بطوطة ، وابن جبير ومحمد ثابت والرحلات الحجازية : للعياشي ، والورثلاني ، السنوسي ، وغير هذه كثير . كما اتيت على معاجم البلدان : كاليعقوبي ، وياقوت ، والزاوى الخ ، يضاف الى ذلك الكتب الجغرافية وكتب الخطط المختلفة التي تمت الى هذا الغرض : كالمقدسي ، وابن رسته ، وابن سعيد ، والمقريزي وغيرهم ، ولهذا الغرام الخاص بهذا النوع من الكتب الذي يعرفه مني اساتذتي ، لم يندهشوا حين تفوقت على زملائي في الجغرافيا في امتحان شهادة المعارف العملية من المدرسة الخلدونية سنة 1933 وكان استاذي المرحوم حسن حسني عبد الوهاب يعرف مني هذه النزعة ، فاسند الّي مهمة اعداد معجم للبلدان التونسية حين التحقت بادارة الآثار والفنون التي كان يرأسها سنة 1957 ، وقد تمكنت من اعداد نحو خمسمائة ملف لبلدان وقرى قديمة وحديثة وجمعت غالب ما قاله عنها القدماء ، ولم اتمكن الى اليوم ، من تنفيذ رغبة الاستاذ في اعداد هذا المعجم لاسباب يطول شرحها ، ولكني استطعت ان أخرج للناس ثلاثة كتب في الموضوع : مؤنس الاحبة في اخبار جربة —

وقابس جنة الدنيا ــ والمهدية وشاعرها تميم . ولعلي استطيع في المستقبل ــ ان قدرت لي الحياة ــ ان اضيف اليها بعض الكتب الاخرى .

ان مثل هذا المعجم اكيد الوجود بالنسبة للبلاد التونسية التي يجهل غالب ابنائها معالمها الجغرافية والتاريخية ، وخاصة بلدانها وقراها العتيقة المضمحلة واعداد مثل هذا المعجم ميسور وفي متناول كل مثقف يصطحب العزم والهواية ، الا انه لابد من حصوله على تأييد وزارة الشؤون الثقافية ومساعدتها ماديا على المشروع ، وما أظنها الا فاعلة ذلك ان شاء الله .

قلت : اني كنت مغرما بكتب الرحلات ولا ازال الى اليوم أمتلك هذه الهواية ، وظني ان الناس لا يختلفون في الفائدة المنجرة من مثل هذه الكتب، ولا في المعارف المتعددة التي تحصل من مطالعتها، فهي بالاضافة الى المتعة الحاصلة من قراءتها ، ومن قدرتها على نقل القارىء من عالم الى عالم ، ومن ارض الى ارض ، ومن قارة الى قارة ، ومن بلاد الى اخرى ، فهي ترحل به الى اماكن بعيدة دون ان يدفع في مقابل ذلك شيئا سوى ثمن الكتاب ، وهي تطلعك على اناس لا تعرفهم ، فتصف لك آلوانهم ، واخلاقهم وازياءهم ، ومجتمعهم ومنازلهم وهندستها ، وارضهم ومنتجاتها ، واقتصادهم ، وسياستهم وطرق احكامهم ، ومختلف تصوراتهم ، وحتى جوهم ، وما في طقسه من حرارة او برودة .

انها معلومات طيبة يمكنك ان تثقف بها نفسك دون ان تحتاج الى استاذ تسهر على دروسه الليالي ، وتطول بك الايام ، للحصول على علم الجغرافيا وفروعه العديدة : فهناك الجغرافيا الطبيعية والبشرية ــ والسياسية ــ والاقتصادية الخ ، كل هذه المعارف تمكنك منها مطالعة الرحلات بدون مشقة تذكر .

رحلة الحشائشي :

ذكر لي يوما أستاذي المرحوم حسن حسني عبد الوهاب انه يمتلك في مكتبته نسخة خطية من رحلة الحشائشي الى طرابلس بخط الحشائشي نفسه، وتبادر الى ذهني انها الرحلةِ التي كتبها عن سفرته سنة 1896 م موفدا من قبل المركيز دي موريس الذي قتله التوارق والشعانبة في (الوطية) على نحو 60 كم من غدامس ، وكان هذا المركيز الفرنسي يحاول الوصول الى غات ، ومنها الى السودان ، لفتح طريق صحراوي جديد بين تونس وارض السودان ، وذلك بدوافع سياسية استعمارية ، فقتل دون تحقيق رغبته ، وكنت على علم باخبار تلك المغامرة اذ تلقيت كثيرا من اخبارها وأنا صغير في مسقط رأسي (دوز) لان المركيز انطلق — الى رحلته — من هذه البلدة مصحوبا ببعض اشخاص من اهلها (1) .

تاقت نفسي الى الاطلاع على هذه المخطوطة الموجودة بمكتبة عبد الوهاب ، ولكن بعد ايام فوجئت بان استاذنا رحمه الله قد اهداها الى شخصية معروفة في دولة شقيقة ولم يترك لنا نسخة منها ، وهو عمل غير طيب من استاذ .

لم يذكر لي الأستاذ عبد الوهاب اسم هذه الرحلة وهل هي الرحلة الوحيدة للحشائشي أم هناك رحلة أخرى لهذا المؤلف ؟ وهل هذه التي أهداها هي المترجمة للفرنسية والمطبوعة ؟ أم هي غيرها ؟ ولكن علمت بعد ذلك ان اسم الرحلة (جلاء الكرب ، عن طرابلس الغرب) وان هناك نسخة منها مكتوبة بالآلة الراقنة موجودة في دار الكتب المصرية كان

---

1) انظر تفاصيل مغامرة المركيز في كتابي (صراع مع الحماية) من ص 359 الى ص 393

أهداها الاستاذ الى الامير المصري عمر طوسون (2) وأهداها هذا بدوره الى دار الكتب .

وكم كان فرحي عظيما حين اتصلت بنسخة مطبوعة من (جلاء الكرب) بتحقيق الصديق الاستاذ علي المصراتي هدية منه ، فقرأتها وأعدت قراءتها ، وهالني ان المؤلف لم يتعرض فيها الى الدافع الحقيقي لرحلته ، ولا الى اي تفصيل عن مغامرة المركيز دي موريس ، وظننت ــ والظن قد يخطىء احيانا ــ ان الرجل لم يتعرض الى دوافع رحلته ، هروبا من لمز القراء اليه بأنه عمل لفائدة المستعمرين ، وهو عمل ينكره الوطنيون ، ولم يخطر ببالي ان تلك الرحلة هي كتاب آخر غير الرحلة الأصلية ، او الأم ، التي استند اليها في كثير من فصول رحلته (جلاء الكرب) .

وتركت التفكير في الموضوع وتناسيته ، حتى قدر لي الحصول على نسخة مصورة من الرحلة الصحراوية المترجمة للفرنسية فعاودني التفكير في قراءة هذه النسخة مستعينا بولدي ليلى وقيس في ترجمة فحواها واستطعت بذلك ان اكتشف الحقيقة وهي ان للحشائشي رحلة واحدة هي التي الفها اثر رجوعه من الرحلة في فيفري 1897 وترجمت للفرنسية في نفس السنة ، وطبعت سنة 1903 .

مضمون كتاب جلاء الكرب :

ولما هاجمت ايطاليا طرابلس سنة 1911 ظهر للمؤلف ان يكتب عن

---

2) أمير مصري جده محمد علي باشا ، ولد بالاسكندرية 1289 هـ (1872م) وأرسل في شبابه لاتمام تعليمه بسويسرة واتقن من اللغات ــ الى جانب العربية ــ التركية والفرنسية والانكليزية وقام برحلات وسياحات كثيرة وألف كتبا عديدة خاصة في تاريخ مصر وجغرافيتها عدد له صاحب الاعلام من الكتب العربية 14 كتابا واربعة كتب باللغة الفرنسية وكان عضوا في عدة مجامع وجمعيات علمية وتوفي بالاسكندرية 1363 هـ (1944 م).

طرابلس كتابه الثاني (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب) وذلك في سنة وفاته 1912 فمهد له بتاريخ طرابلس مختصرا من كتب متعددة في التاريخ الاسلامي ، ثم تبع الاطوار التاريخية لطرابلس بالحديث عن اشهر مدنها ، والحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيها . ووصف معالمها ، كما تحدث عن السنوسية ، والتوارق ، والصحراء الطرابلسية الخ ، وهذه الملاحظات كلها اعتمد فيها ما كتبه في الرحلة الاولى ، غير انه لم ينقل الكلام حرفيا بل اعاد كتابته ــ حسبما تنتجه المقابلة ــ فهناك اختلاف في التعبير وحتى في بعض المعلومات ، والزيادة والنقص حتى في ارقام الاحصائيات التي يوردها .

وختم كتابه (جلاء الكرب) بحديث مختصر جدا عن الحرب الطرابلسية الايطالية ، بحيث يصح ان نقول : ان كتاب (جلاء الكرب) فيه الجديد وهو التمهيد التاريخي الاول ، والحديث عن الحرب الايطالية في طرابلس في الخاتمة ، وكل ما هو موجود بين هذين الفصلين اعتمد في مضمونه على الرحلة الاولى مع بعض زيادات ، وكثير من النقص .

اذن ــ فالرحلة الصحراوية المترجمة ليس لنسختها العربية الاولى وجود ، وهي تفوق كتابه جلاء الكرب ، في المعلومات المفصلة جدا ، خاصة فيما يتعلق بحياة منطقة فزان في ذلك العهد ، ومجتمع سكانها ، وحياتهم السياسية والاقتصادية واخلاقهم ، وتصرفاتهم ، وتجاراتهم الواسعة في الطرق الصحراوية الجهمة ، الى غير ذلك من المعلومات الهامة عن الطريقة السنوسية ورجالها ، وما حققته في تلك الاقاليم البعيدة من تعليم وعدالة وامن ، وعن التوارق ومجتمعهم الغريب ، وعن الصحراء الطرابلسية وما في جبالها واوديتها ورمالها من اهوال وصعوبات الخ .

والخطأ الذي وقعت فيه سابقا باعتباري ان (جلاء الكرب) هو نفسه (الرحلة الصحراوية) المطبوعة بالفرنسية ، وقع فيه الصديق المصراتي

ايضا ، فقد ظن ان جلاء الكرب هو رحلة الحشائشي المترجمة للفرنسية ، فجعل للكتاب عنوانا خاصا ، هو : (رحلة الحشائشي الى ليبيا سنة 1895) وقال في المقدمة ص 7 :

(وقد قام برحلته عام 1895)

وقال فيها ايضا : ص 7 :

(واهتم بها الدّارسون والباحثون ، فقد ترجم هذه الرحلة الى اللغة الفرنسية المسيو سير الخ)

وفي تاريخ الرحلة الذي اورده المصراتي (1895 خطا واضح اوقعه فيه استاذنا عبد الوهاب — حسب الظن — او اخطء في النسخة المرقونة وسيأتي تحرير هذه النقطة .

والصديق المصراتي تنبه الى وجود رحلة اخرى هي غير التي حققها في بعض تعاليقه ، ولم يحاول ان يبحث لتحقيق الموضوع ، ويراجع ما كتبه في المقدمة ، فقد قال في تعليق ورد في ص 12 .

(يفهم من هذا ان الكتاب الذي طبع بالفرنسية به عن الطوراق اكثر من هنا)

وفي تعليق ص 130 :

(يفهم من هذا ان الحشائشي قام برحلة صحراوية اخرى الخ)

وفي تعليق ص 161 :

(وهنا تأكيد لوجود كتاب آخر للحشائشي هو الرحلة الصحراوية)

وفي تعليق ص 172 :

(يقصد المؤلف رحلته الصحراوية ، وهي على مايبدو غير هذه)

وفي تعليق ص 190 :

(يشير اكثر من مرة ويحيل القارىء الى رحلته الصحراوية ، فهل هي موجودة ؟ ام ضاعت مع اوراقه التائهة ؟)

تصحيح أرقام تاريخية :

ولنرجع الآن الى تصحيح أرقام تاريخية وردت في جلاء الكرب ، لننطلق منها الى التاريخ الحقيقي الذي وقعت فيه الرحلة ، والذي اثبته المؤلف مرات في فصول الرحلة الصحراوية .

يقول الاستاذ المصراتي في مقدمة جلاء الكرب ص 12 :

قام برحلته الى طرابلس الغرب عام 1895 م 1313 هـ كما أشار في اكثر من فصل من فصول الكتاب .

والاستاذ المصراتي انجر الى هذا الخطأ في التاريخ مدفوعا بما وجده مثبتا في النسخة المرقونة التي اعتمدها دون العناية بتصحيح مقابلة الاشهر العربية والفرنجية فسنة 1313 هـ التي يكثر ورودها في جلاء الكرب تقابل بسنتي 1895 — و — 1896 ميلادية اذ ان السنة الهجرية 1313 تبتدىء في 24 جوان 1895 وتنتهي في 11 أو 12 جوان 1896 م حسب التوفيقات الموجودة .

ويظهر لي أن هذه الاخطاء لا يمكن ان نسندها جميعا للمؤلف مادام هو نفسه يثبت لنا تاريخ خروجه من تونس في 10 ماي 1896 م (27 قعدة 1313 هـ) وتاريخ رجوعه اليها في 25 فيفري 1897 م (23 رمضان 1314 هـ) كما ان المؤلف اثبت في ذيل الرحلة الصحراوية هذه ، صورة رسالتي توصية بخط صاحبيهما جاء في آخر اولاهما تاريخ 1314 هـ وقد تلقاها من صاحبها في بنغازي اثناء رجوعه ، وجاء في آخر الثانية تاريخ

صفر 1314 هـ وقد كان تلقاها من صاحبها في الكفرة .

ومن هنا يظهر أن الخطأ ـــ حسب ظني ـــ قد تسرب : أما لاستاذنا عبد الوهاب الذي أهدى النسخة المرقونة الى صديقه الامير عمر طوسون ، ولا نشك انه هو الذي أثبت فيها التاريخ الميلادي 1895 بازاء التاريخ الهجري 1313 دون ان يتنبه الى وجوب مقابلة الشهور حتى يدرك ان السنة الهجرية 1313 دخلت في 24 جوان 1895 وانتهت في 12 جوان تقريبا 1896 والمؤلف بدأ رحلته 10 ماي 1896 اي في اواخر سنة 1313 هـ واما ان السبب يرجع الى خطأ الراقن ولم ينتبه استاذنا عبد الوهاب الى مراجعته وقد يكون هذا أقرب للصواب ، وأما انه صادر من المؤلف سهوا . نقول هذا لاننا نعلم ان الحشائشي لم يقم برحلة الى طرابلس قبل الرحلة الصحراوية سنة 1896 ، ولو وقعت لاشار إليها في كتاباته أو أشار اليها معاصروه الكثيرون الذين اتصلنا بهم مباشرة ، ويؤكد هذا أن أغلب الفصول الواردة في الرحلة الصحراوية يوجد مضمونها في (جلاء الكرب) الذي ألفه سنة 1912 م حسب ذكره .

وكون الرحلة الصحراوية هي الاولى والوحيدة للحشائشي انما هو محل اتفاق بين معاصريه ومن جاء بعدهم .

غير اني شخصيا اميل الى انه قام برحلة اخرى الى طرابلس ، او على الاصح الى الجهات الغربية من طرابلس سنة 1882 م ليتصل بالمهاجرين التونسيين الفارين من الاحتلال الفرنسي لتونس سنة 1881 م وسأوضح رأيي هذا فيما يأتي .

وعلى ضوء ما ذكر يمكن أن نصحح الاخطاء في الارقام التاريخية الواردة في جلاء الكرب كما يأتي :

جاء في ص 97 :

وفي رمضان سنة 1313 هـ (1895) دخلت جامع السوق داخل البلد (اي طرابلس) الخ .

الصواب ان المؤلف دخل مدينة طرابلس عند رجوعه سنة 1314 هـ (1897) وفي ص 85 تحدث عن لبدة بقوله :

حصن عظيم من بنيان الاوائل وطئت أقدامي ترابه سنة 1313 هـ في شهر رمضان 1895 والصواب انه مرّ بلبدة اثناء رجوعه في رمضان 1314 — 1897 يوم 14 فيفري تقريبا .

وفي ص 70 متحدثا عن عدد الجنود بطرابلس .

وفيها (أي طرابلس) من العساكر في ذلك التاريخ سنة 1313 هـ (1895) ما ينيف على الثمانية آلاف جندي .

والصواب سنة 1314 هـ (1897م)

وفي ص 72 متحدثا من التقسيمات الادارية لطرابلس :

وبلغني في هاته المدة (1330) (3) ان الاعمال (اي التقسيمات الادارية) صارت اكثر من ثلاثة ، ولكن مبنى كلامي على ما كتبته في حق طرابلس سنة 1313 هـ (1895)

والصواب سنة 1314 هـ (1897م)

3) أي السنة التي كتب فيها (جلاء الكرب) 1912 م

وفي ص 79 :

دخلت هاته البلاد (مرزق) في مدة سياحتي الصحراوية سنة 1895 — 1313 هـ في يوم 27 من شهر ربيع الانور (سبتمبر 1895)

والصواب انه دخل مرزق — حسبما هو مذكور في الرحلة الصحراوية — في يوم 5 سبتمبر 1896 ويصادف (27 ربيع الانور 1314 هـ)

وفي ص 186 :

تشرفت بزيارته (أي سيدي عبد السلام) في شهر رمضان سنة 1313 هـ (شهر فبراير) 1896 (؟)

والصواب في شهر رمضان سنة 1314 (شهر فبراير) 1897

وفي ص 187 :

تشرفت بزيارته (سيدي المدني) سنة 1313هـ (1895م) في رمضان.

والصواب 1314 هـ (1897 م)

وهكذا يظهر الخطأ في المقابلات التاريخية المضافة للتاريخ الهجري التي وقع بعضها بسبب اعمال الرجوع الى مقابلات الاشهر كما وقع بعضها الاخر بسبب خطأ في التاريخ الهجري من صنع الراقن او ربما كان من المؤلف نفسه صدر عن سهو مثل ما جاء في ص 87 من جلاء الكرب :

كان قدومي لبنغازي من مالطه عن طريق طرابلس ، وفي يوم السادس والعشرين من ذي الحجة الحرام على متن البابور المسمى بالعصملي لشركة

من اليونان فبلغناها قبل الزوال بساعتين سنة 1312 (1894 م) .

فهذا كلام يوهم القارىء ان المؤلف قام برحلته اواخر سنة 1312 هـ والصواب ما ذكرناه سابقا ان الرحلة كانت اواخر سنة 1313 هـ 1896 في 10 ماي ووصل بنغازي حسب الرحلة الصحراوية يوم 18 ماي الذي يصادف يوم (5 ذي الحجة) وتسرب هذا الخطأ للمؤلف هو نتيجة الاعوام الطويلة التي مرت على تاريخ رحلته الصحراوية يوم كتب جلاء الكرب فهناك نحو خمسة عشر عاما تقريبا فصلت بين تحرير كتابه الاول وتحرير كتابه الثاني ، ويؤكد هذا ما جاء من خلاف في ارقام كثيرة وتواريخ عديدة في الكتابين .

هل قام الحشائشي برحلة أخرى الى طرابلس ؟

ذكرت سابقا اني أميل الى الظن أن الحشائشي قام برحلة اخرى الى الجهات الغربية من طرابلس سنة 1882 م والمرجع في هذا الظن ما ذكره « مرتال » في كتابه « حدود تونس الصحراوية الطرابلسية » (Les Confins Saharo-Tripolitaines de la Tunisie)من أن الحكومة الفرنسية ارسلت شيخا معمّما الى طرابلس لتهدئة القبائل الثائرة المهاجرة، ومحاولة ارجاعها لبلادها وقد اتصل هذا (الشيخ المعمّم) بالقبائل التونسية وجعل يدعوها الى الرجوع لوطنها الذي ساده الأمن والعدل ، بفضل فرنسا ، ولما سمع به زعيم المهاجرين المرحوم علي بن خليفة ، طلب من السلطة التركية بطرابلس طرده باعتباره جاسوسا لفرنسا ، فقبض عليه واطرد من التراب الطرابلسي .

كنت تعرضت لهذا الخبر في كتابي (صراع مع الحماية ص 198) ولم يكن عندي رأي في شخصية (الشيخ المعمم) ولكن ذهني اتجه للحشائشي لما قرأت رحلته واطلعت على ما كتبه المترجمان للرحلة عن

حياته وافكاره واندفاعه في خدمة الفرنسيين بدون تحفظ ، وتفاخره بانه يعمل عن ايمان وعقيدة لفائدة التقارب بين الفرنسيين والمسلمين . وعندما احتلت فرنسا تونس بادر بتأليف كتاب سماه (الدرة النقية ، في النوايا الصادقة للحكومة الفرنسية) يقول عنه في صراحة :

(حاولت فيه ابراز المقاصد التمدينية لفرنسا تجاه سكان الايالة معرفا بهذه المقاصد بالتفصيل ، وبالنتائج السعيدة التي ستنجر عن الحماية)

ثم يفتخر بما كان لهذا الكتاب من أثر أعان الفرنسيين على تهدئة الثورة بقوله :

(وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة 1882 م بأمر من وزارة الخارجية وعمل السيد « كامبون » (المقيم العام الفرنسي) على توزيعه بكامل انحاء الايالة حيث ساهم في تبديد المخاوف المعششة في عقول الاهالي واعتقد انه يمكنني القول بأنه ساهم بصورة ما ، في انهاء الانتفاضة . (4)

وألف كتابا ثانيا خاصا بالعادات والتقاليد في البلاد التونسية سماه (الهدية في عوائد المملكة التونسية) بطلب من (برنار رُويّ Bernard Roy) (5) الكاتب العام الفرنسي للحكومة التونسية الذي كان له ضلع كبير في تركيز دعائم الحماية الفرنسية في هذه البلاد ويعلن الحشائشي في مقدمة هذا الكتاب في صراحة :

4) انظر مقدمة المترجمين في هذا الكتاب

5) برنار رُوي (Bernard Roy) ولد سنة 1845 وتوفي 1919 ولعب دورا هاما في سياسة البلاد التونسية حيث كان كاتبا عاما للحكومة وكان له الاثر العظيم في تركيز الحماية الفرنسية واستخدم في اغراضه بعض الاغرار من التونسيين بفضل تضلعه في اللغة العربية واطلاعه الواسع على المجتمع العربي التونسي .

(طلب مني (اي رُويْ) ولم تسعني مخالفته لحسن مقصده ان أؤلف كتابا جامعا في عوائد هذا القطر الافريقي)

وفي نفس المقدمة يعلن انه ألف الكتاب لاطلاع الفرنسيين على عوائد البلاد حتى يتمكنوا من ربط العلائق المتينة مع سكانها ، ذلك ما يفهم من نص كلمته :

(هذا القطر السعيد ، اصبحت ترف عليه وجاهة الحماية الفرنساوية ودعت الضرورة لتأكيد علائق الدولة الحامية والمحمية، وحسن المعاشرة بين الامة الفرنسوية والامة العربية التونسية)

وَيؤكد انتماءه للفرنسيين وحماسه للحماية الفرنسية في بلاده قبل انتصابها ، ماجاء في سيرته الذاتية ونقله المترجمان في مقدمتهما للرحلة الصحراوية ص 12 — 13 — 14 من النسخة الفرنسية وهو قوله :

(أما المسألة التي تعلقت بها اكثر من غيرها فهي دراسة الطرق الكفيلة بتقريب الشقة بين الفرنسيين والعرب ، وقد كانت شغلي الشاغل قبل احتلال فرنسا لتونس وهو ما تشهد به مؤلفاتي المكتوبة في تلك الفترة ، وكنت كلما تهيأت لي الفرصة لا اتردد في القيام بما في مقدوري حتى أيسر هذا التقارب ، وهكذا فقد ألفت كتابا بعنوان الدرة النقية في النوايا الصادقة للحكومة الفرنسية سنة 1881 حيث شبت الثورة بالايالة اثر انتصاب الحماية ، حاولت فيه ابراز المقاصد التمدينية لفرنسا الخ) .

بالاضافة الى هذا فنحن نعرف ان المؤلف كان من اعوان (روا) بل كان بمثابة التلميذ المطيع لهذا الاستعماري الفظيع ، وكان للمؤلف اطماع في الحصول على مكانة مرموقة ووظيف رفيع من وراء انتمائه الى الفرنسيين والعمل على ترسيخ اقدامهم في البلاد ، بل ويضع نفسه رهن اشارتهم للقيام باخطر الرحلات لفائدتهم ولحساب تركيز استعمارهم .

شخصية غريبة مثل هذه كيف لا يتجه نظرنا اليها حين نجد ان السلطة الفرنسية ارسلت شيخا معمما الى طرابلس لتهدئة الثورة التونسية في وجهها .

أكاد ـــ شخصيا ـــ ان لا اتردد في الاشارة الى الحشائشي بانه هو الشيخ المعمم الذي ارسلته فرنسا للتهدئة ، فهو عون من اعوانها تعتمد عليه في مثل هذه المهمة لانه يتمتع بالحماس والاندفاع والشباب فهو انذاك في حوالي السابعة والعشرين من عمره مثقفا جريئا ذكيا محبا للمغامرات يتميز بطلاقة اللسان وحسن الحيلة .

ويظهر لي ان السبب في عدم ذكره لهذه الرحلة كان من أجل ما ناله فيها من اهانة ، ومن الاتهام بالخيانة بالاضافة الى فشله الذريع في هذه الرحلة .

قد يكون الشيخ المعمم غيره ، وأنا اتهمت الرجل باطلا ، لكن عدم اطلاعنا على شخصية الشيخ المعمم ، وتصرفات الحشائشي نفسه دفعتني الى هذا الظن ، ولعله يكون صحيحا .

الرحلة الصحراوية :

يظهر اني تطوحت كثيرا في ذكر اشياء تخص الكتاب الثاني للحشائشي (جلاء الكرب) وابتعدت عن (الرحلة الصحراوية) التي تهمني الآن ، والذي دفعني الى ذلك هو ما بين الكتابين من صلة وثيقة ومن اشتراك في الموضوع ، ولم يبق لي الآن إلا ان أرجع الى الرحلة .

شرع الحشائشي في هذه الرحلة يوم 10 ماي 1896م الموافق (27 قعدة 1313 هـ) قاصدا بنغازي عن طريق البحر ورجع الى تونس يوم

25 فيفري 1897 م الموافق (23 رمضان 1314 هـ) اي ان رحلته دامت تسعة اشهر ونصفا تقريبا .

وحال وصوله الى تونس انكب على كتابتها وانتهى من تحريرها — حسب ذكره في الذيل — يوم 15 ذي القعدة 1314 هـ الموافق 17 افريل 1897 ، وترجمت بحضوره في نفس السنة ، وطبعت سنة 1903 م (1321 هـ) .

واسم الكتاب الموجود في الترجمة الفرنسية هو : (رحلة الى بلاد السنوسية عبر اراضي طرابلس وبلاد التوارق) ، ولكن المؤلف يذكره في كتابه الثاني (جلاء الكرب) باسم (الرحلة الصحراوية) ولذلك اخترنا هذا الاسم : (الرحلة الصحراوية ، عبر اراضي طرابلس وبلاد التوارق) .

واصلها العربي الذي كتبه المؤلف مفقود لحد الآن ، وربما ضاع من جملة كتبه وأوراقه الضائعة ، وربما وقع في ايدي بعض الذين يمتلكون المخطوطات فلا ينشرونها ولا يسمحون لغيرهم بنشرها ، ولا يتبرعون حتى بصورة منها ، على المكتبات الوطنية ، لينتفع بها الدارسون من الاساتذة والطلبة .

تتألف الرحلة من تسعة فصول وذيل :

الفصل الاول : وصف فيه استعداده للرحلة وسفره من تونس الى بنغازي .

والثاني : ذكر فيه رحلته من بنغازي الى الكفرة .
والثالث تحدث فيه عن الطريقة السنوسية وشيوخها ونظامها .
والرابع : فيه ذكر رحلته من الكفرة الى غات .
والخامس : تحدث فيه عن غات ومرزق بلدا وسكانا .

والسادس : فيه حديث طويل عن التوارق وحياتهم وطرق عيشهم وعددهم ، وفروعهم .

والسابع : تحدث فيه عن الصحراء الطرابلسية وسكانها

والثامن : وصف فيه طريق رجوعه من مرزق الى مصراته .

والتاسع : تحدث فيه عن مصراته وطرابلس وعودته الى تونس .

أما الذيل : فأبرز ما فيه انه طولب بتقديم وثائق على صحة ما كتبه او تحدث به عن رحلته ويظهر انه كان محل اتهام من بعض الناس ، وربما كانوا اروبيين بأنه لم يدخل الاراضي والبلدان التي تحدث عنها ، ولذلك اضطر الى اثبات صور بعض الرسائل بخطوط اصحابها وذكر انه قدم وثائق اخرى لقضاة المحكمة التي انتصبت في سوسة لمحاكمة قتلة المركيز دي موريس الخ .

قلت : ان الأصل العربي مفقود الى الآن — ولذلك حين قرأت الترجمة السريعة لفحوى النص الفرنسي التي قام بها ولداي ليلى وقيس وعزمت على نشرها سلمت النص الفرنسي لابني الاكبر رياض الاستاذ بكلية الآداب وألححت عليه أن يتولى ترجمته للعربية فلبى الطلب رغم اشغاله الكثيرة ، وأملى علي الترجمة إملاء سريعا في مدة لا تتجاوز عشرة أيام ، وطبعا كانت الترجمة في حاجة الى المراجعة من حيث التراكيب السليمة ، فقمت شخصيا بهذه المراجعة التي لا أدعي أنها سليمة من بعض العيوب ، ولكن يحصل بها المقصود على كل حال .

ملاحظات :

قبل ان انتقل للحديث عن المؤلف نفسه يجب ان أبدي هنا بعض الملاحظات عن اشياء جاءت في رحلته لا أظن أنه كان محقا فيها :

1 ــ حكمه على الناس بالسماع دون اختلاط بهم او معرفة ، فيتحدث مثلا عن التوارق ، وعن سكان فزان ، وعن قبائل الصحراء الطرابلسية في تصرفاتهم واخلاقهم وطبائعهم حديثا جادا لايحاول أن يلقي تبعته على محدثه ، ولا يشك في نزاهة محدثه ، ويتحمل هو مسؤولية ما رواه ، ويظهر ذلك جليا في حديثه عن قبائل البدو سكان الصحراء ، فيصف هذه القبيلة بالطيبة وحسن الأخلاق ، ويصف تلك بالشراسة وسوء المعاملة ، ويصف الاخرى باللصوصية والسرقة والغدر الخ . فيوصي الرحالين والتجار والمستكشفين بالاطمئنان لهذه القبيلة وبالحذر من الاخرى وصية من عاشر تلك القبائل وخبر أخلاقها في حين أنه ناقل عن غيره أو وقع في تجربة لم يعللها التعليل الصحيح .

ومن اعتماده على السماع دون بحث أو تمحيص زعمه بان تلامذة زاوية جغبوب يخضعون لشرط عدم الزواج وقد أنكر هذا الزعم الأستاذ علي المصراتي في جلاء الكرب انظر نص كلمته في التعليق (1) ص 163 .

2 ــ وصفه لقبيلة ورفلة بأنهم أشرار ولصوص ونهابون بمجرد انهم تحذروا منه وشكوا أنه أروبي جاسوس ، وأنهم اختلفوا معه على كراء ناقة أو ناقتين ، ولم يهده تفكيره إلى أن أولئك الناس محقون في شكهم فيه لأنهم جربوا قبله بعض المتجولين الأروبيين الذين يدخلون البلاد بادعاء الاسلام وهم جواسيس دول استعمارية جاءوا لتمهيد الطريق أمام دولهم .

وقد ساق دليلا على غدر هذه القبيلة ولصوصيتها يتمثل في محاولة سرقته ليلا في مبيته بعد خروجه من مضارب القبيلة ، وهو لم ير اللصوص بعينيه ولا رآهم رفيقه علي بن أحمد ، ولكن رفيقه هذا أحس بشيء فأطلق ثلاث رصاصات في الهواء للتخويف ، وانتهت القضية عند هذا الحد ، والقصة كما سيراها القارىء في محلها ، كلها ملفقة تحتاج الى المؤيد المادي ، فمن أدراه ان علي بن احمد أحس باللصوص ؟ ومن أدراه أنه لم

يطلق الرصاص إلا لمجرد التخويف للطراق أي طراق كانوا ؟ ومن أدراه أن اللصوص ، على فرض وجودهم ، كانوا من تلك القبيلة ، أما ما رواه عنهم من أنهم خافوا منه لأنهم ظنوا أنه من أعوان الحكومة الذين يطاردونهم من أجل الضرائب فهو أمر يحتاج الى تفكير وتعليق ..؟

3 — ومن الأمور التي اندفع فيها المؤلف بدون روية ولم يعللها التعليل الصحيح هو لومه لقبيلة ورفلة — أو على الأصح — حي من أحياء ورفلة العديدة على عدم تقديم الطعام له ليلة مبيته عندهم ، ووصفهم من اجل ذلك بالشح وعدم اكرام الضيف ولؤم الاستقبال ، ولو كان يدرك عادات وتقاليد البدو لتجاوز عن هذا الحدث ولم يثبته في رحلته ، فهو نفسه يذكر ان نزوله عليهم صادف وفاة احد افراد القبيلة ، وعادة البدو ان لا يطبخوا طعاما ليلة وفاة الشخص ، ولا يوقدوا نارا بل يبيت الحي كله على الطوى ، فمن الطبيعي إذن أن لا يضحوا بتقاليدهم في سبيل ضيفهم ولو كان من اعز الناس عليهم .

بالاضافة إلى هذا أن مسألة الاغارة على الناس ونهب أرزاقهم شيءكان معمولا به ومعروفا عند قبائل البدو في ذلك العهد ، سواء في صحراء طرابلس او صحراء تونس ، ولا يعتبرون ذلك لصوصية مستهجنة بل هي عندهم من أوصاف الشجاعة والفروسية ، لكن من أين للمؤلف أن يدرك هذه الأشياء أو يعرف هذه التقاليد وقد عاش في وسط متحضر بالعاصمة التونسية ؟

4 — ان اولئك الذين رماهم المؤلف بكل نقيصة لهم ألف حق في التشكك في شخصيته فهو ينشر في كل مكان وفي كل مناسبة الأحاديث المستفيضة عن عدالة فرنسا وعن رحمتها ، وعن عظم ثروتها وانها صديقة الاسلام والمسلمين ، وأنها أحسن الدول في سياستها مع العرب المسلمين بالخصوص وان في استطاعتها ان تحتل الأمم والشعوب بفضل

قوتها الحربية ولكنها تغلب جانب السلم والرأفة والحنان ، وانها نشرت في تونس والجزائر الأمن والسلام والعدالة والثروة .

ان كلاما من هذا النوع يتحدث به المؤلف في مجلس من المجالس ، او يهمس به لأحد أصدقائه ، لابد أن يتسرب إلى الناس ويسمع به الكثيرون فيثير فيهم نزعة الحذر والشك في سلامة نية قائله .

5 ـــ يحاول المؤلف ، ويلح في محاولاته ان غدامس وغات كانتا تابعتين للحكم التونسي زمن البايات الحسينين ، ولإثبات ذلك يأتي بدلائل منها الهدايا التي كانت متبادلة بين البايات وحكام المدينتين ، مع الملاحظة أنه لم يثبت لنا أي وثيقة معتمدة في هذه القضية .

نعم إنه محق في هذه الدعوى في عهد الحفصيين حين كانت مقاطعة طرابلس كلها تابعة للحكم التونسي ، ولكننا لا نعرف هذه التبعية في عهد الحسينيين ، وتبادل الهدايا لا يدل على التبعية في الحكم .

ولم يقتصر المؤلف على هذه الدعوى بل هو يحرض فرنسا على احتلال هذه الجهات بقواتها الحربية تارة بالصراحة وتارة بالاشارة ، وهو يصنع هذا تبعا لمطامع الحكام الفرنسيين في ذلك العهد ومطامعهم في الاستيلاء على هذه الجهات ليتمكنوا من الوصول الى فزان ، ومنه ينفذون الى السودان ، وهو ما حاوله صاحبه المركيز دي موريس في مغامرته التي اراد ان يفتح بها الطريق الى السودان عبر هذه الجهات .

حياة الحشائشي :

تعرض المترجمان لحياة المؤلف محمد بن عثمان الحشائشي في مقدمتهما للترجمة الفرنسية التي سنوردها بعد هذه المقدمة ، ورأينا ان نعزز ترجمتهما

للمؤلف بتفاصيل أخرى أوسع عن حياة المؤلف وثقافته وكتبه حتى يكون قارىء هذه الرحلة على إلمام تام بمؤلفها .

ولم نشأ ان نقتصر على ترجمة المترجمين للمؤلف لأنها مختصرة جدا ، ولكننا اعتمدناها في تاريخ الاحداث نظرا لانهما ينقلانها عن السيرة الذاتية التي كتبها المؤلف بنفسه حسبما صرحا بذلك في مقدمتهما ، ولهذا يكون الدرك في الخطأ الذي ربما يوجد في التاريخ على كاهل المؤلف الذي سلم لهما سيرته الذاتية ، وحضر معهما في ترجمة النص العربي للرحلة حسب تصريحه في الذيل .

مولده ونشأته :

ولد صاحب الرحلة محمد بن عثمان بن محمد بن الحاج قاسم الحشائشي الشريف بتونس العاصمة في 26 رمضان 1269 الموافق 12 جوان 1853 في عهد الباي المشير احمد باشا الاول (6) وعائلته تنتسب الى الاشراف من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان بيتهم بيت علم تولى افراده الخطط الشرعية والادارية السامية ، فقد تولى جده محمد الحشائشي القضاء الشرعي في عهد الباي حمودة باشا الحسيني (7) كما شغل خطة وكيل دار الباشا التي كانت تقوم مقام محكمة عدلية في ذلك العهد ، اما والده عثمان الحشائشي فقد تخرج على فطاحل علماء عصره في العلوم الشرعية والعربية وباشر خطة العدالة وهي الانتصاب للشهادة بين الناس ، وألف كتبا عرف منها كتاب في علم التوثيق .

---

6) المشير احمد باشا الاول ولد 1221 هـ 1806م وتولى الملك 1253 هـ 1837 م وتوفي 1271 هـ 1855 م .

7) من اشهر بايات تونس ولد 1173 هـ 1759 م وتولى الملك 1196 هـ 1782 وترك آثارا عمرانية طيبة ودخل في حروب عديدة مع البندقية والجزائر وليبيا التي ارجع لها عائلة القرمانلي وتوفي 1229 هـ 1814 م .

تربيته وتعليمه :

تولى تربيته اولا والده الحاج عثمان فأدخله الكتاب القرآني المعروف بحي (حوانت عاشور) فحفظ القرآن على المؤدب الشيخ حسين المعاوي ثم تلقى الروايات على الشيخ محمد جراد واخذ عنه اساليب النثر ونظم الشعر ومبادىء العلوم العربية .

وتوفي والده في 18 رمضان 1283 هـ 13 جانفي 1868 م (8) ، فكفله اخوه عزوز الحشائشي الذي احتل مكانة والده في العائلة .

وانخرط محمد الحشائشي في سلك طلبة جامع الزيتونة المعمور 1870 م (9) لينهل من علوم العربية والدين على فطاحل الشيوخ المدرسين امثال الشيخ سالم بوحاجب (10) ومحمود بن الخوجة (11) وغيرهما وتخرج من جامع الزيتونة حاملا لشهادة (التطويع) ولم يكتف الحشائشي بما حصل عليه من علوم الشريعة والعربية ، بل انكب على تعلم اللغة الفرنسية حتى استطاع ان يتكلم بها ويكتبها ، كما كان له المام باللغة الايطالية ، ويظهر انه تعلمها بممارسة الحديث مع الايطاليين

---

8) حسبما جاء في مقدمة المترجمين

9) هكذا اثبت المترجمان تاريخ دخوله للجامع الاعظم ، وسيذكران بعد أنه دخل موظفا بجمعية الاوقاف سنة 1875 م ، وهذا يصح ان دخل للزيتونة مدعيا ، ونجح في السنتين الاولى والثانية ، وبدأ في الثالثة ، أما اذا بدأ من السنة الاولى فان تاريخ دخوله يجب ان يكون سنة 1868 ، ليحصل على شهادة التطويع بعد سبع سنوات أي 1875 م واثرها توظف بالاوقاف .

10) اصله من (بنبلة) بالساحل وهو مولود في سنة 1263 هـ (1827) وتعلم بالزيتونة وبها تولى التدريس ، وتدرج في الوظائف الشرعية حتى اصبح كبير المفتيين المالكيين ، وترك تآليف في الفقه والحديث والخطب والرسائل واشترك مع خير الدين باشا في تحرير كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) وتوفي 1342 هـ (1924 م)

11) ولد بتونس 1249 هـ 1833م وتخرج من الزيتونة وتولى بها التدريس مدرسا من الطبقة الاولى 1278 هـ 1861 م وتولى الافتاء 1303 هـ 1885 م ومشيخة الاسلام 1318 هـ 1900 م وتوفي 1329 هـ 1911 م .

الموجودين بكثرة في العاصمة ، فهو يقول عن معرفته لهاتين اللغتين في سيرته الذاتية ـــ حسبما اورده المترجمان :

(اني شديد الشغف بالدراسة ، وقد خصصت لها اغلب اوقاتي ، واعرف شيئا من اللغتين الايطالية والفرنسية بقدر يكفي احيانا لفهم ما يقال امامي ولا يكفي لاجادة القراءة والكتابة بهاتين اللغتين (12)

الحشائشي الصحافي :

عرف الحشائشي بالحيوية ونشاط الحركة وشغفه بالتحرير في الادب والعلم ، وبدأت آثار نشاطه الادبي تظهر ايام دراسته وبعد تخرجه ، في المجلات والجرائد التونسية فكتب في عدة مواضيع ادبية واجتماعية ونشر عدة قصائد شعرية من نظمه ، وجملة من الطرائف الادبية ، وعمرت بمقالاته مجلة (السعادة العظمى) (13) وجرائد (الزهرة) (14) والحاضرة (15) و(الرائد الرسمي) (16) الخ .

الحشائشي المؤلف :

ولم يقتصر الحشائشي على ما يكتبه في الجرائد والمجلات بل دفعته طاقته العجيبة وشغفه بالكتابة في أغلب المواضيع الادبية والعلمية الى ممارسة التأليف وكانت له سرعة غريبة في تحرير المؤلفات المختلفة وترك لنا عددا من الكتب ضاع بعضها ولم يحتفظ لنا التاريخ الا باسمائها ، ونشر بعضها ، ولا يزال البعض الاخر مخطوطا .

12) من مقدمة المترجمين الآتية .

13) مجلة صدرت 1904 بإدارة المرحوم الشيخ الخضر بن الحسين وتوقفت قبل تحوله الى الشرق

14) صدرت 1890 وادارها المرحوم عبد الرحمان الصنادلي وتوقفت أوائل عهد الاستقلال

15) صدرت 1888 بإدارة المرحوم علي بوشوشة وتوقفت بعد 23 عاما تقريبا وكانت لسان الشباب التونسي .

16) لسان الحكومة صدرت 1860 واستمرت الى اليوم .

فمن هذه الكتب :

1 ـــ الدرة النقية في مقاصد الدولة الفرنسية. ألف سنة 1881 طبع في باريس سنة 1882 حسبما جاء في مقدمة المترجمين ويلاحظ انهما اثبتا اسمه هكذا (الدرة النقية في النوايا الصادقة للحكومة الفرنسية) (17) وقد سبق التعريف بمضمونه .

2 ـــ رحلة الشتاء او العهد الوثيق في هناء الصديق. كتيب صغير طبع بتونس سنة 1895م. ويتضمن وصف رحلته الى سوسة بمناسبة دعوته الى حضور عرس ابن المرحوم الحاج محمد بن خليفة احد مشاهير الولاة في عهد الحماية الفرنسية ، وتهنئة المؤلف للداعي في هذه المناسبة .

3 ـــ معرض باريس 1900 فيه وصف زيارته لهذا المعرض

4 ـــ تاريخ جامع الزيتونة ، كتيب صغير حققه الاستاذ الجيلاني بلحاج يحي و نشره المعهد القومي للفنون والآثار سنة 1974 .

5 ـــ جلاء الكرب عن طرابلس الغرب او النفحات المسكية في اخبار المملكة الطرابلسية ، حققه الاستاذ علي مصطفى المصراتي ونشره سنة 1965 وقد سبق التعريف بهذا الكتاب في هذه المقدمة .

6 ـــ تاريخ الحكومة التونسية قبل الاحتلال الفرنسي واحكامها وادارتها ، مسجل بدار الكتب الوطنية بتونس تحت عدد 4489 ولم نطلع عليه .

7 ـــ الدرة النقية في تهاني الحضرة العلية ، مسجل ايضا بدار الكتب الوطنية تحت عدد 18652 ولم نطلع عليه .

---

17) انظر مقدمة المترجمين

8 ــ الاعلام بعلوم العرب وصنائع الاسلام ، ذكر هذا الكتاب المترجمان في مقدمتهما الآتية ، وقالا ان الحشائشي ألفه أثناء دراسته بجامع الزيتونة : (فقد ألف في تلك الفترة كتابا ظل مخطوطا في العلوم والصناعات عند المسلمين ابرز فيه كل ما يدين به العلم الاروبي للعلماء العرب القدامى)

9 ــ الهدية في عوائد المملكة التونسية مخطوط وتوجد منه نسخة مصورة بدار الكتب الوطنية ، وقد اشرنا سابقا الى انه ألفه بطلب من الفرنسيين حتى يكونوا على علم من عادات البلاد وتقاليدها ، وهو يتألف من ست عشرة مقالة وخاتمة ، ويمكن ان نلخص مضامينها فيما يلي :

المقدمة في العوائد عند الامم وفي المدن والارياف
ــ المقالة 1 ــ في الولادة والتوليد
ــ المقالة 2 ــ في صناعة التوليد واعمال القابلة
ــ المقالة 3 ــ أنواع الأمراض التي يتعرض لها الأطفال
ــ المقالة 4 ــ في تربية الاطفال وتحسين اخلاقهم
ــ المقالة 5 ــ في التعليم واساليبه والمعلمين واماكن التعليم
ــ المقالة 6 ــ في أسباب المعاش والصنائع والحرف
ــ المقالة 7 ــ في اخلاق التونسيين
ــ المقالة 8 ــ في عوائد واوصاف وبدع مختلفة
ــ المقالة 9 ــ فيما يفعله التونسي في جميع اوقاته
ــ المقالة 10 ــ في اضرحة الأولياء والعادة في زيارتها
ــ المقالة 11 ــ في جوامع الخطب بالحاضرة
ــ المقالة 12 ــ في الدجالين ، والرمالة والمنجمين ، والمتطببين وما اليهم
ــ المقالة 13 ــ في اسعار مواد المعاش

ـــ المقالة 14 ـــ في مقتطفات من بعض العوائد
ـــ المقالة 15 ـــ في التعريف بالقطر التونسي
ـــ المقالة 16 ـــ في اسواق مدينة تونس وما يباع فيها
ـــ الخاتمة ـــ في عوائد تونس السياسية وما يتعلق بإدارتها .

وهو كتاب ضخم ـــ كما ترون ـــ جمع فيه الحشائشي كل شاردة وواردة

10 ـــ السكك الاسلامية ، واوزانها الشرعية ، ذكره المؤلف في آخر المقالة 13 من كتاب الهدية السالف الذكر ولا نعرف عنه شيئا .

11 ـــ رسالة في التعريف بالغدامسية ، ذكرها المؤلف أيضا في المقالة 14 ، ولا نعلم عنها شيئا .

12 ـــ رسالة في تاريخ القيروان وعلمائها ، ذكرها المؤلف كذلك في نفس المقالة 14 ، ولا نعلم عنها شيئا .

13 ـــ ديوان شعر ، سمعت انه موجود عند بعض الخواص

14 ـــ الرحلة الصحراوية التي نحن بصدد اعدادها للنشر وقد كنت اشرت الى فقدان اصلها العربي والى انها ترجمت للفرنسية في سنة تاليفها 1897 ونشرت في باريس 1903 .

المترجمان فمن هما المترجمان لهذه الرحلة ؟

فأما الفرنسي فهو مستشرق كان يحتل ـــ في ذلك العهد ـــ وظيف (مراقب مدني) بالسفارة العامة الفرنسية واسمه الكامل (فكتور سير Victor Serres) هذا كل ما أعرف عنه .

وأما التونسي فهو (محمد الاصرم) من عائلة (الاصرم) المعروفة بالعاصمة التونسية واصلها من القيروان ولد بتونس 1858 م وتعلم بالصادقية وجامع الزيتونة وسافر في بعثة طالبية الى فرنسا ورجع منها ليتولى التدريس

بالمدرسة العلوية ثم التحق بادارة الفلاحة واصبح مديرا لادارة الغابة ثم اصبح رئيسا للخلدونية ومدرسا بالصادقية والمدرسة العليا للغة والاداب العربية بالعطارين ، واشتغل مع فكتور سير بترجمة كتب عربية في مقدمتها هذه الرحلة و (المشرع الملكي) للصغير الباجي في التاريخ ، وتوفي 1925 م . .

الحشائشي الكاتب والشاعر :

بعد ذكر تآليف الحشائشي يجب أن نثبت كلمة نحاول ان نقيّم بها كتابته شعرا ونثرا حتى يكون القارىء على معرفة شاملة بهذا الرجل وآثاره ، مادامت اغلب كتبه لم تظهر للوجود .

فأما شعره فالذي استطعنا ان نطلع عليه في جلاء الكرب ، او رحلة الشتاء ، او ما نشر منه في الصحف التونسية القديمة وكل ما يمكن ان نقول فيه انه من النوع التقليدي الهزيل المليء بالتكلف ، والاستطراد مثلما هو معروف عما نسميه بشعر الفقهاء والمؤدبين .

وأما نثره فمن النوع البسيط أيضا الخالي من التعبير الفني والمنمق ، والمليء هو ايضا بالاستطرادات الهامشية الكثيرة ، وينحدر احيانا الى التعابير العامية او القريبة منها (18) فلا تكاد تقرأ له شيئا حتى تحس ان الكاتب يحاول ان يستوعب في كتابته كل شيء بدون أن يحسب حسابا لاختيار الالفاظ الملائمة والتعابير المشرقة بحيث تصح فيه العبارة العربية المعروفة (حاطب ليل) ، وتشعر ان الرجل كان يكتب بسرعة لا تترك له وقتا للتفكير وحسن الاختيار .

وهذا الاسلوب في النظم والنثر لم يختص به الحشائشي وحده بل

---

18) انظر الهدية في عوائد المملكة التونسية

اسلوب غالب كتاب عصره ، وربما كان الحشائشي اغزرهم مادة وابرعهم تنقلا بين المواضيع وانقاهم تحريرا من حذلقات السجاعين والمتكلفين .

الحشائشي الموظف

اشرت سابقا الى ان المؤلف كان طموحا وكان يؤمل من وراء انتمائه للفرنسيين والاندفاع في تقديم الخدمات لهم ، ان يكون ذلك سببا في الرفع من قيمته ومكانته في المجتمع بالحصول على وظيف سام يؤمن به لنفسه ولعائلته العيش الرفيه وقد تذمر كثيرا من ضيق عيشه وكبر عائلته ، وبدأ هذا التذمر خاصة ، عندما قدم طلبا في الحصول على وظيف مدرس بالمدرسة العلوية عند افتتاحها فرفض مدير المدرسة مطلبه ، وادرك الحشائشي خيبة مرة ولم ينفعه انتماؤه للسيو (روا) ولا الخدمات الجليلة التي قدمها للحماية الفرنسية .

ولكن اذا خاب مع الفرنسيين فان التونسيين لم يخيبوا ظنه ، فقد اطلع الشيخ محمد بيرم (19) رئيس جمعية الأوقاف على ما يدبجه قلم الحشائشي في الصحافة ، وادرك ما يتحلى به هذا الشاب من حيوية وحركية فاستدعاه ليكون كاتبا خاصا له يكتب له تقاريره ورسائله .

ثم عينه عدلا للقشلات والحصون بامر من الباي محمد الصادق مؤرخ في 28 ربيع الأول 1293 الموافق 23 افريل 1876م .

وفي نفس السنة سعى له الشيخ بيرم ليصبح عدلا للجان العشر في جهات ماطر وبجاوة والكعوب بأمر من الباي المذكور .

19) محمد بيرم بن مصطفى بيرم تخرج من الزيتونة وتولى المناصب الهامة كرئاسة جمعية الأوقاف ، ولد بتونس 1256 ــ 1840 وعند انتصاب الحماية على تونس هاجر الى الاستانة ثم تحول الى مصر حيث اصدر جريدة الاعلام 1302 ــ 84 ــ 1885 م وتعطلت حين تولى القضاء بمصر 1306 هـ 1888 م واشتهر بعدائه للاستعمار الفرنسي وبانتمائه للوزير خير الدين وتوفي 1307 ــ 1889 م ودفن بالقاهرة ومن اشهر مؤلفاته : صفوة الاعتبار في 5 أجزاء .

وفي السنة الموالية 1877 سمي عدلا للجان العشر في كامل الايالة التونسية .

وتوقف عمله في هذا الوظيف بسبب خروجه للرحلة الصحراوية في 10 ماي 1896 م ، ولما رجع الى تونس في أواخر فيفري 1897 (رمضان .1314 هـ) ، سمي متفقدا عاما للمكتبات الزيتونية التابعة للجامع الأعظم ، وبقي في هذا الوظيف حتى وفاته .

وفاته :

توفي محمد بن عثمان الحشائشي في 3 ذي الحجة 1330 هـ الموافق 12 نوفمبر 1912م، بعدما انهى تحرير كتابه الاخير (جلاء الكرب ، عن طرابلس الغرب) رحمه الله .

هذا وقد بذلت ما استطيع لتصحيح بعض الاخطاء الواردة في الترجمة الفرنسية التي هي ــ حسب الظن ــ اخطاء مطبعية ، وحاولت ان اضع في الهوامش ما أمكنني الحصول عليه من تراجم مختصرة للشخصيات التي ورد ذكرها في الكتاب ، الا ان بعضها لم نعثر لها على تراجم مكتوبة يمكن ان نستفيد منها ، كما ابقيت على ترتيب فصول الكتاب حسبما وردت في الترجمة الفرنسية محافظة مني على ترتيب المؤلف الذي اخبرنا في ذيل الكتاب : ان ترجمته وقعت بحضوره من أوله الى آخره ، ولم أضف إليه إلا الفهارس .

ويلاحظ ان هناك هوامش للمترجمين بالكتاب بيناها في آخرها بكلمة (المترجمان) لتمييزها عن الهوامش الأخرى التي اضفناها .

ومع هذا الجهد الذي بذلته فاني اشعر انه عمل ناقص نتيجة فقدان الاصل العربي ، فالترجمة مهما تكن دقيقة ، لا يمكن ان تعطى المعاني

التي يعطيها الاصل ، بالاضافة الى عمد المترجمين الى حذف بعض الاشياء التي اعتبراها غير ذات جدوى ولا يتماشى ذلك مع الامانة ولو كان برضا المؤلف مثل عمدهما الى حذف اسماء من قائمة التجار الغدامسيين في السودان .

صدفة غريبة :

ومن اغرب الصدف اني انتهيت من كتابة هذه المقدمة في نفس اليوم الذي بدأ فيه الحشائشي رحلته الصحراوية 10 ماي 1896 م وقد مر على ذلك اليوم خمسة وثمانون عاما ، والتاريخ عبرة وذكرى .

حمام بورقيبة ــ عين دارهم
في 10 ماي 1981
محمد المرزوقي

مقدمة المترجمين

خطة عند التونسة يعني وظيفة عندنا

ترجمة المؤلف :

مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ محمد بن عثمان الحشائشي ، شغل جده الحاج محمد بن الحاج قاسم الحشائشي خطة قاضي الفريضة (1) وخطة وكيل دار الباشا (2) بتونس في عهد حمودة باشا ، يرجع نسبه الى فاطمة الزهراء ابنة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ما جعله يلقب بالشريف ، وهو لقب الشرف الوحيد المعترف به عند العرب .

وقد كانت عائلة الاشراف هذه ، في الآن نفسه ، عائلة علم حسبما تدل عليه شهادة المؤرخ التونسي ابن ابي الضياف (3) ، وشيخ الاسلام

1) قاضي الفريضة : هو الحاكم المكلف بتحديد النصيب الراجع الى كل وريث في المواريث الاسلامية ، وقد تعود العرب على ان يعيشوا دون قسمة ، ولا ترث البنات بنفس نسبة الأبناء ، وهكذا نتصور مدى عناء ضبط الحسابات من هذا النوع بعد مرور عدة اجيال (المترجمان)

2) نعلم أن السلطة في الاصل كانت مقسمة بتونس بين الباشا وهو الممثل الرسمي للحكومة التركية والداي وهو قائد الحماية التركية التي يؤلف ضباطها الديوان ، والباي ، وهو قائد اهالي البلد ، وقد كانت دار الباشا مركز الادارة التركية ، ومكان دفع الضرائب التي تقوم — بصفة تكاد تكون كاملة — بشؤون الحامية التركية التي هي في الاصل سيدة البلاد الحقيقية ، وقد افضت سلسلة طويلة من الحروب الاهلية في القرن 18 م الى جعل الباي السيد الوحيد للايالة ، واصبح الداي صنيعة للباي الذي جمع — الى لقبه — لقب الباشا رغم ان تولية هذا الاخير بقيت موكولة دائما الى القسطنطينية ، وبقيت دار الباشا بعض الوقت ، وحتى في حكم البايات ، مركزا للادارة ، لكن الدواليب الادارية الجديدة التي تكونت فيما بعد ، مثل الوزارات المختلفة ، لم تبق مرتبطة بها واصبحت نواة الادارة الجديدة المتجمعة في دار الباي ، ولم يبق اليوم من دار الباشا سوى الذكرى . وقد كان وكيل دار الباشا هو الموظف المكلف بالسهر على المداخيل والمصاريف التي يقوم بها هذا الصندوق (المترجمان)

3) صاحب (اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان) ولد 1219 هـ 1804 م وظهرت عبقريته في أيام احمد باي الاول ، وتقلب في الوزارة والكتابة الخاصة وكان من أنصار خير الدين باشا ، توفي 1291 هـ 1874 م

محمد بن الخوجة (4) صاحب التآليف المتنوعة في تراجم اشراف تونس ، والعالم سيدي ابراهيم الرياحي (5) الذي نظم قصيدة مدح في الحاج محمد الحشائشي جد رحالتنا هذا .

ولد محمد الحشائشي بتونس في 26 رمضان 1271 / 12 جوان 1855 (6) وقد سهر والده المعروف بتضلعه في العلوم الاسلامية ، وصاحب المؤلفات الكثيرة في الفقه والنحو ، على تربيته وسلكه في عداد تلامذة الشيخ سيدي الحاج حسين المعاوي الذي كانت مدرسته بحي حوانيت عاشور ، حيث تعلم القرآن والنحو .

توفي ابوه في 18 رمضان 1283 / 13 جانفي 1868 عن سن تفوق الثمانين ، فأقبل محمد الحشائشي بكليته على دراسة العلوم ، وحفظ عن ظهر قلب المتون المختلفة التي كانت ــ بصفة عامة ــ منظومة ، والتي تشتمل على عناصر العلوم الاسلامية الرئيسية ،ويسرد في سيرته الذاتية ــ التي كتبها بمناسبة نشر هذه الرحلة ، والتي اقتبسنا منها المعلومات المتوفرة في هذه المقدمة ــ قائمة في مختلف التآليف التي حفظها بهذه الطريقة ، ونحن نجنب القارىء مؤونة اعادة السرد الجاف لهذه القائمة رغم ما تمثله من برنامج دراسات هامة من الناحية البيداغوجية ، ذلك انها تحتاج ــ كي تفهم ــ الى تعاليق يضيق عنها نطاق هذه المقدمة .

4) من اعلام شيوخ الحنفية بجامع الزيتونة ، درس وافاد ، وتقلب في الوظائف الشرعية حتى بلغ مشيخة الاسلام وتوفي 1279 هـ 1862 م .

5) ولد 1180 هـ 1766 م وتخرج من الجامعة الزيتونية وتولى بها التدريس وتدرج في الوظائف الشرعية حتى اصبح رئيس الافتاء على المذهب المالكي بتونس واشتهر بالشعر والنثر والدهاء السياسي ، ورحل الى الاستانة والى المغرب الاقصى ، ومنه جلب الطريقة الصوفية التجانية وتوفي 1266 هـ 1850 م ودفن بزاويته بالعاصمة .

6) لقد مر في التقديم انه ولد 1269 هـ 1853 م رواية عن الاستاذ محمد العنابي نقلا عن وثيقة بخط الحشائشي نفسه ، وما اثبته المترجمان نقلاه من الحشائشي ايضا . والظاهر ان الحشائشي هو الذي أخطأ في احد التاريخين .

انتظم سنة 1870 م في سلك طلبة الجامع الاعظم ، حيث يقع تدريس العلوم العالية الاسلامية ، وكان من شيوخه الشيخ سالم بوحاجب ، وسي عمر بن الشيخ (7) والشيخ محمد بيرم وشيخ الاسلام احمد بن الخوجة (8) وفي نفس الوقت الذي أكبَّ فيه على دراسة العلوم العقلية والنقلية ، اشتغل بالتدريب على كتابة تآليف مختلفة نظما ونثرا ، وقد كان لتآليفه الاثر المحمود لدى جمهور الادباء .

فقد ألف في تلك الفترة كتابا ظل مخطوطا ، في العلوم والصناعات عند المسلمين أبرز فيه كل ما يدين به العلم الاروبي للعلماء العرب القدامى .

وفي سنة 1875 م لفت انتباه الشيخ محمد بيرم الذي كان يشغل حينذاك خطة رئيس ادارة الاحباس (9) فاتخذه كاتبا خاصا ، وعينه عدلا للقشلات والحصون ، بموجب أمر من الباي محمد الصادق (10) بتاريخ 28 ربيع (11) 1293 / 23 افريل 1876 ، ثم عينه نفس الباي

---

7) ولد براس الجبل ولاية بنزرت سنة 1237 هـ 1822 م ودخل جامع الزيتونة 1259 هـ 1843 م وبه تخرج وتولى التدريس فأفاد وتخرج عليه جملة من شيوخ الزيتونة ، واضاف الى التدريس خطة قضاء باردو ثم الافتاء وتوفي سنة 1329 هـ 1911 م

8) من شيوخ الزيتونة بتونس ، تولى القضاء والفتيا على المذهب الحنفي ومشيخة الاسلام سنة 1294 هـ 1877 م ومولود بتونس 1245 هـ 1830 م وبها توفي 1313 هـ 1896 مَ ، له كتاب (كشف اللثام عن محاسن الاسلام) .

9) الأحباس ، وتسمى في مصر وتركيا ، الاوقاف ، وهي الاملاك لا مالك لها ، تخصص لفائدة اعمال البر والتقوى ، وحتى لفائدة خواص يعينهم مؤسس الحبس ، ويعهد بالتصرف في الاحباس العامة ومراقبة الاحباس الخاصة الى إدارة خاصة (المترجمان)

10) محمد الصادق باي : ولد 1219 هـ 1814 م وتولى الملك 1276 هـ 1859 م وكانت على يده نكبة البلاد بالحماية الفرنسية 1881 م وكان لوزيره الاكبر مصطفى بن اسماعيل الذي حل محل خير الدين سنة 1294 هـ 1877 م اكبر الاثر في تلك النكبة وتوفي 1299 هـ 1882 م

11) ربيع الاول ، ولم يعينه المترجمان .

عدلا للجان العشر (12) العاملة في اعمال : ماطر ، وبجاوة ، والكعوب، وفي السنة الموالية عين عدلا للجان العشر بكافة الايالة ، وهي الخطة التي شغلها حتى موعد رحلته ، وقد عين حافظا لمكتبة الجامع الاعظم بتونس بعيد رجوعه من الرحلة ، وهو المنصب الذي يشغله حاليا (13) .

ويصف نفسه في سيرته الذاتية فيقول : (اني شديد الشغف بالدراسة ، وقد خصصت لها اغلب اوقاتي ، واعرف شيئا من اللغتين الايطالية والفرنسية بقدر يكفي احيانا لفهم ما يقال أمامي ، ولا يكفي لاجادة القراءة والكتابة بهاتين اللغتين ، ولي بعض المعلومات عن جغرافية اوروبا ، وعن سياسة الدول الاوروبية ، وعن التاريخ الحديث ، أما المسألة التي تعلقت بها اكثر من غيرها فهي دراسة الطرق الكفيلة بتقريب الشقة بين الفرنسيين والعرب ، وقد كانت شغلي الشاغل قبل احتلال فرنسا لتونس ، وهو ما تشهد به مؤلفاتي المكتوبة في تلك الفترة ، وكنت كلما تهيأت لي الفرصة لا أتردد في القيام بما في مقدوري حتى ايسر هذا التقارب .

وهكذا فقد الف كتابا بعنوان (الدرة النقية في النوايا الصادقة للحكومة الفرنساوية) سنة 1881 م حين شبت ثورة بالايالة، اثر انتصاب الحماية ، حاولت فيه ابراز المقاصد التمدينية لفرنسا تجاه سكان الايالة ، معرفا بهذه المقاصد بالتفصيل ، وبالنتائج السعيدة التي ستنجر عن الحماية ، وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة 1882 م بأمر من وزارة الخارجية وعمل السيد كامبون (14) على توزيعه بكامل انحاء الايالة حيث

---

12) العشر : هو ضريبة على الحبوب يحدد مقدارها كل سنة بحسب مظهر محاصيل كل ارض بواسطة عدة لجان تتنقل لهذا الغرض في كامل الايالة (المترجمان)

13) أي زمن ترجمة الكتاب .

14) ايميل كامبون المقيم العام لفرنسا بتونس من 18 فيفري 1882 الى 14 نوفمبر 1886

ساهم في تبديد المخاوف المعششة في عقول الاهالي ، واعتقد انه يمكنني القول بأنه ساهم بصورة ما في إنهاء الانتفاضة .

وقد كان من المحتم ـــ نظرا الى هذا الاستعداد الذهني لديه ـــ ان يتأثر شديد التأثر بالمحاضرتين اللتين القاهما ـــ الواحدة تلو الاخرى ـــ كل من القس لوازون H. Loyson (15) والمركيز دي موريس Marquis de Morès(16) حول إمكانية التقارب بين المسيحيين ـــ او ـــ الفرنسيين وبين المسلمين وهكذا فانه ، ما ان عرض عليه امر اعانة السيد دي موريس في السعي لتطبيق هذه النظرية ، حتى قبل ذلك دون اعتراض ، لثقته في نجاح المهمة .

نحن نعرف الظروف التي تمت فيها مهاجمة القافلة التي كان يقودها السيد دي موريس وتحطيمها قبل ان تتمكن من بلوغ غات ، وقد كانت هذه المدينة هدفها ، حيث كان من المقرر اللقاء بينه وبين محمد الحشائشي ، وكان على هذا الاخير ان يقود السيد دي موريس الى منزل رئيس الطريقة السنوسية .

ولئن كان من المفيد التعرف على نتائج هذه المقابلة ، فإنه يمكن القول بأن هذه الرحلة الفاشلة لم تذهب سدى ، فنحن مدينون اليها بهذا الكتاب الذي يشتمل على معلومات دقيقة في خصوص طريقة دينية ، شهرتها اكثر مما نعرف عنها ، وجهة تكاد تكون مغلقة أمام الاوروبيين .

---

15) القيت يوم 29 نوفمبر 1895 م ، ولوازون هذا هو شارل لوازون ويدعى الاب هايسنت ولد 1827م وشغل الوعظ بكنيسة Notre Dame بباريس سنة 1865 م وكان معارضا للبابا ولطائفة الرهبان الجزويت مما دفعه الى الانسلاخ عن الكنيسة البابوية واسس كنيسة فرنسية سنة 1879م وحاول ـــ دون جدوى ـــ خلق حركة معارضة للبابوية بفرنسا وتوفي سنة 1912 م .

16) القيت يوم 20 مارس 1896 م والمركيز هذا مولود في 1858 توفي في جوان 1896 بالوطية قرب غدامس بالصحراء الكبرى ، انظر ترجمته كاملة في كتابنا (صراع مع الحماية) ص 359 وما بعدها .

الفصل الأول

من تونس إلى بنغازي

شغف المؤلف الدائم بالرحلات ـــ وصول المركيز دي موريس الى تونس ـــ اتصاله بالمؤلف واقتراحه عليه ان يساهم في بعثته ـــ تنظيم قافلة المركيز دي موريس ، ـــ سفره ـــ مغادرة المؤلف لتونس في 10 ماي 1896 ، ومروره بمالطة وطرابلس ، ووصوله إلى بنغازي .

ان السفر الى أجزاء العالم ، والسعي الى اكتشاف البلدان البعيدة والدخول الى الجهات التي يصعب الوصول اليها ، وقطع الهضاب والسهول ، وتسلق الجبال ، وعبور الصحارى من غير ماء ، واجتياز البحار والانهار ، واعتبار مختلف مظاهر الارض ، ودراسة طبيعتها ، واستكشاف الاودية ، وملاحظة آثار الماضي ، والعثور من جديد على المباني التي اورثتنا اياها الاجيال السالفة ، بمختلف سكان المدن والارياف ، والبحث عما كون هذه التجمعات للافراد ، من أين تستمد ماهيتها ؟ وما هي حالتها الاقتصادية ؟ ودراسة طبائعها وعوائدها ، أليس كل هذا جديرا بتركيز اهتمام رجال النخبة ، وأسر أولئك الذين يهتمون بكرامتهم ؟ وفعلا فان مثل هذا العمل مجعول ليتمم التربية ، ويخلق عقلا جديا يتقدم على طريق الاعتبار والكمال .

فمنذ غادرت تمائمي ، ولبست عمائمي ، كانت لي ـــ على الدوام ـــ رغبة ملحة للسفر ، وكان لي ـــ على الدوام ـــ شغف بالتنقل، وكانت مهامي الرسمية تتمثل ـــ فعلا ـــ في التجوال سنويا الى الجهات القصوى بالايالة ، وقد حصلت في جولاتي على التعود بمختلف أنواع

المراكيب المستعملة في هذه البلدان ، وكذلك على قطع الطريق صغيرها وكبيرها بجلد كبير .

وقد غنمت منها ايضا التعرف على طبائع البدو ، وتعودت بطرق معيشتهم ، وأمكنني أن أعيش مثلهم .

وقد اهتممت ـــ على الدوام ـــ بصفة خاصة ـــ بحكايات الاستكشافات ، ومنذ بلغت سن التفكير تابعت باهتمام كل المحاولات التي قام بها الاروبيون لربط علاقات مع الصحراء والسودان ، وكنت أسعى إلى أن اتحصل ـــ اثر وقوعها ـــ على الاسباب الحقيقية التى نجحت من اجلها هذه المحاولات ، أو فشلت ، ويقيني المدعم بالبرهان ان هذه الاكتشافات كان لابد ان تنجح لو كانت تقاد بطريقة عقلية ، ولم يغامر من يسيرها بالدخول في منطقة ما ، الا بعد ان يقع في التحقق من عقلية البشر الموجودين فيها ، وان تتخذ كل الاجراءات التي تمكن من حسن الاستقبال .

وقد توصلت الى الملاحظة التالية : كم يكون مجديا لفرنسا بأن يجوب مستكشفون مسلمون بلاد وسط افريقيا التي تنوي مدّ نفوذها وتصرفها اليها ، وان يعرفوها تفصيلا بالظروف المادية لمعيشة السكان وحاجاتهم ورغباتهم ومخاوفهم ، حتى تعلم الحكومة ما يجب ان تجلبه الى هؤلاء السكان لتحظى باستقبال حسن من لدنهم ، وتعلم ـــ بعكس ذلك ـــ ما يثير تخوفهم .

ولا يرغب أهالي الصحراء والسودان في استقبال من يأتون لهدف سياسي ، ويتخوفون من الذين يدعون انهم مدفوعون باهتمام علمي فحسب ، ولكنهم متعودون على استقبال المسافرين الذين يتنقلون بالبضائع للقيام بالتجارة وهي الشغل الوحيد الذي يأتي في هذه البلاد بالثراء والرفاهية .

ولهذه الاسباب وما سبقها كانت لي — على الدوام — رغبة في القيام برحلة في الصحراء ، وان امدد ذلك — ان كان ممكنا — الى السودان ، حتى أشاهد عندهم اخوان الرابطة الدينية السنوسية ، والتوارق ، وبقية سكان وسط افريقيا ، لأتبين موقفهم تجاه فرنسا ، وحتى اجمع كذلك ارشادات دقيقة لاستعمال من يرغبون في القيام بتجارة مع هذه البلاد ، حول نوع البضائع التي تروج فيها ، وكذلك منتجات هذه البلاد القابلة لان تستخدم في أوروبا .

وذات يوم بينما كنت افكر في المحاضرة البديعة التي القاها خطيب شهير هو الاب لوازون Loyson منذ زمن قريب بتونس (1) حول اتحاد الامة الفرنسية والامة العربية والتقارب بين الديانتين ، وهو تقارب مطابق

1) في يوم الجمعة 29 ماي نوفمبر 1895 القي السيد هياسانت لوازون Hyacinthe Loyson بتونس محاضرته العمومية حول (التقارب بين المسيحية والاسلام) ويمكن أن نحكم على الاثر الذي أحدثته هذه المحاضرة في دنيا الاهالي عند قراءتنا للخطاب التالي الذي أرسله الى السيد لوازون — بعد أيام قليلة — جمع من الشبان المنتمين الى أفضل عائلات القضاة والموظفين المسلمين بتونس .

(سيدي ، أيها الاب العزيز ،

إن المسلمين الممضين اسفله ، يتقدمون اليكم — في اندفاع للاعجاب بالافكار التي حللتموها بمقدرة بالغة في محاضرتكم يوم الجمعة الماضي — معبرين عن مشاعر التقدير والعرفان ، واذا كانت فكرة التقارب بين ديانتين كبيرتين ، وهي فكرة نشاطرها بصفة قطعية ، قد الحت في الايام الاخيرة على عقول مفكرين كبار تفتخر بهم أوروبا ، وحق لها ذلك ، مفكرين يرتفعون فوق الاحكام المسبقة الجارية ، ويحلمون للانسانية بمستقبل من السلام والهناء ، فقد كان لابد من شهرة اسمكم ، وعظمة كلمتكم ، واتساع علمكم ، ليمكن تأكيد إمكانية هذا التقارب ، وبيان الوسائل الموصلة اليه ، ولكن كان لا بد من شجاعتكم لمهاجمة الافكار المسبقة ضد الاسلام .

فشكرا سيدي، أيها الاب العزيز ، لانكم ذكرتم كل حسن تظنونه في ديانتنا القائمة — مثلما تعلمون — على العدل والتسامح . ولكن اذا كانت نفسكم الكريمة الخاضعة لالهام التعلق الواسع بخير الانسان، قد لمحت هذا العهد الذهبي ، بالنسبة إلى قسمين كبيرين من الانسانية ، وهو عهد سيكون تتويجا لعمل تخصصتم للقيام به ، فان بعد نظركم ، بصفتكم فرنسيا ووطنيا ، قد اظهر لكم أي نفع عظيم يمكن لفرنسا أن تستنتجه من وحدة فرنسية اسلامية .

إن الممضين أسفله — وهم مقتنعون بالمنافع التي تنجر للمسلمين من تقارب لا يمنعه شيء يشكرونكم من أعمق أعماق قلوبهم لانكم وضعتم في خدمة هذه الفكرة الخصبة فصاحتكم الحارة والنافذة ، ويطلبون من الله ان يعينكم على بلوغ الهدف الشريف الذي تسعون إلى بلوغه) (المترجمان)

لمبدأ الاسلام (مثلما أعلن المرحوم شيخ الاسلام احمد ابن الخوجة ، وهو واحد من أكبر علماء عصره ، ومثلما يعترف بذلك أغلب المسلمين الأذكياء) ، اذ وقع اعلامي بوصول المركيز دي موريس الى البلاد التونسية ، وهو واحد من اشهر الاعلام الفرنسيين واكثرهم لطفا .

وقد كان المركيز دي موريس المتمتع بذكاء حاد ، من الرجال الذين يمتازون بشجاعتهم وجرأتهم ، وكذلك بالحماس الذي يسيرون فيه على الطريق الذي يعلمون ان غايته مجد يطلب وكان الحزم لدى المركيز دي موريس قاطعا كالحسام ، وقد ركب اخطارا قصوى في مختلف البلاد التي جلبته إليها حياة متقلبة ، وحينذاك اهمل بصفة كاملة شخصه ، وقد سعى في كل ما يمكن أن يوصله الى غاية جهوده المختلفة ، ولم تكلل بالنجاح .

ولكن ليس هذا موضوع حكاية المركيز دي موريس التي كانت تفاصيلها موضوع فصول عديدة في المجلات والصحف ، والتي تنتمي من الان الى التاريخ المعاصر .

وقد كان على المركيز دي موريس ان يلقي في تونس محاضرة حول اتحاد الفرنسيين والمسلمين وكان ينوي ان يبرز المنافع التي يمكن للجنسين الحصول عليها من وحدة كهذه ، وقد كنت ارغب في الاستماع اليه ، لان الموضوع الذي سيتناوله يكاد يكون مماثلا للموضوع الذي طرقه في السابق لوازون ، فطلبت من صديقي الحميم سي الطاهر العجيمي المترجم بالحكومة التونسية ان يصحبني الى هذه المحاضرة ، ليترجم لي كلام الخطيب .

وفي المساء المعين كنت موجودا وسي الطاهر بالمسرح الفرنسي ،

حيث لاقينا سي احمد بن ضياف (2) الذي صاحب المركيز دي موريس من عاصمة الجزائر الى تونس ، وقد كان رجلا ذكيا رفيع التربية ، وكان الجمع ــ وهو مؤلف من أجناس مختلفة ــ قد غزا القاعة بعد ، فساعدنا سي احمد للحصول على اماكن (3) وقد تجاوز ما لاحظته من فصاحة هذا الرجل وطريقته في عرض افكاره بوضوح ، والفن الذي يتحكم بواسطته في مستمعيه ، و يمرر فيهم حماسته وإيمانه ــ كل ما أقدر على قوله .

وعند حديثه عن قبائل الصحراء والسودان وعامة المسلمين ، ويبدو له تحالفهم مع الامة الفرنسية مرغوبا فيه وممكنا ، وباشارته الى الطرق التي يمكن بواسطتها التوصل الى عقد اتفاقات تجارية مع التوارق ، قد استطاع ان يعبر بنجاح نادر عن الود العميق الذي يحس به نحو الجنس العربي .

وقد قابلت من الغد سي احمد بن ضياف عند سي الطاهر العجيمي ــ وكان دعاه للعشاء ــ وبعد اربعة ايام اقبل سي الطاهر ليخبرني ان المركيز دي موريس قد قرر ان ينفذ الى الصحراء ، وانه عزم على زيارة الشيخ السنوسي (4) حتى يقع الاتفاق معه على الطرق التي ينبغي

---

2) هو غير المؤرخ التونسي ويظهر أنه واحد من أعوان المركيز دي موريس

3) في يوم الاحد 20 مارس 1896 القى المركيز دي موريس بتونس ، أمام قاعة مكتظة ، محاضرته حول التوغل في السودان ، والترابط الفرنسي الاسلامي ، وتفسر اللائحة التالية التي عرضها المحاضر على التصويت في هيئة خاتمة ، واقرها جمع الحاضرين ، نجاح هذه التظاهرة لدى المسلمين .

(ان الفرنسيين والمسلمين ، وسكان البحر الابيض المتوسط المجتمعين بتونس ، وقد بلغ عددهم الالفين ، يهتفون للترابط بين الفرنسيين والمسلمين ، وكذلك اتحاد سكان شواطىء البحر الابيض المتوسط ، للدفاع عن مبادىء الاستقلال والترابط وتحرير الارض والانسانية من نير المالية التي يمثل الانكليز اليوم ــ عبر العالم ــ اعوانها السياسيين ويبعث المجتمعون الى المسلمين الذين يقاتلون على ضفاف النيل بمودتهم وامنياتهم) (المترجمان)

4) يتعلق الامر هنا بزعيم طائفة السنوسية ، ويسمى في الواقع : سيدي المهدي وهي طريقة في التعبير منتشرة عند الاروبيين وكذلك عند الاهالي على حد السواء ، ولكنها يمكن ان تجلب التباسات ، وقد جلبت فعلا ، لان كلمة السنوسي هي اسم علم كثير الانتشار في افريقيا الشمالية ويوجد كثير من الشيوخ يلقبون بالسنوسي وليس لهم اي علاقة بالطريقة السنوسية (المترجمان)

ــ والشيوخ محمد المهدي السنوسي شيخ الطريقة السنوسية ووالده ستأتي ترجمتهما في الفصل الثالث

استعمالها لاقرار علاقات بين المسلمين والفرنسيين تكون مجدية للامتين .

ولكن قبل الالتحاق بالشيخ كان يود أن يبعث له رسالة يطلب منه فيها السماح له بتقديم نفسه اليه ، حتى يقع اجتناب الصعوبات التي من الممكن ان تعترض طريقه خلال رحلته ، ثم طلب مني سي الطاهر ان اتولى تحرير هذه الرسالة التي تستهل بشعر يمجد فيها خصال الشيخ ، والتي تعبر عن رغبة المركيز الحارة في رؤيته .

حررت — إذن — هذه الرسالة ، وطلب المركيز دي موريس من سي الطاهر العجيمي ان يقدمني اليه ، والح كثيرا على ذلك ، وتقابلت معه فشكرني على الرسالة وتحدثنا حول اشياء مختلفة ، وقال لي انه مقر العزم على الالتحاق بغات (5) كما انه سيذهب لرؤية الشيخ السنوسي بعد الاقامة في هذه المدينة ، وانه سيتوجه من هنالك الى (زندر) والى (اغاديس) للاطلاع على حالة التجارة في هاته المناطق ، وسألني المركيز دي موريس : هل يوجد في تونس من يعرف هذه البلاد ، وبإمكانه ارشاده ؟ فوعدته ان ابحث في هذا الشأن .

عندما فارقته كان قد استولى على عقلي وعلى قلبي بحدة ذكائه ، وبتربيته الباريسية ، وبشجاعته الفرنسية المقرونة بلطف بالغ ، واخيرا بجمال جسمه الذي يوحي بالاحترام ، ويجعل منه نموذجا لانسان جدير بالمحبة .

لم أكن أفهم كيف استطاع — الى هذا الحد — ان يستولى علي في وقت قصير كهذا ؟ لقد اعطاني صورته ، واخذت في التفكير في الصعوبات التي سيلقاها هذا البطل ، وفي الاتعاب التي ستلحق به ، لذلك عزمت ان اوفر له الارشادات التي بإمكانها تبسيط مهمته ،

5) هنا تعليق للمترجمين يخص رسم كتابة (غدامس) — و (غات) بالفرنسية وهو أمر يهم الفرنسيين وحدهم ، فلم ار داعيا لترجمته .

وفكرت في أن أطلبها من شخصية بارزة في غدامس كانت مستقرة — آنذاك — بتونس ، وهو الفاضل النقي ، الذكي ، الحاج علي بن بلقاسم الثني (6) احد التجار ذوي الاعتبار في غدامس .

ولد الحاج علي بغات حيث ترعرع ، من نسل نهلاء التوارق من جهة أمه — وهي خالة باي غات — وتعيش الى الآن بجانبه .

قام الحاج علي خلال سنين طويلة بالتجارة في غدامس وتحصل بذلك على صيت بعيد في مناطق الصحراء والسودان ، كما أنه يعرف احسن المعرفة كبار تجار تلك البلدان ورؤساء التوارق .

عندما التقيت بالحاج علي وطلبت منه اخبار تلك المناطق التي سيتوجه نحوها المركيز دي موريس اخذ في الضحك وقال لي : ياسي محمد ، سألتني الكثير ، واظن انك تحب السفر الى تلك المناطق ، فأجبته : لا ، لكن لي صديق حميم يريد الذهاب اليها بقصد التجارة وأود ان أفيده بالارشادات المهمة التي انت قادر — بصفة خاصة — على تقديمها حول هذه الجهات ، لم ارد ان اقول له بأن صديقي الذي اتحدث عنه فرنسي مخافة ان يمتنع من مدنا بالارشادات التي نحتاج اليها .

في خلال هذه المحادثة قص علي كيف انه — منذ أيام قليلة — اتصل بواسطة محمد بن الطيب العتري القاطن بغات ، برسالة من أمه تعبر فيها عن رغبتها الشديدة في رؤيته لانهما بعيدان عن بعضهما منذ زمن بعيد جدا ، وهي تخاف أن تموت قبل أن تراه ، ثم أعطاني بعض الارشادات الهامة عن الرحلة في تلك المناطق والاتعاب التي تسببها ، خاصة فيما

6) قتل مع المركيز دي موريس في الوطية في 9 جوان 1896 انظر عنه ترجمة دي موريس في كتابنا (صراع مع الحماية)

يتصل بمدينة غات ، بحيث وجدت نفسي أعلم ما فيه الكفاية مما كنت أود أن أعلمه فشكرته وتفارقنا .

ذهبت الى المركيز دي موريس واعلمته — تفصيلا — بكل ما علمته من الحاج على الذي قصصت عليه حياته ، فقال لي المركيز دي موريس : بما ان هذا الرجل سيذهب عن قريب الى غات ، هل تريد ان تبلغه بأني أود ان أرافقه في رحلته ؟ فوعدته بابلاغ الحاج على هذا الطلب .

اتصلت — إذن — من جديد بهذا الاخير وعرضت عليه اقتراح المركيز دي موريس ، ويبدو ان هذا المقترح قد فاجأه مفاجأة غير سارة ، فقال لي : ان مرافقة غريب في طرق الصحراء يمكن ان تترتب عنها نتائج وخيمة ، فعرضت عليه ، — حينئذ — بوضوح تام — الهدف الذي يرمي اليه المركيز دي موريس ، وان برنامجه يقتصر على المتاجرة بشروط شريفة ، ونزاهة كاملة ، مع قبائل التوارق والغرب والسودانيين ، كما حدثته عن الارباح العظيمة التي يمكن ان تحصل لهذه القبائل ، وعن الفوائد الشخصية التي ستمنحها اياه مصاحبة المركيز دي موريس في هذه الظروف .

يظهر ان حديثي هذا كان له الاثر الايجابي على نفسه ، لكنه مازال يشك في ان هدف المركيز دي موريس الحقيقي ، هو — فعلا — التجارة فالتفت نحوي وقال : « يا سي محمد الشريف ، ياصديقي ، اذا اراد المركيز دي موريس السفر كتاجر فإني متكفل به في الذهاب وفي الاياب ، ولن يتحمل — بمشيئة الله — مكروها ولا صعوبات ، وسأرشده بصفة شاملة الى كل ما يهم التجارة في مختلف بقاع السودان ، ولكني سألزمه بشرط فقط ، وهو سيقبل ذلك بلا شك ، فسأضمن له الذهاب الى غات والاقامة هنالك ستة اشهر مثلما اراد ، وسأرجعه الى تونس

سليما ، لكن اذا ما اراد الالتحاق بالسودان ، خلال او بعد الستة اشهر التي يقضيها في غات ، فإني لن اتكفل به ، ولن احرسه ، ولن أكون — ابدا — مسؤولا عنه ، بحيث لن اكون ملتزما نحوه الا خلال الاشهر الستة التي سيقضيها في غات معي ، وخلال الوقت الذي ستستغرقه عودتنا الى تونس اين تسلمته ، وفي خلال ذلك سأساعده — اذا ما أراد توجيه رسالة الى مدينة في السودان أو غيرها — فسآخذ على عاتقي ايصالها بكل تأكيد الى المحل المقصود ، واخيرا طوال كامل اقامته بغات فسيقيم عندي ، وطلب مكافأة لخدماته ، عشرة الاف فرنك .

وتحولت حالا الى المركيز دي موريس ، ووجدته بكازينو حمام الانف ، واعلمته بكل ما قاله لي الحاج علي ، فأجابني بأنه موافق على دفع العشرة الاف فرنك المطلوبة فعدت — اذن — في الحال الى تونس لكي اخبر الحاج علي بقبول المركيز دي موريس ، كما اردفت قائلا : بأن هذا الاخير يريد مقابلته لكي يتحدث معه حتى ينهي معه هذه المسألة .

ومن الغد اقتبلنا — أنا والحاج علي — في حمام الانف — المركيز دي موريس ، وكان سي الطاهر العجيمي معنا ، وبدأ الحوار في مسألة الرحلة ، فطلب الحاج علي ان تسلم له العشرة الاف فرنك قبل السفر ، ولكن سي الطاهر العجيمي رفض ذلك قائلا : بأن هذا المبلغ لا يمكن للمركيز دي موريس دفعه الا بعد وصوله سالما — الى تونس ، وبعد مناقشة طويلة وقف القوم عند رأي سي الطاهر ، وتقرر أن العشرة الاف فرنك تدفع الى الحاج علي بعد ارجاع المركيز دي موريس الى تونس ، الا اذا ما قرر المسافر — بعد اقامته ستة اشهر بغات — أن يذهب الى أبعد من ذلك ، وفي هذه الحالة يدفع المبلغ المتفق عليه حالا ، وسجل هذا الاتفاق كتابيا في نسختين تسلم كل من الطرفين نسخة من العقد .

وبعد ذلك وقع اتفاق آخر بين الحاج علي والمركيز دي موريس ، وكان

هذا الاخير يرغب في حمل بضائع معينة ، وكذلك بعض الهدايا الى رؤساء التوارق ، وقال : ان لديه كثيرا من السيوف وانواعا من الحلي المصنوعة من الاحجار المزيفة ، كالتيجان الماسية ، والقلائد ذات الصف والصفين واشياء من هذا القبيل ، كل هذا متقن الصنع جدا ، بذوق فني ، ولكن الحاج علي لاحظ له ان الاشياء الاخرى ـــ عدا السيوف ـــ ليست لها قيمة عند التوارق ، ونصحه ان يحمل بعض البضائع التي يعتبرها التوارق ذات قيمة ، وسيصلح قسم منها ليكون هدايا الى الرؤساء ، والباقي يباع باثمان باهظة ، فاتفقنا ـــ اذن ـــ على شراء :

ـــ 3 برانص ملف بالطربوشة (7) حاشيتها حرير وكثيرة الزخرف 80 فرنكا الواحد 240 فرنكا

ـــ 20 سفساري (إزار) جريدي (8) من النوع الرفيع 31 فرنكا الواحد : 620 فرنكا

ـــ يضاف لصبغ هذه السفاسر باللون الاحمر : 90 فرنكا

ـــ 10 شواشي طويلة (غارقة) ـــ مصنوعة في تونس لتباع للتوارق حجم 40 صم ، 20 فرنكا الواحدة تقريبا 200 فرنكا

ـــ 7 برانص كالتي ذكرناها ، 80 فرنكا الواحد : 560 فرنكا

10 ـــ قطع من النسيج القطني الابيض الانكليزي 14 فرنكا الواحدة : 140 فرنكا

ـــ 10 قطع قماش مالطي 8 فرنكات الواحدة 80 فرنكا

ـــ قنطاران تونسيان من الغلال الجافة مع حمص مقلي مرتين (9) 100 فرنكا

ـــ ماء ورد وياسمين في قوارير 50 فرنكا

---

7) الطربوشة : قطعة من البرنص تركب عند التقاء الجناحين تجعل كغطاء للرأس

8) نسبة الى بلاد الجريد التي اشتهرت بصنع هذه الازر الحريرية وتسمى عند العامة (بالحرام الجريدي)

9) يسمى عند العامة : (حمص معاود)

ـــ قرفة ، وسنبل (10) وعنبر وفلفل اكحل	50	فرنكا
ـــ نصف قنطار شمع ، ومرايا ، وامشاط	30	فرنكا
ـــ تابل ، وكمون ، وكروياء	35	فرنكا
ـــ جبة وبرنوص من نوع رفيع هدية الى والي غات	150	فرنكا
ـــ سفساري حرير من نوع رفيع لنفس الشخص	60	فرنكا
ـــ 40 رطلا من الشاي بفرنكين لرطل	80	فرنكا
ـــ 3 قناطر سكر ارطب في قوالب	67،50	فرنكا
ـــ نصف قنطار قهوة	50	فرنكا
ـــ مناديل الوان	10	فرنكات
ـــ 4 صناديق لوح مغطاة بمشمع ، 10 فرنكات للواحد	40	فرنكا
ـــ 4 صناديق لوضع هذه السلع	12	فرنكا
ـــ أكياس لوضع هذه السلع	10	فرنكات
المجموع :	2674،50	فرنكا

وسلم المركيز دي موريس للحاج علي هذا المبلغ ، وطلب منه القيام بالشراء في ظرف خمسة أيام ، لانه عازم على الرحيل في اليوم السادس ، كما أضاف : بأنه يحبّذ ـــ للذهاب الى غات ـــ ان يمر بطريق تماسين بجنوب الجزائر ، لانه كان سافر الى هذه المنطقة في السنة الفارطة وتعرف على بعض توارق (ألفوغاس) ، وكان اهدى لهم قافلة حبوب ، ومقابل ذلك تعهدوا بإيصاله الى حيث يريد ، دون ان يخاف اي خطر .

ووافق الحاج علي على سلوك هذا الطريق لانه اكثر ضمانا من الطريق العابر حدود طرابلس ، كما انه على اتصال دائم بقبائل الفوغاس .

10) يستعمل سكان تونس السنبل الذي يباع في دكاكين العطور بالاسواق لصنع مادة قوية الرائحة ، وتستعمل البدويات ونساء الريف هذه المادة بحكها على اجسادهن للتعطر ويستعمل السنبل ايضا كرات تصنع منها السبح المعطرة تضعها النساء فوق صدورهن كالقلائد (المترجمان)

واتفقوا — إذن — على الذهاب الى قابس ، وهناك سيكترون جمالا للذهاب الى تماسين ، ومن هناك يأخذون جمال الصحراء ، لان الجمال الاخرى لا تقدر على تحمل مشاق الرحلة في الصحراء ، ويحملون بضاعتهم ويتجهون الى غات .

واوكل الحاج علي — لحساب المركيز دي موريس — ثلاثة غدامسية (11) لاستعمالهم كأدلاء ، ولحراسة السلع ، وكان كل واحد منهم يتقاضى 150 فرنكا في الشهر بدون طعام (12) واخيرا ستتكون القافلة من عشرة اشخاص :

المركيز دي موريس — الحاج علي — المترجم سي عبد الحق الورتاني (13) خادم تونسي — طباخين جزائريين جلبهما المركيز دي موريس معه — سي علي الزمرلي (14) والغدامسية الثلاثة .

وبعد ان احضر سي الحاج علي كل البضائع التي سيحملونها معهم ، وخطط المركيز دي موريس لكل جزئيات رحلته ، تقابلت معه فقال لي حينئذ :

(سأطلب منك خدمة ، ويجب ان تقوم بها ، أريد أن تلتحق بي في غات ، ستمر عبر بنغازي ، ثم عبر الصحراء الشرقية والفزان حتى تحصل على معلومات دقيقة عن طبيعة البضائع التي تباع في تلك المناطق ،

---

11) الغدامسي هو ساكن غدامس ، ونقول في الجمع غدامسية ظنا منا انه من الاحسن استعمال هذا الجمع أي (غدامسية) فذلك اولى من الجمع الفرنسي (غدامسيس) اذ طوال هذا السرد تحضرنا كلمات صار فيها الشكل العربي متعارفا عليه في الكتابة (أي الكتابة الفرنسية) ، وهكذا نحن نكتب دائما عيساوي و لا عيساويس (المترجمان) وهذا التعليق من المترجمين يخص الفرنسيين .

12) يقصد ان المركيز غير متكفل بطعامهم

13) من عائلة تونسية قتل مع المركيز في 9 جوان 1896 ، انظر (صراع مع الحماية) ص 381

14) من عائلة تونسية صاحب المركيز في مغامرته ونجا من القتل ، وهو من الذين تعرفوا بعد ذلك على جثث القتلى — انظر تفاصيل المغامرة في (صراع مع الحماية) من ص 359 وما بعدها .

وكذلك عن منتوجات البلاد التي من شأنها ان تستعمل في أوروبا ، وبعد ذلك تذهب لتلتقي بالشيخ سيدي محمد المهدي بن الشيخ سيدي محمد بن علي السنوسي ، رئيس الطائفة السنوسيّة الذي يسكن بلاد الجوف بالكفرة ، بالصحراء الشرقية ، وتطلب لي منه اذنا بزيارته وتحيطه علما برغبتي في التحدث معه فيما هو مفيد لكلا الشعبين : الشعب العربي والشعب الفرنسي ، ويجب ان تتخذ كل التدابير اللازمة لايصالي الى الشيخ ، وتستعمل لهذا الغرض كل الوسائل التي تبدو لك أكثر نجاعة) .

وقبلت المهمة التي عرضها علي المركيز دي موريس ، ووقع الاتفاق على أن التحق به في غات بمجرد الفراغ من مهمتي لكي أعلمه ، اذا كان بامكانه الاتصال بالشيخ السنوسي ، وكيف يمكن ان يكون الاستقبال الذي يكون هذاالرجل مستعدا لتخصيصه له وقال لي المركيز دي موريس حينئذ :

(اذا نجحت في هذه المهمة ، فكن واثقا من اعترافي واعتراف الحكومة الفرنسية لك بالجميل)

في الحقيقة كنت اعرف انه لا يجب ان تكون للانسان ثقة كبيرة في هذه الوعود التي تصدرعن احد الافراد باسم الحكومة ، ولكني لم ألاحظ له ذلك بطبيعة الحال ، واعتبرت انه لا جدوى من محادثة المركيز دي موريس في شأن المكافأة التي ستسند اليّ بسبب هذه الرحلة الشاقة التي سأقوم بها لفائدته ، وتركت ذلك لفطنته ، واقتناعي شديد بأنه حالما تنتهي مهمتي سيعاملني معاملة انسان كبير القلب .

وكانت هذه السفرة التي سأقوم بها تروق لي كثيرا ، ولكن كنت في حاجة الى بعض النقود ، لمصاريف المسيرة والدواب والمأكل ، وكذلك لتقديم هدايا لرؤساء الزوايا والطوائف ، وكذلك لاعيان الفروع والقبائل

العربية والتوارق الذين أحتاج الى كسب صداقتهم لكي لا تعترض طريقي مصاعب .

اعلمت المركيز دي موريس بذلك فكلف بدوره سي الطاهر العجيمي بتسليمي مبلغ 3200 فرنك ، تركت من هذا المبلغ 1000 فرنك الى عائلتي ، وخصصت 1200 لشراء السلع التي اريد حملها معي وتركت 1000 فرنك لمصاريف الطريق ، وهذا تفصيل البضائع التي اشتريتها بواسطة سي الطاهر العجيمي :

— مرايا ، ومراوح ، وحقائب	300 فرنك
— شواشي	600 فرنك
— مرايا صغار	50 فرنكا
— فوط (جمع فوطة : مناديل كبيرة) حرير وخيط	190 فرنكا
— عطورات وعنبر وسبح	60 فرنكا
الجملة :	1200 فرنك

وبعد ذلك اشترى لي سي الطاهر بعض الدواء : علب كينين (كينة) وماء الكولونيا المستعمل كثيرا عند المسافرين الذين يعركون به رؤوسهم عند نزولهم من فوق دوابهم ، واقراصا لتخفيف العطش ، ومنشطات وأدوية لتعديل الدم وقد كانت هذه الادوية مفيدة لي كثيرا خلال سفري خاصة منها الكينين ...

وبعد ان قمنا بكل هذه الاعمال اخبرت المركيز دي موريس انه بقي لي القيام — شخصيا — بامر بالغ الاهمية ، اذ بما اني موظف تونسي لا يمكن لي ان اغادر البلادبدون ترخيص، من المقيم العام، ومن الكاتب العام للحكومة التونسية ، ومن مدير المالية ، وكان يلزمني ايضا جواز سفر ، فالتزم المركيز دي موريس بالقيام بكل ذلك ، واتصل بإدارة المالية وتحصل على ترخيص تعويضي بشاهد عدل في لجنة العشر كما تحصل من الكاتب

العام للحكومة على ترخيص للخروج من الايالة ، وسلمني جواز سفر لمالطة وبنغازي ، وكان من الضروري موافقة الاقامة العامة على كل هذا فتحصل عليها كذلك .

وبعد كل هذه التحضيرات انطلقت قافلة المركيز دي موريس يوم الاربعاء 6 ماي 1896 م (23 ذي القعدة 1313 هـ) والتحقت بالميناء وسط حركة كبيرة .

وابحر المركيز دي موريس ورفقاؤه على متن باخرة من الشركة الايطالية العامة للملاحة ، واقلعت الباخرة على الساعة الخامسة بعد الظهر متجهة نحو قابس .

أما أنا فمكثت ثلاثة ايام بتونس ويوم 10 ماي (27 ذي القعدة) ذهبت الى ضريحي الوليين : سيدي محرز بن خلف (15) سلطان مدينة تونس ، وسيدي ابراهيم الرياحي وهنالك طلبت من الله ان يحرسني طوال الرحلة التي سأقوم بها ، وأن يسهل عليّ اتمام مهمتي ، وبعد ذلك وبعد توديع الاقارب اتجهت نحو الميناء مرفوقا بصديقي المخلصين سي الطاهر العجيمي واخيه ، وكانا الوحيدين اللذين يعرفان الهدف من رحلتي فركبت متن الباخرة (مدينة تونس) لشركة النقل الاطلسية وأخذت غرفة في الدرجة الثانية ، وفي الخامسة مساء اقلعت السفينة .

في ذلك اليوم كان النسيم عليلا الى حد كبير ، وكانت السماء تبدو منشرحة ، ووجدنا البحرِ في حلق الوادى هادئا الى اقصى حد ، وعلى سطحه الصقيل الازرق تبدو مدرعات الاسطول الفرنسي جبالا راسية ، وعندما اخترقت سفينتنا البخارية صفوفها كنت اخال نفسي بين جبال

15) من اساطين العلماء والزهاد بالعاصمة التونسية له مقام مزار بحي باب السويقة ، اشتهر بشعره وبورعه وبعدائه لشيعة الفاطميين بتونس توفي 413 هـ 1022 م .

لايمكن الوصول الى قممها او في غابة نخيل ذات اغصان متناسقة أو امام قصور تسكن فيها الشموس والاقمار (16) .

ولكن ظلام الليل حل مكان ضياء النهار ، وانغلقت عيناي ، وعندما استفقت لصلاة الصبح رأيت فجأة مدينة مالطة التي تبدو من بعيد كسبيكة ذهب فوق بساط ازرق ، ووصلنا هنالك على الساعة التاسعة صباحا .

كنت محملا برسالة توصية للسيد (دانكونا) وكيل شركة الملاحة ، وكانت الرسالة على هذا المنوال : (سيصلك محمد بن عثمان الحشائشي الشريف المتجه الى مدينة بنغازي ، أطلب منك ان تعينه على ذلك ، وأن تحجز له مكانا على باخرة قاصدة بنغازي ، إني أوصيك به لكي يصل بسلامة ، والسلام) .

وعندما بدأ الركاب في النزول تقدم نحوي حمال يدعى : جوزاب بن باولو ، مالطي الجنسية ، وعرض علي — وأنا على ظهر السفينة — خدماته ، وقال لي : (اذا اردت النزول فسأقودك الى مكان تطيب فيه اقامتك بإذن الله) فأجبته بأن لدي رسالة للسيد دانكونا الذي ساترك له مهمة تعيين مكان اقامتي ، وطلبت منه ان يخبر دانكونا بوصولي . فعاد بعد ربع ساعة مصحوبا بالسيد دانكونا فسلمته الرسالة ، وقال لي : بأنه اتصل بعد ، ببرقية من تونس توصيه بي .

وبينما كنا بصدد الحديث اذ اقترب بحار من دانكونا واعلمه بأن باخرة تحمل اسم (عصملي) على ملك شركة يونانية ، قد اتجهت منذ قليل الى بنغازي ، وعند سماع ذلك قفز دانكونا قفزة الفصيل الصغير الذي يحاول فك قيوده وركب زورقا ، واتجه — بسرعة — نحو الباخرة التي توقفت حالا

16) يشير الكاتب بذلك الى انعكاس اشعة الشمس على المدرعات (المترجمان)

بمجرد سماع ندائه . وحدث دانكونا القائد اثر صعوده للباخرة عن رغبتي في الذهاب الى بنغازي وعاد بسرعة ليأخذني معه ، وهكذا امتطيت الباخرة (عصملي) بفضل تدخل داكونا وأودعت ادباشي في عنبر السفينة ودفعت الى القائد 45 فرنكا معتبرا فيها جميع الخدمات ، و 8 فرنكات لصاحب الزورق ، وفارقني السيد دانكونا بعد ان ودعني ، ثم اخذت السفينة اتجاهها نحو المنطقة الطرابلسية على الساعة العاشرة صباحا ، وشكرت الله على هذه المصادفة الطيبة التي لولاها ، لاضطررت الى الاقامة بمالطة أسبوعا أو اكثر ، وهذا من شأنه ان يتسبب لي في نفقات باهظة ، واستنتجت من ذلك أن الله في عوني ، وأنه سيسهل رحلتي ، وانني سوف اعود سالما الى تونس .

ولكن في حدود الساعة الخامسة بعد الزوال تعكر صفـو البحر واهتاج ، واضطربت السفينة وتمايلت واصيب كل الركاب بدوار البحر وكان لدى حجرة حسنة في الدرجة الثانية فبقيت في فراشي دون اي حركة وكنت كلما تقلبت ــ ويتم ذلك دائما بصعوبة ــ ارى أمامي الخادم المستعد لاعطائي كل ما اريد ، وكان دائما على مقربة مني كأس عصير برتقال ، وهذا نتيجة الاحسان الذي هو معلوم اجباري يخضع له كل مسافر .

وفي صباح يوم السبت 16 ماي على الساعة السابعة ، وصلنا الى طرابلس ذات الميناء المتسع والموقع الجغرافي الحسن ــ مثلما سأوضح ذلك فيما بعد ــ فبقيت الباخرة هنالك يومين بسبب العاصفة ، ولم يكن من الممكن حمل شيء الى متن الباخرة لان حالة البحر لا تسمح للزوارق بالاقتراب منها . ولهذا السبب لم أتمكن من مغادرة الباخرة الى الارض ، وعلى كل فقد كنت مريضا جدا .

وفي يوم 16 ماي (17) على الساعة الرابعة بعد الزوال ، تمكنا ــ بفضل هدوء نسبي من حمل بعض البضائع وتابعنا سفرنا الى بنغازي وقد حملنا معنا بعض الركاب : بنباشي (كومندان) يدعى نوري ، ويوزباشي (قبطان) ، وأربعة ملازمين (يوطنان) وكانوا قد انهوا مددهم العسكرية في طرابلس وعينوا للالتحاق بفرق اخرى في بنغازي ، وكان جميعهم متقدما في السن ، وكان أربعة منهم يتكلمون اللغة العربية وانطلق الحديث بيننا فسألوني عن أصلي فقلت : اني تونسي ، فتسارعوا الى سؤالي عن مناخ تونس وخصبها وعن الحياة فيها وتنظيم البلاد ، فأجبتهم بطريقة احرض فيها مخاطبي على زيارة مدن الايالة التونسية ، ولم يفكر احد منهم في سؤالي عن الحالة السياسية ، وقد اضطررت ــ بعد قليل ــ إلى الذهاب لفراشي لان دوار البحر كان قد عاودني ،وعندما استيقظت رأيت سواحل بنغازي .

17) هذا غلط ، اذ سبق ان قال انه وصل الى ميناء طرابلس يوم 16 ماي وبقيت الباخرة راسية يومين لاضطراب البحر ولعل الصواب يوم 18 ماي ويظهر ان الخطأ تسرب الى الترجمة الفرنسية او الى الطبع .

الفصل الثاني

من بنغازي الى الكفرة

مدينة بنغازي ــ تفاصيل حول التجارة والتجار ــ صحية المناخ وخصب الارض ، وانتاجية الفلاحة ــ ثراء الجبل الاخضر على وجه الخصوص : جميع اهاليه من الاخوان السنوسية ، وهم لايطيعون غير مقدمي الاخوان ــ عثور الكاتب على دليل يقوده الى الشيخ السنوسي سفره ليلا مع قافلة ــ تفصيل المراحل من بنغازي الى الكفرة ــ الوصول الى الكفرة في بلاد الجوف .

ان الارساء في ميناء بنغازي عسير جدا بسبب الصخور الموجودة فيه ، فكم من سفينة تحطمت عليها في يوم عاصفة ، وقد شرعت الحكومة اخيرا في اجراء اشغال فيه جيدة التخطيط ، لكنها تسير ببطء شديد .

بينما كنا على ظهر السفينة اذا بمجموعة من الزوارق تتوجه في حشد نحونا ، فاكتريت واحدا منها وضعت فيه ادباشي ووصلت الى رصيف القمارق يوم 19 ماي على الساعة الثانية بعد الظهر ، وكان هناك عونان من اعوان القمارق ، وبمجرد ان وطئت قدماي الارض طلبا مني ــ بعربية فصيحة ــ تقديم جواز سفري فسلمتهما اياه ولم يرجعاه لي الا بعد ثلاثة أيام ، وبعد ان أخذ شيخ المدينة نسخة منه .

وجرت العادة في بنغازي ــ عند وصول أي باخرة ــ أن يخرج السكان ، واغلب التجار ، ورئيس البلدية ، ومدير القمارق ، ويصطفوا

على رصيف الميناء ، فلا يصل المسافر الى المدينة الا بعد ان تفحص ملامحه ويسأل ــ تفصيلا ــ عن سبب مجيئه ، وعن البضاعة التي تحملها السفينة ، وأظن ان السبب في هذا الفضول هو أن ميناء بنغازي لا يستقبل اكثر من باخرة في الشهر وكانت الباخرة التي أقلتني إلا انه ــ منذ زمن غير بعيد ــ اصبحت الباخرة المسماة (سعد الله) ، وهو اسم مالكها التاجر المعروف بالاسكندرية ، تقوم برحلة نصف شهرية الى بنغازي ، وخلاصة القول ان هذا الميناء من اقل موانى البحر الابيض المتوسط حركة ، مثلما رأينا .

ويقع الميناء غربي المدينة التي يحيط بها البحر من هذا الجانب ومن الجانب الشمالي ، وهذا من شأنه ان يجعل لمغيب الشمس من جهة البحر ، مشهدا رائعا .

وبعد ثلاثة ارباع الساعة من الاجراءات القمرقية ، اتجهت نحو المدينة وأخذت في البحث عن سي صالح بن ميلاد من أعيان الجالية الجربية ببنغازي وكانت لدي رسالة من شريكه التونسي سي مصطفى البنّا يوصيه بي ويطلب منه ان يساعدني في الحصول على مسكن وان يرشدني في خصوص المشاريع التجارية لاني لا اعرف احدا ببنغازي فاتجهت الى سوق الظلام وسميت كذلك لانها مغطاة وطلبت سي صالح بن ميلاد ، وهو رجل يبلغ السبعين ، فتقبلني مفتوح الذراعين وحملني الى دكانه ، وهنالك قدم لي عصير الليمون المحلى بالسكر لكي استعيد قواي بعد الم دوار البحر ، وبعد ذلك قدم لي ثلاثة اطباق من الطعام الشهي ، وتمددت في المكان لاستريح قليلا ، وكنت مازلت احس في جميع اعضائي بأتعاب السفر ، وعند استفاقتي في المساء علمت بأن سي صالح اكترى لي غرفة ، واشترى لي اناء للشراب وجرة لخزن الماء وحصيرين ، فالتحقت ــ إذن ــ بمسكني وهيأت فراشي ، وخرجت للنزهة حتى الساعة السابعة ، ثم عدت الى سي صالح الذي قادني الى غرفة قد اجتمع فيها

خمسة عشر من اعيان تجار جربة ، ملتفين حول الوان شهية من الطعام ، فاستقبلوني بود كبير ، وأكلت معهم ثم عدت الى غرفتي ، وحاولت النوم ولكن سرعان ما هاجمتني سحابات من البرغوث منعتني من النوم .

ومن الغد اكتريت غرفة اخرى أكثر اتساعا من الاولى في وكالة صبري بسوق الخضرة ، ونقلت إليها ادباشي ، ثم ذهبت الى سي صالح لكي اطلب منه أن يرافقني الى إدارة القمارق لاسترجاع ادباشي فصاحبني مع اثنين من أعيان التجار الجرابة ، وهما صديقان لمفتش القمارق ولكاتبها . فتحادثنا معهما في شأن الادباش فأذنا بإخراجها دون تفتيش ، وأخيرا وقع تقديمي إلى مدير القمارق الذي طلب مني ان أُدعو له بخير .

إن مدير قمارق بنغازي كزميله بطرابلس يعاملان دائما الغريب بكثير من اللطف والرقة ، وسوف اتحدث عن ذلك فيما بعد (1) ولحمل بضاعتي الى غرفتي اكتريت حمارين بعشرة قروش تركية ، وفي صباح اليوم الثالث جاءني سي صالح ومعه مناديان ووسيطان ، وقال لي : ان العادة الجارية في بنغازي أن تسلم كل بضاعة يراد بيعها الى المنادي (2) الذي يعرضها على المزايدة العلنية في الاسواق ، وهذا المنادي نفسه يتوسط ايضا في الاشياء المرغوب شراؤها ثم أضاف : أنه اتاني بالرجلين وهما محل ثقة ونزاهة لكي اسلمهما السلع التي اريد بيعها ، واكلفهما بالاشياء التي اريد اقتناءها ، ثم اوصاني بالاحتياطات التي يجب اخذها في التجارة كما أخبرني عن قيمة العملة وأسعار جميع البضائع ، فشكرته شكرا جزيلا .

وفي اليوم الرابع بدأ البيع والشراء ، ولرؤية ما عندي من بضائع جاءني أغلب التجار ، ولكنني لم ابع الا القليل وبابخس الاثمان ، لان السلع التونسية ليس لها اعتبار عند سكان هذا البلد ، وقد وجدوا الاثمان مشطة

---

1) لم يف بهذا الوعد

2) يسمى في تونس (الدّلال)

عدا احد الاتراك الذي اشترى مني بعض العنبر والعطر ، وبعض المناديل الحريرية الخ ...

وفي يوم 27 ماي جاء لزيارتي بغرفتي ، الوالي ورئيس البلدية ، أما الوالي سي الحاج احمد المهدوي فهو اصيل بلدة المهدية بتونس وقد استقر والده في بنغازي حيث رباه ، وشغل فيها عدة وظائف قبل ان يبلغ المنصب السامي الذي شغله اليوم ، ويعتبره الباب العالي اعتبارا كبيرا ، وجاء هذا الوالي الى تونس في سنة 1873م(3) في عهد وزارة خير الدين (4) وفي تونس استقبله الصادق باي استقبالا حسنا ومنحه نيشان الافتخار ، وعينه وكيلا للتونسيين في بنغازي ، وخلال اقامته بتونس ربط علاقات مع مختلف الشخصيات ، وخاصة منها الجنرال حسين الوزير (5) ورستم (6) ومحمد البكوش (7) ومع كبار التجار كمحمد الخلصي وشقيقه الطاهر ومحمد الدلاجي ، وسي حسونة الوزير ، وكان يسكن عند المرحوم محمود عزيز ، وقد استقبله خير الدين عدة مرات

3) في الاصل الفرنسي 1783 وهو خطأ واضح

4) خير الدين باشا : شركسي الاصل ولد حوالي 1238 هـ 1822 م ، واخذ وهو صبي ، وبيع الى قاضي محلة الاناضول ، فرباه تربية اسلامية ، ثم اشتراه احمد باي الاول وجلب الى تونس سنة 1255 هـ 1839 م وعمره 17 عاما ، واستكمل تعليمه في العربية والفرنسية والفنون الحربية ، وتقدم في سلم الوظائف حتى أصبح وزيرا للحربية 1274 هـ 1857 م ورئيسا للكومسيون المالي المعروف ثم وزيرا أكبر ثم عزل من الوزارة الكبرى 1294 هـ 1877 م وهاجر الى الاستانة 1295 هـ 1878 م وهناك تولى الصدارة العظمى ، وتوفي بالاستانة 1306 هـ 1889 م .

5) الجنرال حسين : شركسي الاصل ، جيء به الى تونس صغيرا في عهد مصطفى باي 1251 — 1253 هـ 1835 — 1837 م اعتنى به احمد باي الاول فأدخله المدرسة الحربية 1256 هـ 1840 م وتدرج في الوظائف وترأس المجلس البلدي 1275 هـ 1858 م ثم تولى وزارة المعارف 1290 هـ 1874 م وأشرف على المطبعة الرسمية واصدار الرائد الرسمي التونسي 1277 هـ 1861 م وتوفي بالمهجر 1304 هـ 1887 م .

6) الجنرال رستم : شركسي الاصل استجلبه احمد باي الاول الى تونس مملوكا سنة 1255 هـ 1839 م وادخله المدرسة الحربية ، وتدرج في الوظائف حتى اصبح وزيرا للداخلية 1282 هـ 1865 م ثم وزيرا للحربية 1286 هـ 1870 م واستعفى من مناصبه سنة 1296 هـ 1878 م وتوفي 1303 هـ 1886 م .

7) محمد البكوش من كبار موظفي الدولة في عهد الصادق باي وتولى وكيلا للخارجية ووكيلا للداخلية ولم نعثر على تاريخ وفاته .

وكانت له معه محادثات سياسية ، ونصحه الوالي ــ آنذاك ــ بالتخلص من عون الوزير ابن اسماعيل المسمى (بالزي) (8) وكان بالزي هذا كثير المكائد شديد الخبث يمكنه ان يحدث قطيعة بين الباي ووزيره ، وقد وقعت الخصومة بينهما فعلا .

كان سي الحاج احمد يعرف احسن المعرفة اللغة التركية ويحسن قليلا اللغة الفرنسية ، وعندما بلغ الستين كان كثير التضلع في السياسة الخارجية ، وكان مولعا بالحضارة الفرنسية ، ويحب تونس التي كان أهلها محببين لديه ، و قال لي : لو لم اكن مشدودا هنا بمهامي لعدت الى زيارة الايالة التونسية ، وكان قد سافر مرتين الى اوروبا وقضى سنتين بالقسطنطينية .

وعندما جاء لزيارتي كان مرفوقا بقاضي المدينة التركي الاصل الذي لا يعرف كلمة من العربية ، وكان معهم كذلك رئيس الامن ورئيس الشرطة ، وتساءلت : هل لم يأتوا لتفتيش أدباشي ؟ اذ ربما يكونون قد سمعوا عني شيئا ، ولكنني وجدتهم يفيضون مودة ولطفا ، وقاموا بفحص بضاعتي ، وتفطنت ــ من خلال نظراتهم المتبادلة انهم لا يجهلون من أنا ؟ واشترى مني القاضي ورئيس الامن بعض الحرائروبعض العنبر ، وبعد ان شربوا معي القهوة فارقوني ، وشكرتهم على زيارتهم بعبارات أظن انها أعجبتهم .

وبعد ذهابهم أخذت في دارسة شؤون البلاد ، وفي جمع معطيات دقيقة بقدر الامكان عن طبائع وتقاليد سكان المدينة والريف .

إن لسكان بنغازي كبرياء الى درجة اعتبار انفسهم انبل مخلوقات الله على الارض ، ليسوا مضيافين ولا اعتبار عندهم للغرباء ، ولولا رحمة الله

8) علالة بالزي : أحد أعوان الصادق باي الذين كان لهم أكبر الاثر في افساد اخلاق هذا الباي .

الذي ارسل لهم الطريقة السنوسية التي ساهمت كثيرا في تقويم اخلاقهم ، لبقوا ــ الى الان ــ غارقين في الجهل ، محرومين من العيش الرفيه والحضارة ، وحتى التربية الدينية ، وقد قص عليّ أحدهم ــ حول طريقة عيشهم قبل استقرار هذه الطريقة في بلادهم ــ أشياء غريبة حقا ، ومازالوا ــ الى اليوم ــ يقضون حياتهم في الكسل ، ولهذا كانت التجارة كلها بيد الاجانب .

إن أكثر التجار من اليهود ، ومن الصفاقسية ، ومن اليونانيين ، وخاصة من الجرابة ، والايطاليون قلة لا يكاد عددهم يفوت الثمانية ، أما الاتراك فإنهم لا يتعاطون التجارة ولا نرى اطلاقا في بنغازي ــ بضائع أروبية ، وجميع المبادلات التجارية تنحصر في واردات طرابلس وتونس والاسكندرية ، وهذه البضائع تتلخص فيما يلي :

بالات (لفات) حائك صوف وحرير مصنوعة في جربة وفي الجريد ــ فرارش صوف ــ سفاسر الصوف المسماة (جرد) ، وعدة انواع اخرى من السفاسر ــ وزارى (9) من جربة ــ شاي ــ قهوة ــ سكر ــ فلفل اكحل ــ براعم ورد مجففة ــ كروياء ــ وشق وداد ــ محلب ــ سواك ــ صاباديرة ــ شب ــ بخور السودان ــ زيت الحوت ــ حناء ــ سنبل ــ رند وحشي ــ قمام ــ فشاع ــ قاع القلة ــ (10) جوزة الطيب ــ قماش مصبوغ من كل نوع ، مصنوع في مالطة ــ اقمشة قطنية متنوعة : (عنبر قيز ومحمودي) ــ مناديل من الحرير الاسود ، غطاء للرأس (11) ــ مناسف (12) غرابل للقمح ــ برارد شاي (13) ــ

9) جمع وزرة ، وهي ازار من الصوف لونه غير ابيض

10) هذه المادة وما قبلها ، من المواد المعروفة في الدكاكين وهي من المواد التي تستعملها النساء ، ولا نعرف لها اسماء اخرى في العربية

11) تسمى في تونس (تقريطة)

12) جمع منسف ، غربال كبير من الشعر

13) برارد : جمع براد ، من اواني طبخ الشاي

اطباق للشاي ـــ أوان لطبخ الشاي ـــ وأوان بلورية ـــ قدور نحاسية ـــ صناديق لوح مزخرفة بالقصدير ـــ مرافع لوح مذهبة ـــ ورق أبيض وورق أسود ـــ ورق رسائل ـــ أقمشة حمراء قرمزية ، وفي لون الرصاص ولون القهوة ، وسوداء ـــ احذية للنساء والرجال ـــ مرايا للنساء ـــ ساعات مختلفة ـــ سبح ـــ عطور مختلفة ـــ ماء الياسمين ـــ ماء الزهر ـــ ماء الورد والنسري وكل الروائح ـــ مسك ـــ زباد ـــ مصاحف قرآن ـــ كتب خرافات ـــ مظلات ـــ عكاكز (14) حافظات نقود من الرصاص ـــ رصاص للصيد الخ ...

وأكثر الاشياء رواجا هي الشواشي التونسية إذا كانت من الصنف الردىء لان السكان هنا لا يفرقون بين البضاعة الجيدة والبضاعة الرديئة ، وكل همهم يتمثل في الاشتراء بأقل الاثمان ، وذكيهم لا يفرق بين عطر ياسمين صفاقس الذي يباع بـ 50 فرنكا وبين العطور المغشوشة التي تباع الزجاجة منها بـ 50 صانتيما ـــ كل هذه العطور بالنسبة اليهم لها نفس القيمة ، وهذا الامر صالح بالنسبة لكل شيء ، فإذا ما حمل التاجر معه بضائع من الصنف الردىء يكون على يقين من حصوله على أرباح طائلة التي تجلب للمرة الاولى ، تباع دائما ، إذا كانت أقل ثمنا من غيرها .

ان سكان بنغازي يتكون قسم كبير منهم من عرب بدو والجزارون والبقالون والخبازون ، والزياتون (تجار الزيت) هم في الغالب اصيلو طرابلس أو مصراته ، وأهل بنغازي لا يشتغلون الا بالفلاحة وبطرق جد بدائية ، ولولا خصوبة الارض لما تحصلوا على ما يقيم أودهم ، وخلال الاعوام التي يقل فيها المحصول ، يكادون يموتون جوعا ، لو لم تعنهم السلطة العثمانية بتوفير الاغذية لهم .

---

14) جمع عكاز : عصا يستعان بها على السير

ان القفيز من القمح ينتج في السنة المتوسطة من 30 إلى 60 قفيزا وفي الاعوام الطيبة من 60 الى 70 فما فوق ، وفي مثل هذه الاعوام تصدر كميات كبيرة من القمح والشعير إلى اوروبا ، وقد حصل ذلك في سنة 1895 حسبما اخبرني به الوالي سي الحاج أحمد ، ويتم كذلك في بنغازي زرع أغلب انواع الخضر والغلال ، كما ان أنواع الحيوانات هنالك عديدة ، فالبقر والضان والمعز التي تستهلك في مصر وسوريا ترد عامة من بنغازي ، ولحمها لذيذ جدا ، والبقر — بصفة عامة — هو من النوع ضخم الجثة ، والضان من النوع ذي الذيل الرقيق على العكس مما يوجد في تونس .

والاقوات في بنغازي منخفضة الثمن اذ يبلغ سعر الكيلو من اللحم 50 صنتيما والزوج من الحمام 50 صنتيما ، والدجاجة الضخمة 75 صنتيما ، اما الخضر والغلال فإنها تباع بثمن لا يكاد يذكر .

ان بنغازي بلاد الفقراء والعائلات كثيرة العدد ، لقد كنت آكل اللحم في الصباح وفي المساء مع التوابل الرفيعة والخضر الشهية والخبز والغلال بافراط ، ولم اكن انفق — مع القهوة — اكثر من فرنك واحد في اليوم ، وكان المسكن يكلفني 3 فرنكات في الشهر ، وكان من اجمل المساكن في المدينة ومن بين كل البلاد التي جبتها لم اعرف بلدا تكون فيه المعيشة ايسر من بنغازي ، فالمناخ صحي جدا ولا وجود للامراض الخطرة .

والاراضي الواقعة خارج المدينة اي انطلاقا من مسافة 3 كم ليس لها مالكون حقيقيون بل هي ملك الله والدولة ، او بالاحرى هي ملك اول من يستقر فيها فإذا حرث قسما منها فإنه يمتلكها قانونيا لمدة سنة .

وعلى مسافة يوم او يومين من السير خارج المدينة اي بعد 50 كلم توجد اراض محصبة في أماكن رائعة ، يمكنك ان تحتل منها ماتريد وان

تحرث وتغرس ماشئت فلن يكون عليك ان تدفع للحكومة سوى ضريبة ضئيلة : (العشر) ، واذا ما ابتعدت اكثر أي على مسافة 60 أو 70 كلم من المدينة يمكنك أن تقتني اراضي من الدولة ولكن ثمن المائة ماشية (1000 هكتار تقريبا) لا يتجاوز 3000 فرنك وينخفض الثمن كلما زاد البعد ، وبعد مسافة أخرى معينة يمكن للمرء أن يصبح مالكا دون ان يدفع شيئا ، والاراضي سهلة جدا في الحراثة فأضعف الاحمرة يكفي لهذاالعمل فضلا عن الثيران والجمال وهي كثيرة جدا في هذه البلاد ، ويمكن شراؤها بثمن زهيد جدا ، والمياه عذبة وغزيرة والمنطقة الشرقية اكثر خصبا من الجنوب .

وعلى بعد 10 كلم من بنغازي توجد ارض برقة وفيها تجد غابات من الاشجار المثمرة كالخروب والمشمش والليمون والاجاص والرمان .. الخ .. والسكان عرب بدو ، يرجعون نسبهم الى قبيلة المحاميد ، وخلال دولة الحفصيين في تونس كانوا في السنوات الجدب يقصدون باجة في الايالة التونسية لشراء الحبوب من القمح والشعير ويحملونها الى برقة .

وسأتحدث فيما بعد عن الجبل الاخضر الواقع شرقي بنغازي .

وفي الجنوب شاهدت جبالا من الملح الذي يقع تصديره عن طريق بنغازي ، كما يصدر ايضا الفاسوخ ، وهي عروق تصلح لصبغ القماش باللون الاحمر ، ولقد سبق ان قلت ان بنغازي تصدر القمح والشعير والبقر والغنم والمعز ، وينبغي ان اضيف الى هذا التعداد الصوف ، والجلود والزبدة ، والعسل ، وكل انسان يتقن شغلا يمكنه كسب قوته في هذا البلد .

والعملات المستعملة هنا هي الاتية : الليرة العثمانية التي تساوي 21 فرنكا والمجيدي الذي يساوي 4 فرنكات ، والبوشليك الذي يساوي فرنكا

واحدا ، والقرش (15) الذي يساوي ــ اقل بقليل من 25 صنتيما ، والبارة (16) (8 زلطات) ، وهي قطعة من نحاس تساوي 10 صنتيمات وفي الجملة فإن هذه العملة بإعتبار قلة قيمتها الاصلية غير مرغوب فيها .

والمنازل في بنغازي قد بنيت طبقا لمبادىء الهندسة العربية فأغلبها مجرد بناء سفلي الا انه يوجد في الحي الافرنجي الذي يقطنه القناصل عدة مبان على النمط الاوروبي ، وتوجد فيه كذلك بعض البناءات التي يقطنها الموظفون أو أغنياء التجار .

ويلبس السكان عامة الشاشية التونسية غطاء للرأس تحتها عراقية بيضاء ، وتتركب ملابسهم من سروال ينزل الى الكعبين وفوقه قميص فضفاض ينزل الى منتصف الساقين ، وفرملة من قماش الاسكندرية وحائك تونسي يلف الرأس ويغطي الكتفين ولا يلبسون البرنوس ، واحذيتهم شبيهة بأحذية عرب الريف التونسي ، والاكثرون يسارا ينتعلون في الشتاء احذية تركية ، واعراسهم ومآتمهم تشبه ــ في كل شيء ــ الاعراس والمآتم التونسية .

وليس في بنغازي بريد ولا تلغراف ولا سكة حديدية ــ عدا خط طوله 9 كلم يربط المقر الرسمي للباشا باحدى الحدائق ، وهذا انشأه الجنود وقد وقع الانتهاء منه في السنة الماضية (17) وفي المدينة آلة واحدة لطحن القمح .

ومنذ سنتين نظم بعض التجار من طرابلس وبنغازي قافلة تنطلق من هذه المدينة وتذهب الى وداي ، تحمل اصنافا مختلفة من البضائع

15) رسم عربي للكلمة التركية : Ghourouch وذلك يعني القرش التركي (المترجمان)

16) بالتركية : Para (المترجمان)

17) أي سنة 1895

كالاقمشة والسكر والشاي الخ ... وتقضي ثلاثة اشهر في الطريق ، وعند ما تصل الى غايتها ، تعبىء من هناك مدة 25 يوما : ريش النعام وناب الفيل والجلود ، واذا لم يحدث طارىء فانها تعود الى بنغازي في اقل من سنة من تاريخ انطلاقها ، والشيخ سيدي المهدي هو الذي فتح هذه الطريق للتجارة ، وتعبر القوافل منطقة الكفرة في بلاد الجوف حيث يقيم ، وبفضله كان الامن مستتبا الى درجة أننا ـــ بين بنغازي ووداي ـــ لم نسمع قط ان احد التجار قد تعرض لسرقة ما ، حتى ولو عقال بعير .

ولا يوجد في بنغازي اي تنظيم سياسي ، او اداري ، او مالي ، ولن اتحدث اكثر في هذا الموضوع ، وسيفهم القارىء السبب .

وفي هذه البلاد تعترض الانسان في كل خطوة آثار الاحتلال الروماني وعلى بعد 60 كلم شرقي بنغازي ، وعلى شاطىء البحر توجد مدينة قورنة (قورين) العتيقة باعمدتها وصهاريجها ومسارحها وقصورها . وفي نفس الاتجاه توجد مدينة عين شحات او شحات فحسب ، حيث تركت اشغال الرومان ايضا آثارا كبيرة .

وقد روى لي رئيس بلدية بنغازي مايلي :

(طلبت الحكومة الانكليزية سنة 1868 م من السلطان عبد العزيز الاذن لها بإرسال باخرتين الى شاطىء مدينة شحات ، لالتقاط الاسفنج الذي يوجد بوفرة في هذه المناطق، وهو ــحالياــ فريسة سهلة للصيادين اليونانيين ، فسمح لها السلطان بذلك ، لكن الانكليز بمجرد وصول باخرتيهم ـــ لم يكن لهم هم الا القيام بحفريات والبحث عن الاشياء النفيسة التي تكشف عنها الخرائب الرومانية كالاواني الفضية والنحاسية ، والتماثيل ، والحلي ، والادوات المنزلية ، فاستولوا على كل شيء وفي النهاية عثروا على تمثال الملك شحات الذي منح اسمه للمدينة ، وقد

كان هذا التمثال من الذهب الخالص فنقلوه الى سفنهم ثم اخذت السفينتان طريق لندن بسرعة ، ولما علم السلطان بهذه الخديعة اقر حراسة على الاطلال ، وهذه الحراسة لا تزال موجودة إلى اليوم غير ان البدو لا يكفون عن نهب التحف القديمة وجمع كل ما يمكن ان يعثروا عليه من عملة وخواتم وغير ذلك ليحملوا هذه الاشياء ـــ فيما بعد ـــ بصفة سرية ـــ الى بنغازي حيث يبيعونها للاجانب ، ومن يقبض عليه منهم يعاقب بصرامة .

وتوجد مدن اخرى في الشرق تحتوي على آثار رومانية معتبرة مثل سوسة والهانية ، ومسّه ، والقبة ، وطوكر ، ونجد في مدينة المرج الواقعة على مسافة 40 كلم من بنغازي دكاكين منتصبة في مبان ترجع الى نفس العهد ، وهذه المدينة يقطنها البدو .

والمنطقة الشرقية من بلاد بنغازي او الجبل الاخضر مشجرة وخصبة ترويها عدة عيون من الماء الصافي ، وهي كثيرة السكان وتمتد في اتجاه الاسكندرية الى مسافة شهر من السير بالنسبة للقافلة ، وتحتوي على سهول وجبال وهضاب واودية ، ويوجد فيها بكثرة شجر الزيتون ، والرمان والاجاص ، والسرو ، والصنوبر ، والعروق الصالحة للصبغ ، وعلى ارصفة بنغازي تشاهد اكوام عجيبة من هذه العروق معدة للتصدير الى أوروبا وغيرها .

وسكان الجبل الاخضر بدو تقترب لهجتهم من العربية الفصحى وهم ذوو طبع مرح ممتاز ، لديهم اعتقاد عميق في الشيخ سيدي المهدي ، ويخشون الله ورسوله ، والانسان في بلادهم يحفه الامن التام ، والغريب او المستكشف ، لا يخشى شيئا ولو كانت لديه احمال من الذهب والفضة .

وتمثل الاراضي الخصبة في هذه الجهة مساحة مساوية لمساحة الاراضي الخصبة التونسية ان لم تفقها ، وعدد السكان 600.000 ، وكان ينبغي

ان يكون اهم بكثير ، ولكن ينبغي ان تهتم الحكومة العثمانية باصلاح المسالك ، وبناء الطرقات والجسور ، والسكك الحديدية ، وحصر العيون وتوزيع المياه ، ومثل هذه الاشغال يمكنها ـــ مع تسهيل الاتصالات ـــ ان تزيد في الرفاهية ، والقسم الغربي من جهة بنغازي اقل خصبا .

ويمكن ان ابدي هنا ملاحظات خاصة ، وهي ان الفلاحين التونسيين لو بذروا في الاراضي التي تبلغ مساحتها 2000 او 3000 ماشية باستخدام المحراث المستعمل لديهم دون الحديث عن المحراث الاروبي والمحراث البخاري لتحصلوا على كمية هائلة من القمح والشعير ، وغرس العنب في هذه الارض السهلة جدا في العمل يعطي احسن النتائج ، لكن سكان هذه البلاد يهملون غراسة الكروم ، وحرثهم غير جيد ، وآلاتهم كلها بدائية ، وطريقتهم في العمل ليست اقل بدائية من ذلك ، فسكة المحراث لا تصل في العمق الى 4 صنتيمترات ، وبين خطي المحراث ترى مساحة من الارض غير مقلوبة ، وبذرهم غير جيد كذلك ، ورغم هذا التخلف في الطرق فإن بلاد بنغازي في سنوات المحصول الوافر تصدر الحبوب الى كل اوروبا تقريبا ، وفي سنة 1893 م سجلت قمارق بنغازي خروج 60.000 قفيز من القمح ومايقارب نفس الكمية من الشعير ، عدا الكميات الباقية للاستهلاك والبذر ، بينما لم يكن المحصول في هذه السنة الا متوسطا .

ومصاريف الزراعة ضئيلة فلا يتجاوز ثمن المحراث 15 قرشا (3 فرنكات) وثمن جمل او زوج من البقر للحرث لا يتطلب أكثر من 100 فرنك ، ويمكن لحمار ثمنه 3 فرنكات ان يحرث الارض مثلما يستطيع ذلك ثور ، وتختلف الخيول في بنغازي في شكلها عن خيول تونس فهي ضخمة ، وتنقص مفاصلها الرقة ، الا ان الانسان يمكنه ان يعثر على بعض الجياد العربية الاصيلة .

وتصنع اللوازم الفلاحية من الحلفاء اوغيرها (الشباك — والسلال — والمذاري — والقفاف) من قبل شريك الفلاح الذي يماثل الخماس التونسي ، ولكن الشريك يتحصل على الربع بينما لا يتحصل الخماس إلا على خمس المحصول ، وطعام الشريك متكفل به صاحب الارض على ان هذا الطعام المتكون من قليل من الذرة البيضاء او الشعير لا يكلفه كثيرا .

وأثناء اقامتي ببنغازي ربطت علاقات مع بعض الاعيان مثل سي محمد المطاوع ، وابنه ، وسي الحاج احمد المهداوي ، وسي عمر ابن شتوان وآخرين ، وقد التقيت بالفقيه الموقر الشيخ سي عبد الحفيظ رئيس الطائفة الرحمانية وإمام الجامع الكبير في الجهة ، وعن طريقه انضممت الى هذه الجماعة ، وقد سألني عن تونس فأجبته بطريقة يبدو انها ارضته ، وهو العم الاكبر لسي محمود الدرناوي سكرتير قسم الدولة بتونس ، وهو اصيل بنغازي لا درنة مثلما يعتقد في تونس ، وقد انضم سي عبد الحفيظ الى الطريقة الرحمانية بواسطة الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز (18) عند مروره ببنغازي سنة 1845 م .

ثم التقيت بنقيب الاشراف وهو رئيس سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو كذلك شيخ الطريقة السلامية وبواسطته انضممت الى هذه الجماعة ، حسب النسب الاكثر شهرة ، وقدمت له شجرة نسبي التي تربطني بالرسول فاغتبط بتمكنه من معرفتها ، ثم منحني كتابيا حق ضم اخوان اخرين الى هذه الطريقة ومنح نفس هذا الحق الى غيري (19)

18) شيخ الطريقة الرحمانية اسس زاوية بنفطة ، واشتهر بتداخله في ثورة علي بن غذاهم 1864 م وضمانه الامان للثائر فسلم نفسه للباي الذي سجنه ثم قتله ويقال ان الشيخ ندم كثيرا على تسليم ابن غذاهم للباي ، وتوفي الشيخ بنفطة 1282 هـ — 1866 م

19) يقصد أنه صار مقدما للطريقة وله حق تقديم غيره

ووقع تقديمي ــ بعد ذلك ــ الى ابن الشيخ المدني الذي انضممت بواسطته الى الطريقة المدنية :

وحاولت ــ عندئذ ــ مخالطة اعيان الطريقة السنوسية ، وأول من اتصلت به هو سي مفتاح بن رجب ، وهو شخصية معروفة ، وكنت اصاحبه إلى زاوية الشيخ السنوسي ، ولم نجد هناك شيخ الزاوية لان الشيخ الاكبر سيدي محمد المهدي كان بعث له بالرسالة التالية وامره بقراءتها على العموم في الزاوية .

(من محمد المهدي بن محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الادريسي ان الظروف تجبرني على عزلك من مهام نائب زاوية بنغازي وتعيين غيرك عوضك)

وقد اختفى الشيخ لما وجد نفسه ــ هكذا ــ معزولا ، وقد قيل لي انه وقع الغضب عليه لانه قبل الرشوة من السلطة التركية ، واثر ذلك بقيت الزاوية بغير شيخ .

وفي 12 جوان 1896 م وصل الى بنغازي الشيخ الشهير العالم سيدي محمد حيدرة الهوني احد مقدمي الطريقة السنوسية واحد تلامذة سيدي محمد السنوسي الذي لقنه علوما كثيرة وهو محل تقدير وتعظيم ، مثلما لو كان والد سيدي المهدي ، ولما ذهب لزيارة ضريح هذا الشيخ بزاوية الجغبوب الكبرى شهد جنازة الشيخ العلامة ذي الشهرة الواسعة سيدي الشريف ابن سيدي محمد السنوسي وشقيق سيدي المهدي ، وقد لفظ انفاسه الاخيرة في 12 مارس 1886 نتيجة مرض في الحنجرة ، وقد كان لي شرف مقابلة سيدي محمد حيدرة ، واعجبت بعلمه وورعه ، وقد منحني حق الانتماء الى الطريقة السنوسية طبقا لامر مكتوب يسمح لي بمنح نفس الانتماء الى غيري ، إذا أردت ذلك .

وفي 16 جوان تلقيت رسالة من تونس يحرضني فيها صديقي سي الطاهر العجيمي على مواصلة رحلتي ، وإنهاء مهمتي .

ولم أكف اثناء إقامتي ببنغازي عن البحث سريا عن شخص قادر على إيصالي الى زلة ، لان القوافل لا تنطلق في هذا الوقت من السنة نظرا لانشغال الناس بالحصاد ، وبعون الله تمكنت من العثور على شخص يدعى عثمان من قطاع زويقة المجاور لمكان إقامة الشيخ سيدي المهدي ، وقد قدم هذا الرجل إلى بنغازي بهدف بيع ريش النعام وناب الفيل وشراء الاقمشة ، وكان له ثلاثة جمال ، وقد عاملته بسخاء كبير حتى كسبت ثقته ، وفي احد الايام ــ وكنا نشرب الشاي في منزلي ــ قلت له ان بضائعي لا تباع بصفة مرضية في بنغازي وانني ارغب في حملها الى الشيخ سيدي المهدي ، وسيكون ذلك بالنسبة لي فرصة لزيارة هذه الشخصية الشهيرة التي أرغب في التبرك بدعائها فأجابني سي عثمان انه سيوصلني إليه دون عائق ولا أي خطر ، فقرأنا الفاتحة (20) وتعاهدنا على المصحف الشريف ، ولم يكن احد من سكان البلاد قادرا على التكهن بمشاريعي عدا نقيب الاشراف سي عمر بن شتوان الذي صارحته بها وانا على علم من كتمانه للسر ، ودفعت الى سي عثمان أجرة الرحلة ، واعطيت ابن أخيه اثني عشر فرنكا على سبيل المكافأة ، وقمت باستعداداتي ، ونقلت خلال الليل ادباشي من خان صبري الى غرفة بفندق المكحل حيث يوجد عثمان ، وعند الفجر حملنا أدباشنا خارج المدينة ، وبعد ان حملناها على ظهور الجمال التي كانت تنتظرنا اخذنا في السير قبل شروق الشمس بساعة متوجهين صوب الغرب ولم يتفطن احد في بنغازي الى رحيلنا حتى صاحب الفندق وكان ذلك في 18 جوان 1896 .

20) هي السورة الاولى في القرآن ، وهي قصيرة جدا وقد تعود المسلمون أن يقرأوها هكذا اثر الاتفاقات الهامة المبرمة بينهم لاعطائها نوعا من التأكيد الديني (المترجمان)

ونحو منتصف النهار التحقنا بقافلة عائدة من بنغازي حيث باعت جمالا ، وكان اصحاب القافلة اصيلي قبيلة التمامة ، وكانوا عائدين الى ديارهم في سرت بالصحراء الغربية (21) وكان رئيسهم سي محمد بن عبد الحفيظ ، ووالده هو قاضي قبيلة اولاد سليم ، والتمامة ينتمون الى الشيخ سيف النصر ، وكان الشيخ عمر بن شتوان نقيب الاشراف سلمني في بنغازي رسالة توصية للشيخ سيف النصر فصادفت محلها ، ومثلما سأذكر بعد قليل فإن هذا الشيخ لا يخضع للسلطة التركية .

وقضينا ليلتنا على ضفة عين ماء عذب تسمى (العين الحلوة) .

وفي يوم 19 صباحا توجهنا نحو تليمون وهي زاوية كبرى اسسها الشيخ سيدي السنوسي ، وبلغناها عند الزوال وكانت الحرارة شديدة فقد سجل مقياس الحرارة الذي حملته معي 47 درجة في الظل ، ودخلنا الزاوية للاستراحة ، وبعد نصف ساعة جاء الشيخ سيدي مصطفى لمقابلتنا ، وكان يحمل شيئا من الماء العذب وبعض التمر فأكلنا ثم استسلمنا لراحة القيلولة حتى الساعة الرابعة ، ثم واصلنا الطريق ولما اظلنا الليل نصبنا مخيمنا في صحراء خالية من الماء .

وفي يوم 20 قضينا الليل في منزل احد شيوخ عرب الغرب يدعى محمد الغربي ، وكان هذا الشيخ الذي ينتمي الى الطريقة السنوسية يحب كثيرا سلالة **الرسول** (صلى الله عليه وسلم) ، وكان معه اثنا عشر جنديا تركيا يساعدونه على جمع ضريبة العشر على الحبوب ، وعاملني بكرم فذبح من اجلي خروفا ، وادخلني الى غرفته حيث تلوت جزءا من

---

21) سرت ، وفزان والخمس هي التقسيمات الادارية الثلاثة الكبرى لاقليم طرابلس (المترجم)

القرآن ثم اعطاني زادا من اللحم والخبز ، ولاحظت انه لم يدع احد من رفاقي الى الطعام الذي قدمه لي .

وفي يوم 21 قابلتنا — على مسافة — القافلة القادمة من وادي الى بنغازي ، وتتألف من مائة جمل ، وذهب عثمان لمقابلة اصحاب القافلة واشترى منهم ناقة باربعين فرنكا ثم واصلوا طريقهم الى بنغازي بينما استأنفنا — بدورنا — السير .

وهكذا واصلنا السير حتى يوم 4 جويلية وهو يوم الوصول الى بلد زلة فصادفنا فيه مرض (الكوليرا) ولذلك اخترنا ان نخيم خارج المدينة عند عائلة من قبيلة الخرايصية ، وهم اكثر الناس في الدنيا زهدا في استقبال الضيف ، وخاصة رئيسهم ، محمد الخرايصي .

ومدينة زلة صغيرة ، ويوجد فيها النخيل والماء ، ورئيسها يسمى العربي ابن محمد بن حميدة ، واسم قاضيها هو حسين بن محمد ، وقد رغب ابن هذا الاخير في هذه السنة — في زيارة سيدي المهدي ، لكنه توفي في الطريق ، وأشهر اعيانها هو عبد الله بن الحاج حميدة .

وتشكل زلة حد البلاد الخاضعة للسلطة التركية التي يتحملها السكان بنفاد صبر ، ولذلك يرسل إليهم — من حين الى حين — مجموعة من الجنود لاخضاعهم الى النظام ، واقمنا في هذه البلاد اربعة ايام كانت بمثابة حجز صحي اختياري .

وفي 9 جويلية انطلقنا حاملين معنا الماء والتمر ، وطيلة اربعة ايام كنا ندوس ارضا مغطاة باحجار ضاربة الى السواد ، في حجم الجوز غير اننا وجدنا المرعى لجمالنا .

وبلغنا الى نقطة تسمى العروش ثم سرنا مدة يومين عبر مروج فسيحة

وأودية وغابات شاهدنا فيها كثيرا من أشجـار الطلح (Acacia Arabica) (22) وانواعا اخرى .

وسرنا طوال اربعة ايام في جهة صحراوية بلا ماء ولا نبات ، ووصلنا بعد ذلك الى تازريو ، وهي قرية مبنية بالطين في واد مشجر بالنخيل والسكان فيها اكثر كرما من سكان زلة .

ووصلنا بعد مرحلتين الى جهة موحشة ثم بلغنا ربيانة حيث وجدنا من جديد الماء والنخيل وبعد ذلك سرنا طيلة يومين في الرمال النقية .

واخيرا انطلقنا ذات صباح من بوزمة حتى وصلنا في المساء الى ارض سيدي المهدي وهي البلاد المعروفة باسم الجوف .

---

22) ينتج شجر الطلح الصمغ المسمى بصمغ الجزيرة العربية والسنغال والهند ، وثماره المعروفة في التجارة الاوربية باسم البلخ غنية جدا وتستعمل في صناعة الجلد ، واعداد عصير الطلح ، واخيرا فخشبه مرغوب فيه لصنع هياكل السقوف وتجارة الاثاث (المترجمان)

الفصل الثالث

الطريقة السنوسية

وصف زاوية الكفرة ــ استقبال سيدي المهدي للكاتب مرتين ــ حياة مؤسس الطريقة ــ تعويضه بابنه سيدي المهدي ــ حسن قبول هذا الاخير للاجانب حتى غير المسلمين ــ تحوله من جغبوب إلى كفرة ــ طريقة عيش الشيخ المهدي واخوان الطريقة .

قرية الكفرة يتكون بناؤها من الطين والصلصال وجريد النخل ، وقبل ان نصل اليها بثلاث ساعات سرنا في طريق عرضه يتراوح بين 10 و 15 مترا وبذلك يكون كالشارع الكبير ، بعض أجزائه محفوفة بالنخيل يؤدي إلى ساحة يساوي ضلعها 100 متر تقريبا حسب قياسي لها بالخطوات ، وفي هذه الساحة توجد زاوية البلاد .

وهذه الزاوية الفسيحة (35 م × 30 م) مبنية بالطوب والصلصال وسقفها بجريد النخل ، معتمدا على عرص من جذوع النخل .

وتواجه الزاوية وفي الساحة نفسها شبه سوق بدون دكاكين ، يجتمع فيها التجار فيتبادلون السلع ويتعاملون بدون نقود ، فتبيع مثلا جملا لتقبض بدله عبدا او قطعة قماش او شيئا من السكر والشاي ، واحسن ما يباع هناك الثياب القطنية المعروفة (بالمحمودي) ، والثياب القطنية العادية ، واقمشة زرقاء من النوع الردىء ، والسكر ، والشاي ، والشواشي، والحائك الصوفي ، كل هاته البضاعة تاتي من (وداي) أو بنغازي . ومن (وداي) يجلب ريش النعام والجلد ، وناب الفيل ، والاقمشة الزرقاء ، والعبيد رجالا ونساء .

ـــ عندما جئت لزيارة الولي الصالح المختار من الله ، تحت قمر جغبوب اردت ان اكفر عن ذنوبي .
ـــ لذلك عبرت سهول وهضاب الصحراء ، غير عابىء بأي نصب،
ـــ ممتطيا ظهر ناقة شابة تترك في الرمال آثارا كآثار المحراث ،
ـــ وتقطع بسرعة مسالك الجبال العالية ،
ـــ امتطيناها في ساعة كانت فيها السماء رمادية اللون مثل صدغي ، وبفضلها اصبحت البلاد البعيدة قريبة .
ـــ ولدت (الناقة) من ابوين نبيلين من الحجاز اعتادا قطع السهول الممتدة الى نهاية امتداد البصر تحت بريق الملح ، وهو ما يحبذه النعام.
ـــ وتسرع خطاها عندما تهدهدها اغاني الشاعر (2)
ـــ لم تنقص من عزمي حتى حرارة الظهيرة ، واسرعت الخطى لاني قادم الى صديق ،
ـــ تسلقت الهضاب بنشاط ، وفرحت الاودية الخالية ، لمرور ناقتي
ـــ سهرت مع نجمة الليل ، ورافقتني الشمس من طلوعها إلى مغيبها لم اذق طعم النوم ، ولم تشرب ناقتي خلال حر النهار .
ـــ لا تحزنوا يا أصحابي ، إذا ماعرفتم اني بعيد عنكم لأني في امان اثناء غيبتي الطويلة .

ـــ ماهي المخاوف التي يمكن تصورها ، ونحن معتمدون على الامن الذي يوحيه لنا الولي الصالح الذي يستجيب الله دائما الى دعواته وأمانيه
ـــ لا تظنوا اني ـــ عندما ادخل الى بلد ـــ البس ثوبا غريبا من الخوف ، اتحدث مع ابناء هذا الزمن بكلام يقربني من كل القلوب التي تعرف الحقيقة .

ـــ من يتوغل في بلاد السراب ، ويهتز عبر الليل الاسود ـــ لا يخيب ظنه عندما يصل الى الهدف .

2) هكذا في الترجمة الفرنسية ولا نشك ان المؤلف وضع كلمة (الحادي)

وخلف الزاوية يوجد مكان مسيّج ، جدرانه التي لا يتجاوز ارتفاعها المترين مبنية بالطوب والصلصال في داخلها طابق سفلي بناؤه بدائي يسكنه سيدي المهدي وعائلته ، وكلما حان موعد الصلاة يخرج شخصان من الجامع ويناديان للصلاة بصوت جهوري ، ويجتمع المصلون لاداء الواجب المقدس وتؤدي عائلة سيدي المهدي صلاتها دون أن تخرج من مسكنها والامام هو الفقيه سيدي احمد زروق .

وحينما وصلت الى هذا المكان ـــ عند غروب الشمس ـــ استقبلني ثلاثة اشخاص استقبالا طيبا ، وانفلت احدهم جريا ورأيت اثر ذلك سيدي محمد التواتي الصغير قادما نحوي مرحبا ثم ادخلني إلى غرفته ، وفي الحال قدم إليّ احد العبيد طبقا من الارز المطبوخ بلحم الجمل فأكلت بشهية ، وبعد ذلك سألني سيدي محمد المذكور من أين قدمت ؟ ولاي سبب ؟ فأجبته بأني قدمت إلى بنغازي لكي ابيع ما معي من البضاعة ولكني لم استطع بيعها ، فتحولت الى هذه الجهة قصد بيعها سواء هنا او في جهتي فزان وغات ، وقلت له أيضا : ان اهم شيء بالنسبة لي هو مقابلة الشيخ سيدي المهدي الذي انا الان تحت ظل حمايته ، راجيا ان يمدني ببركاته ويعينني بدعائه الصالح حتى أرجع إلى أهلي سالما فائزا ببركته طول عمري .

فأعلم سيدي محمد الشيخ بقدومي ، وأذن لي بمقابلة سيدي المهدي صباح يوم 25 جويلية ، فوجدت معه صهره سيدي محمد البسكري ، وسيدي العربي ، وسيدي محمد التواتي الكبير .

ولما صرت على مسافة اربعة امتار من الشيخ سيدي المهدي احسست بهيبة كبيرة تمتلكني ، فجمعت أفكاري والقيت أمامه القصيد الاتي الذي نظمته قبل الدخول إليه ، والذي امجد فيه شخصه واخلاقه (1)

1) لم نعثر على نص القصيد بالعربية فترجمناه عن الترجمة الفرنسية ، ولا شك أن ترجمة الترجمة أضعفت كثير من تعابيره ومعانيه ، وقد حذفنا بعض مقتطفات منه لطوله ، ولعسر ترجمته .

ـــ يلقي الغواص بنفسه وسط الامواج ليصل الى اللآلـيء التي تصنع منها العقود ، ويعرض نفسه الى الموت للحصول على الكنز المرغوب فيه .

ـــ من لا يستطيع تحمل الاتعاب للحصول على مكافأة يفوز بها على حاسديه ،

ـــ ليس هو ـــ في نظر كل الناس ـــ الا كسولاً يعيش في الذل كالمهزوم

ـــ ضربت في ارض الله وفي يدي عصا الحاج . قطعت الصحارى ، وتحديت احزان الفراق .

ـــ وهذا ـــ رغم اني تربيت في بلد متمدن ، وتمكنت من التعليم . ففي تونس الخضراء يوجد اهلي واصدقائي ، وفي جامع الزيتونة نجوم تربيتي .

ـــ من غصن شجرة نسب اولاد المرأة الطاهرة (3) خرجت قبيلتي ، وفروع اجدادي (4) .

ـــ دخلت في العائلة الروحية لاعظم الاولياء سيدي السنوسي ، فليحاسبني الله لو تخليت عنها .

ـــ هو الامام الذي عمت الارض حقيقته ، واعجزت الكذب

ـــ بفضل طريقته عرفت اقصى جهات اليمن الامن ، وبفضلها اثرى عراق العرب .

ـــ بفضل اسراره اخضرت حقول الاراضي السورية ، ولم تذبل زراعات مصر في الجفاف .

ـــ زواياه نجوم تضيء الليلة الحالكة ،

ـــ تتوجه إليها ـــ بدون مشقة ـــ القوافل القادمة من ابعد البلدان

ـــ استحلفك الله ، ان تحقق لي رغباتي الملحة ، وتقودني نحو احسن الطرق .

ـــ انت تقرأ أسرار نفسي لانك تستشف المستقبل

ـــ ان علم سيدي المهدي كالماء الغزير الذي نستطيع ان نروى منه ظمآنا .

ـــ وجهه يتألق عظمة ويغطي نور الصباح .

ـــ هذا التألق قد ورثته عن ابيك الامام الذي قاد نـا الى طريق الخير وازاح ظلمات الليل .

ـــ رغم كل الكلمات التي نستعملها في التحدث عنه لن نصل ابدا الى ذكر مزاياه الحقيقية .

ـــ لا تتعجبوا ، فإنه جاء بعد الزمن الذي عرف أكبر علماء الدين : ألم يكن آخر الانبياء ، احبهم إلى الله .

عندما كنت أقرأ هذه الابيات ، كنت أرى على وجهه علامات الفرح ، ولما انتهيت توجهت إليه فوقف ثم اخذ من يدي الورقة التي كتبت فيها القصيد ودعا لي . بعد ذلك قرأنا الفاتحة ورجعت إلى المسكن الذي اعدّ لي .

وفي يوم 26 جويلية ، على الساعة الثالثة مساء قمت بزيارة ثانية إلى الشيخ الذي بدا ـــ في هذه المرة أيضا ـــ مسرورا برؤيتي وسألني عن أخبار تونس ، وعن حالة البلاد ، فأجبته بأن سكان الايالة وخاصة المسلمين ـــ يعاملون بعدالة وانصاف ، ويتمتعون بحرية كبيرة وأمن مطلق ، ثم سألني عن الجامع الأعظم (5) وعن العلوم التي تدرس به فأجبته بأن التعليم بدأ في الازدهار وفي الانتشار في عموم البلاد ، وأنه كان مزدهرا خاصة في الجامع الأعظم الذي يعد طلبته 1500 ، وذكرت

(5) جامع الزيتونة

له المواد التي تدرس هناك ، والقوانين المعمول بها ، ثم سألني عن القضاء الاسلامي فأجبته بأن القضاء في تونس يخضع الى قوانين تعتمد الاصول الدينية ، وسألني كذلك عن الحماية وعن حالة الباي فأجبته بالحقيقة ..؟

وأظهر الشيخ انشراحا لما قلته ودعا بالخير للمدينة وللايالة وسكانها ، ولكل من أراد الخير لها ، ثم رجعت إلى مسكني .

وتقابلت مع الشيخ سيدي محمد البسكري وسيدي العربي صهر الشيخ المهدي وتحدثنا طويلا ـــ خاصة ـــ عن حالة تونس والجزائر وبدوا لي مرتاحين لما ذكرته لهما،فقد كان يظنان ان بعض الناس في تونس يكرهون سيدي المهدي ، لان احد تلامذته كان قد اجبر على ترك العاصمة (التونسية) وهو محمد بن المهدي الذي نشر الطريقة السنوسية في تونس وعن طريقه اعتنق هذه الطريقة سنة 1875 في عهد وزارة خير الدين ، كل من سي عثمان الفياش أمين السراجين ، وسي محمد المؤدب الجزيري الكاتب بالوزارة ، وغيرهما .

وفي الحقيقة ان محمد بن المهدي كان اظهر آنذاك عواطف عدائية نحو العلماء وخاصة الائمة الاربعة ولهذا السبب امر المشير محمد الصادق باي بطرده ، ولكن تنفيذ هذا القرار وقع بكثير من المراعاة والمجاملة اذ مكن المطرود من تعويض مالي هام للقيام برحلته ، فتحول الى مكة سنة 1876 ، ومن ذلك الوقت تعطل انتشار الطريقة السنوسية بالايالة ، وخلاصة الامر اني اعطيت لمن تحدثوا إلى تفاصيل مدققة عن تونس حتى ان كثيرا منهم اظهر رغبته في زيارة تونس .

وخلال محادثاتي مع سي محمد التواتي اسررت له انه يوجد من بين الفرنسيين من يحب الشيخ لسيرته الطيبة في الحياة ولتعلقه الشديد

بالقوانين الدينية ، وذكرت له ايضا بأن احدهم يود ان يزور الشيخ ليعرض عليه مشاريع متنوعة في صالح العرب والفرنسيين في نفس الوقت ، وأجابني سي محمد انه لا يعرف رأي الشيخ في ذلك ولكن اذا نظرنا الى مواقفه السابقة ، فإنه سيرحب بكل اروبي يأتي لزيارته .

وكنت اعتزم — بعد التحاقي بالمسيو دي موريس في غات — ان اتخذ كل الاجراءات اللازمة قصد إيصاله الى الشيخ سيدي المهدي ، ثم الى (برنو) و (وداي) ، وكنت قد نظمت نقطا مختلفة حول هذا الموضوع ، الا ان الموت قد فرق بيننا . وعلى كل فإني لو لم اصب بجرح خطير في رجلي بعد ان تركت (مرزق) لواصلت بنفسي الطريق حتى (برنو) و(داي) وكان يسهل علي هذا .

وخصصت الوقت الذي قضيته في الكفرة والذي كان قصيرا ، لكتابة حياة الشيخ الكبير سيدي محمد بن علي السنوسي ، وقضيت في ذلك أياما وليالي ، وها أنا ذا أقدمها كاملة ودقيقة ، وأوكد صحتها التامة ، وكل حديث مخالف لهذا ينسب لهذا الشخص ، يجب اعتباره كذبا ناتجا عن سوء نية .

محمد بن علي السنوسي : (6)

مؤسس الطريقة هو الشيخ سيدي محمد بن علي السنوسي وهو من سلالة الرسول محمد ﷺ ونسبه هذا مقرر بطريقة لا تقبل الشك ، وقد خلد التاريخ الاسلامي اسماء كثير من اجداده : نذكر بالخصوص عبد العزيز بن شهيدة الملقب بالبطل ، وعبد الله بن الخطاب المسمى بالامام ، والذي اعتبر في زمانه رئيس من كرسوا حياتهم للتقوى ، وعلي بن يحي الملقب بمنقذ الغرقى ، ويوسف بن زيان الملقب بسيف

6) ولد بمستغانم بالجزائر 1202 هـ 1788 وتوفي بجغبوب (ليبيا) 1276 هـ 1859 م

الهند ، وزيان بن زين الذي يعتبر الوسيط بين الله وبين من يطلب في زمن الجفاف ، وخليل بن عبد الله الملقب بكريم الكرماء ، وهذا الاخير هو من ابناء فاطمة الزهراء ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الدرجة الثالثة عشر (الثالثة عشر في سلم النسب)

والعالم الكبير سيدي احمد بن احمد (7) شيخ زاوية بنغازي المتوفى الان (8) كان كتب قصيدة لطيفة اسماها (سلسلة الذهب الشريفة ، وشجرة النسب (9) الحنيفة) والتي تتضمن تفصيل النسب المذكور الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهي دعاء يتوجه به الكاتب الى اجداده الاشراف ليكونوا واسطة بينه وبين الله (10) .

والشيخ سيدي محمد بن علي السنوسي اصيل بلد مستغانم بالجزائر وينتمي الى قبيلة الخطاطبة الكبيرة ، وذهب في سنة 1814 م وكان عمره اذ ذاك 18 سنة (11) إلى فاس للدراسة وتتلمذ على علماء مشهورين ، خاصة سيدي أحمد التجاني (12) وقرأ القرآن الكريم بالروايات السبع وحفظ عن ظهر قلب ، وفي وقت قصير هذا الكتاب المقدس (13) ونما

---

7) سماه في (جلاء الكرب) : محمد عبد الرحيم بن احمد

8) توفي في مدينة بنغازي 1305 هـ — 1887 م (عن جلاء الكرب ص 145)

9) في جلاء الكرب : النفس ، بدل النسب

10) اورد المؤلف نص القصيد ، في جلاء الكرب ص 145 — 146 — 147 وطالعه :

حمدا لرب باسط النعماء مجري السحاب وكاشف الظلماء
وكذاك شكرا لايزال مسرمدا متجددا بتجدد الالاء

وبها 47 بيتا

11) هذا غير صحيح اذ انه مولود سنة 1788 فيجب ان يكون عمره سنة 1814 ستة وعشرين سنة

12) احمد التجاني المغربي صاحب الطريقة التجانية الشهيرة اخذ العلوم عن فطاحل من المغرب وتونس ومصر والحجاز ثم استقر في زاويته بالمغرب .

13) العبارة في الترجمة الفرنسية هكذا : وحفظ عن ظهر قلب وفي وقت قصير عدة سور من هذا الكتاب المقدس ، ولا نشك ان المقصود ما اثبتناه وتوفي 1230 هـ 1815 م وكان مولده 1150 هـ 1737 م

ذكاؤه وذاكرته كثيرا فتعلم كل العلوم وخاصة الحديث (14) والاصول (15) والفقه ، وكتب في هذه المواد كتبا تثبت معرفته الواسعة بها .

وبعد إتمام تعلمه في سنة 1830 ذهب الى مكة لزيارة قبر الرسول ومر بالجنوب التونسي ، وقد اقام بمكة عدة سنوات ، وتقابل هناك مع العالم الشيخ سيدي ابراهيم الرياحي من تونس ، وبنى آنذاك بجبل ابي قبيس ، خارج مكة ، زاوية اصبحت مشهورة ، ومنها انتشرت الطريقة السنوسية واصبحت الطرق بفضلها آمنة ، خصوصا المؤدية من مكة إلى المدينة وذلك لان اسس هذه الطريقة المبنية على احترام الشريعة الدينية تأمر الناس بفعل الخير وتجنب الشر ، واجتهد تلامذة سيدي محمد اطاعة لدروسه ان يعيشوا في استقامة ، ومنذ ذلك الحين عم الامن البلاد .

وبسرعة اكتسحت الطريقة السنوسية معظم بلاد اليمن والعراق والحجاز ، ومن هناك واصلت انتشارها في البلاد الاسلامية .

وبعد ان قضى سيدي محمد بعض الوقت في الاراضي المقدسة تحول إلى الجبل الاخضر في مناطق درنة وبنغازي اين علم الحقيقة للناس ، فقضى سنتين في مكان من الجبل معروف باسم تمّسه ثم انتقل الى الجغبوب اين شيد زاويته المشهورة أمّ جميع الزوايا وحيث يوجد ضريحه كما سنرى فيما بعد .

وعند قدومه من الحجاز إلى جغبوب مر بالقاهرة وهناك دخل الى الجامع الازهر فقال احد المدرسين ــ بعد ان اتم درسه : (ايها العلماء انصتوا لقد حل بينكم عالم الامة المحمدية ونبراس الشريعة المطهرة وشمس أسماء المعارف الاهلية .

14) الحديث : هو الكلام المنسوب الى الرسول (ص) والمجموع من اصحابه ، وهو يكون قاعدة هامة من العقيدة الاسلامية (المترجمان)

15) الاصول : هي الاسس القانونية المبنية على تفسير القرآن والحديث (المترجمان)

اذا صلصل الباز فلا ديك صارخ ولافاختةفي ايكه يترنم (16) .

الا وهو الشيخ الكامل سيدي محمد بن علي السنوسي الحسني الادريسي فارتج الجامع الازهر باصوات التقدير من جانب العدد الوافر من العلماء (17) .

ولم يمكث سيدي محمد بمصر ــ حيث بنى زاوية ــ الا أياما قليلة ، ومن هذه الزاوية انتشرت الطريقة حتى وصلت طرابلس ، بنغازي ، درنة ، فزان ، غات ، وداي ، تبـو ، كاوار ، والصحراء الشرقية ، والصحراء الوسطى الخ ، وهنا يوجد ضريحه (18) .

تقع جغبوب في جنوب غربي بنغازي على مسيرة 15 يوما مشيا على الاقدام وهي مبنية على منحدر هضبة بها آبار ، وجلبت إليها مياه العيون ولكن ارضها شديدة الصلابة بحيث يجب استعمال المفرقعات لحفر الابار ، تزرع فيها الخضر وتنتج التمور الا انها من النوع الردىء

وهذه المدينة هي مأوى العلم : إذ تعد كثيرا من كبار العلماء منهم من يدرس تفسير القرآن ، والبحوث الفلسفية الحديثة وكتب الحديث . ويوجد هنالك اكثر من 300 طالب قادمين من البلدان المختلفة للدراسة ، كما يوجد أدباء مرموقون بزت كتبهم كتب شعراء العراق والاندلس .

وتحتوي جغبوب على مكتبة تعد اكثر من ثمانية آلاف مجلد ، من بينها

---

16) يعني هذا البيت : ان المدرس صرح بأن الشيخ سيدي محمد استاذه وانه من السلوك المْعيب ان يدرس بحضوره (المترجمان)

17) هذا الكلام يوجد بنصه في (جلاء الكرب) ص 150

18) هكذا النص الفرنسي ويفهم منه ان الشيخ بني زاوية بمصر ومنها انتشرت الطريقة الخ والصواب ان انتشار الطريقة من زاوية جغبوب والدليل ان ضريحه بهذه الاخيرة انظر النص الصحيح في (جلاء الكرب) ص 151 .

اشهر الكتب فلا يصدر في العالم باسره كتاب (19) إلا وحاول هؤلاء العلماء اقتناءه وقد قال لي سيدي محمد حيدرة انه يوجد لديهم ديوان الشيخ قبادو (20) من تونس وتاريخ الشيخ الباجي المسعودي (21) وكتاب الشيخ محي الدين بن عربي (22) الذي يبسط فيه 125 علما ، وقد اضاف الشيخ محمد السنوسي لهذا الكتاب 20 علما اخرى ويوجد أيضا بجغبوب من يحفظ — عن ظهر قلب — 20 الف بيت من الشعر ، ومن اشهر هؤلاء الباحثين العالم الكبير والبحر الزاخر العلامة سيدي أحمد الريفي وهو تلميذ سيدي محمد السنوسي وأستاذ ابنيه سيدي المهدي وسيدي الشريف ، ويجب أن اذكر ايضا سيدي الفالح (23) وهو من ابرز أدباء زمانه واعلم رجال جيله : ويوجد حاليا بجانب أمير المؤمنين عبد الحميد (24) الذي يعامله معاملة تقدير واحترام ، وهذان العالمان من المغرب .

كما يجب ان نذكر أيضا :

سيدي هاشم اصيل صفاقس وهو مؤدب سيدي المهدي وسيدي الشريف .

---

19) في (جلاء الكرب) ص 152 : كتاب بالعربية

20) محمود قابادو : العالم والشاعر التونسي الكبير اخذ العلوم من علماء عصره وساح في البلاد ولازم الشيخ ظافر المدني بمصراته مدة طويلة ثم رجع الى تونس فتولى التدريس بالزيتونة وبمدرسة باردو الحربية وتخرج عليه جملة من المدرسين ومن الضباط كما تولى خطة الافتاء سنة 1285 هـ 1868 م وتوفي 1288 هـ 1871 م وديوان شعره مطبوع في جزءين .

21) الباجي المسعودي : ولد 1225 هـ 1810 م وتعلم على فطاحل علماء عصره وتولى الكتابة للباي حسين الثاني ثم تدرج في الوظائف حتى رأس القسم الثاني بالوزارة الكبرى وكان كاتبا شاعرا له مؤلفات منها (الخلاصة النقية) وتوفي 1297 هـ 1880 م

22) محي الدين بن عربي : الفيلسوف الصوفي الكبير صاحب التآليف الشهيرة في التصوف وعلم النفس ، ولد بمرسية بالاندلس 560 هـ 1165 م واخذ العلوم على شيوخ الاندلس ببلده وخاصة بإشبيلية ورحل الى الشرق فزار مصر والشام والعراق والحجاز وتركيا واستقر في دمشق حيث توفي 638 هـ 1240 م

23) الشيخ فالح الظاهري من اكبر شيوخ زاوية جغبوب وعلمائها ، وهو محمد الفالح بن محمد الظاهري من ابناء المدينة المنورة ، صحب الشيخ السنوسي الكبير ، وكان مولده ، 1258 هـ 1842 م وتوفي 1328 هـ 1910 م وترك مؤلفات وآثارا علمية طيبة

24) عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد تولى 1293 هـ 1876 م وخلع 1327 هـ 1909 م

وسيدي محمدالسنوسي (25) اصيل المغرب الذي ارسله اخيرا سيدي المهدي الى السودان لاعادة النظام في أراضي كانم وغيرها . وقد نشر الطريقة في هذه الجهات . وهو موجود حاليا في ارض (برنو) ورابح متخوف منه (26) .

وسيدي محمدالبسكري أصيل بسكرة وهو بمثابة وزير ومستشار الشيخ وسيدي محمد التواتي اصيل توات وهو مكلف بمراسلات الشيخ . وهؤلاء كلهم أطواد في العلوم العقلية وهم اكثر من ذلك في العلوم النقلية .

ومن أبرز تلامذة الشيخ الكبير سيدي محمد حيدرة الهوني ، كان يقرأ القرآن بحضور سيدي المهدي واعتاد هذا الاخير أن يقول له : هكذا انزل الله القرآن على محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان حديثه دائما بالغ الاهمية .

زار الشيخ سيدي محمد السنوسي بنغازي مرتين الاولى قبل ذهابه الى مكة عند قدومه من المغرب ، عبر تونس ، ونزل في البيضاء حيث بنى زاوية ، ومن هناك توجه الى مكة ، وعند رجوعه من الحجاز نزل بتمسة وبالعزلان (27) اين قضى عامين ثم ذهب الى جغبوب حيث قضى أربع سنوات ثم انتقل الى الدار الاخرة وعمره 75 سنة ، وكان — كما قال مؤلف كتاب عنوانه ، كنز الاسرار : أحد مصلحي اوائل القرن الثالث عشر للهجرة ، وقد درس العلوم في مكة وقام في كثير من الاحيان بأشياء خارقة للعادة نستطيع أن نسميها كرامات : كل هذا مذكور في كتب خاصة اصبح بعضها شعبيا .

25) من كبار رجال الطريقة السنوسية ، سوداني الاصل ولد 1277 هـ 1860 م ودرس بزاوية الجغبوب وتولى مشيخة زاوية مزدة ثم ارسله المهدي السنوسي في المهمة التي ذكرها المؤلف ورجع الى مزدة حيث توفي 1348 هـ 1929 م

26) رابح هذا كان عبدا للزبير باشا الذي احتل جنوب السودان المصري واضافه لسلطة الخديوي بمصر فلما مات الزبير انطلق رابح في اربعمائة من الاتباع فاحتل برنو والمتلكها بعد ما فر عنها ملكها.

27) هكذا في الترجمة : Azlani

مما يحكى خاصة ان مكتشفا فرنسيا قدم الى بلد التوارق ودفع الى رئيسهم (نخونخن) 2000 فرنك لكي يعرفه بالمنطقة ويوصله الى غات فرافقه نخونخن ــ الذي كان رجلا مستقيما وأمينا والذي كان يكن نفس الاحترام للغرباء او للمسلمين ــ الى الهقار والازقر ولما وصلا الى غات رفض التوارق وبعض سكان هذه البلدة الترخيص للفرنسي بالدخول ، فأجابهم نخونخن بأنه سيدخل رغم كل شيء ، واحتد الخصام بيهم حين وصل رجل يركب مهريا ابيض حاملا رسالتين واحدة الى نخونخن والاخرى الى رئيس الطرف المقابل ، وعندما اطلع كل منهما على محتوى الرسالتين هدأت الحال فجأة وتمكن الفرنسي من الدخول بدون أي صعوبة إلى البلد ثم رافقوه إلى قرب طرابلس ، وتتضمن الرسالتان مايلي :

« ان الشيخ سيدي محمد السنوسي يأمر لوضع حد للخلاف ــ بدخول الفرنسي الى غات لانه ذاهب إلى طرابلس » واردت ان اعرف اسم هذا الفرنسي فلم استطع ذلك (28) وهذا الحادث العجيب وقع في شهر سبتمبر 1857 م (29)

وهذه كرامة اخرى للشيخ : في يوم من الايام ــ لما كان قادما من المغرب في طريقه إلى الحجاز اجتاز جهة من تونس تسمى الاعراض ونزل صحبة اربعة اشخاص على حي من الخيام تابع لفرع من ورغمة ، واخفى انه من العلماء ، فأكرمهم رئيس هذا الحي ــ الذي لم اتمكن من معرفة اسمه ــ لان مظهره يوحي بالاحترام ، ولما اراد الشيخ الرحيل اهدى

28) هو بلا ريب المسيو دو فيريي (Duveyrier Henri) ورئيس التوارق المسمى عادة ايخنوخن (المترجمان)

ودوفيريي رحالة فرنسي ولد بباريس 1840 م وزار في رحلاته الجنوب الجزائري والجنوب التونسي ، وتوارق الصحراء الكبرى ، واراضي فزان ، وهو الذي مهد الطريق لدخول الفرنسيين بلاد التوارق ، وتوفي بسيفر (Sèvres) 1892م.

29) هذا التاريخ مشكوك في صحته اذ لا يتصور اذا كان الحادث يتعلق بالمسيو دوفيريي كما يقول المترجمان (انظر التعليق السابق) لان الرحالة في هذا التاريخ لا يتجاوز عمره 17 سنة وهي سن لا تؤهله للمغامرات .

له مضيفه بغلة فعثرت هذه البغلة واسقطته فانكسرت يده اليمنى فرجع الى الحي حيث تلقاه رئيس الحي مذعورا واحضر له في الحال اناسا يحسنون جبر الكسر فشرعوا في معالجة الشيخ بمطارق من الحديد تحمى في النار ثم تجعل على محل الكسر ومع ذلك فإن النار لم تترك أي أثر للحروق على جلده . ومن هذا الحادث بدأت شهرة الشيخ الشعبية .

لا تكاد تمضي 24 ساعة دون ان يقرأ القرآن تحت قبة ضريحه ، الذي يوجد في الجهة الجنوبية من هذه القبة العظيمة والمزخرفة فنيا والمحافظ عليها بالتعهد المستمر : في هذه القبة ثريات كبيرة من الزجاج الصافي وفوق الضريح يوجد تابوت (30) من الابنوس يغطيه رداء من الحرير وفوق التابوت نقشت بعض آيات من القرآن ، وكتب فوق القبر مع تاريخ وفاته بيتان من الشعر (31) :

هذا الحمى روضة بالفضل ممطورة (32)
صارت بنجل رسول الله مشهورة
سرت بسر (33) سنا المهدي أرخه
على السنوسي شمس(34)اليمن مقصورة (35)

كتب الشيخ كثيرا من الكتب في مختلف العلوم من بينها الكتاب الذي يحمل عنوان (بغية المقاصد) في الاصول ، وآخر عنوان (السلسبيل المعين في الطرائق الاربعين) وهو كتاب عظيم ، والف ايضا بحثا في كيفية العمل بالحديث والقرآن ، دون الالتجاء الى المذاهب الاربعة والعلماء الذين سيطلعون على هذا الكتاب سوف تحصل لهم فكرة قيمة عن قيمة

30) غطاء من اللوح يكون عادة مزينا ، وعليه رسوم تغطى به قبور الشخصيات البارزة (المترجمان)
31) نقلنا نص البيتين من معجم البلدان الليبية ص 104 . كما وردا في (جلاء الكرب)
32) في جلاء الكرب: منظورة
33) في جلاء الكرب : بسو (بالواو)
34) في جلاء الكرب : قمير
35) الحروف العربية لهذه الجملة تكون تاريخ بناء هذه الزاوية بأخذ قيمتها العددية وجمعها (المترجمان)

صاحبه . والف ايضا كتابا تحدث فيه عن الاساتذة الذين تلقى عنهم العلوم ، ولم اتحصل على مختلف هذه الكتب ــ التي لا يوجد منها الا بعض النسخ الا بصعوبة كبيرة لانها لم تطبع ولا يعرفها الا قليل من الناس .

وله ايضا تكملة على كتاب الامام سيدي محيي الدين بن عربي الذي بحث فيه موضوعات 125 علما اضاف إليها الشيخ 20 علما ، وترك ايضا تفسيرا للقرآن سماه (الارشاد) وهو دراسة معمقة لمختصر سيدي خليل عظيمة الفائدة لان الشيخ مالكي المذهب وليس مجتهدا (36) كما يزعمه بعض الجهلاء ، وكان يقول دائما :

« ان احب شيء اليّ بعد الله ورسوله والخلفاء الاربعة الامام مالك »

ومن بين الاسباب التي اذاعت شهرته ما سمعته من سيدي حامد الشريف من ان الشيخ نوى يوما الطلب من حكومة السلطان ان تلغي الاداء المسلط على ممتلكات زواياه الموجودة في الارض العثمانية ، وبينما هو جالس يوما مع تلميذيه الشيخ سيدي عبد الرحيم (37) والشيخ سيدي محمد تحدث اليهما بما يزمع القيام به ولكنه لم يقل انه ينوي اسناد هذه المهمة الى سيدي عبد الرحيم ، فالتفت الشيخ سيدي محمد نحوه وقال :

ــ انا اذهب لذلك .

---

36) المذهب المالكي : هو احد المذاهب الاربعة الاسلامية وهو كثير الانتشار بين مسلمي الشمال الافريقي والمجتهدون هم : المعتنقون لمذهب اسلامي يعتمد العقل وجد في القرن الثاني للهجرة وكان هو مذهب الحكومة في عهد الخليفة العباسي المأمون والخليفتين بعده ثم منع باعتباره بدعة ، ويوجد الان بعض المجتهدين في المغرب والهند (المترجمان)

يذهب المترجمان بهذا التعليق الى تفسير كلمة (مجتهد) بالمعتزلين وليس هذا قصد الحشائشي الذي يقصد بالمجتهد الذي لايقلد مذهبا من المذاهب كما هو ظاهر .

37) عبد الرحيم بن احمد الزموري : اتصل بالسنوسي الكبير سنة 1258 هـ 1842 م وتتلمذ عليه وندبه الى الاستانة في المامورية التي ذكرها المؤلف وتولى التدريس بزاوية الجغبوب ، وكان شاعرا مجيدا توفي ببنغازي 1305 هـ 1887 م

فسكت الشيخ متضايقا ، وذهب سيدي محمد في الحال دون اعلامه . ولما وصل سيدي محمد الى طرابلس تقابل صدفة مع الباشا واعلمه بهدف رحلته فوافقه الباشا . فاشترى سيدي محمد ستة من العبيد الذكور وركب بهم البحر — على طريق مالطة — قاصدا القسطنطينية واعانه الله في رحلته فتمكن من الهرب مع عبيده من تفتيشات الانكليز (38) ، ولما وصل — بدون مشاكل — الى القسطنطينية باع عبيده بثمن باهظ ، واستعمل الوسائل اللازمة لمقابلة السلطان عبد العزيز (39) ولكنه لم يستطع ، فمكث في القسطنطينية ثلاث سنوات ، قضاها في دراسة العلوم .

وفي اثناء ذلك الوقت — وبما انه ذهب بدون ارادة سيدي محمد السنوسي — امر هذا الأخير سيدي عبد الرحيم بالذهاب الى القسطنطينية لتقديم مطلبه الى السلطان فسافر سيدي عبد الرحيم سنة 1856 م ولما وصل القسطنطينية وجد سيدي محمد غارقا في دروسه فقاما معا بالاجراءات اللازمة لمقابلة الخليفة ولكنهما لم يفلحا ، وبقي السلطان محتجبا ، وفي هذه الاثناء وصل باشا طرابلس فوعدهم بأن يسهل لهم المقابلة المطلوبة اذ كان يتمتع بتقدير كبير من السلطان ، فلما قابله قال له : ان عالمين كبيرين مبعوثين من قبل شيخ يسمى محمد بن علي السنوسي وهو رجل صالح يعلم الناس ما قال الله ورسوله موجـودان في القسطنطينية ويرغبان في مقابلة السلطان لكي يطلبا منه ازالة الاداء على ممتلكات الزوايا الموجودة في البلاد العثمانية .

فأجابه السلطان بانه لا يستطيع تلبية طلب مبعوثي الشيخ سيدي محمد السنوسي إلا بعد ان يجمع عددا من العلماء يمتحنونهما ، عندها

38) كان الانكليز يصادرون الرقيق بسبب القانون الدولي القاضي بمنعه

39) عبد العزيز بن السلطان محمود تولى 1277 هـ 1860 [illegible] 12[illegible] هـ 1876 م وانتحر بعد ايام من عزله .

وقع جمع مجلس رسمي من العلماء وطلب من الشيخين سيدي محمد وسيدي عبد الرحيم تفسير آية من القرآن هي (طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى) ، الاية ، فأعجب الممتحنون باجابتهما واقروا بتفوقهما ، لذلك امر السلطان بإعفاء عقارات زوايا الشيخ السنوسي من الاداءات ووقع هذا سنة 1856 م .

ولما توفي الشيخ ارسل عدد كبير من العلماء مراثي جمعت منها عددا احسنها المرثية الاتية التي نظمها الشيخ سيدي عبد الرحيم ابن احمد شيخ زاوية بنغازي :

مابال عينك (40) لا بالنوم (41) تكتحل
ودمعها لايزال اليوم ينهمل (42)
كأنما سملت بالشوك (43) أو كحلت
من الغضا بشواظ كاد (44) يشتعل
تخالها مزنة مذ لاح بارقها
فأخضل الارض منها صيب هطل
والوجه أسفع والاعضاء ناحلة
والقلب في شرك الاحزان مختبل الخ (45)

أما عن مدح الشيخ وكتبه وبحوثه فسأخصص لذلك رسالة خاصة (46)

وخلف سيدي محمد السنوسي ولدين احدهما هو سيدي المهدي

40) في جلاء الكرب : عينيك
41) في اعلام ليبيا : بالدمع والتصحيح من جلاء الكرب
42) في جلاء الكرب : ولا تزال بفيض الدمع تنهمل
43) في جلاء الكرب : باشواك
44) في جلاء الكرب : كان
45) اوردت الترجمة الفرنسية للرحلة نحو 20 بيتا فاقتصرنا على الابيات الاربعة الاولى التي اوردها الشيخ الزاوي في اعلام ليبيا وقد ورد البيتان الاولان في جلاء الكرب ، واقتصارنا هذا يكفينا عن ايراد ترجمة مهزوزة للقصيد .
46) لا نعرف رسالة للمؤلف في هذا الغرض ، ويظهر أنه لم يستطع تحريرها حتى وفاته

الذي لا يزال على قيد الحياة (47) وهذه حياته :

ولد سيدي محمد المهدي المعروف ايضا بالبدر لجماله ولشعبيته في 1844 (1260 هـ) وسط جقف بجانب زاوية البيضاء بالجبل الاخضر من مقاطعة درنة وكان يحفظ القرآن كله منذ صغره وتعلم العلوم على الشيخ سيدي احمد الريفي الذي لايزال حيا بجغبوب ، وعلى علماء آخرين من تلامذة الشيخ الكبير وكان دائما في اول الصف في مختلف انواع العلوم ، وقد ورث طهارة ابيه ، ويحكى ان والده كان يقبل يده لما يتوقع له من عظمة في الشأن فيما بعد ، ولما توفي الشيخ الكبير أصبح هو شيخ الطريقة .

وكان لسيدي محمد السنوسي ابن آخر هو سيدي محمد الشريف اصغر من اخيه بعامين ، ولد في 18 سبتمبر 1846 م (1263 هـ) وحفظ القرآن منذ صغره ثم درس العلوم العقلية والنقلية وتوفي في 27 رمضان 1313 هـ 1896 م (48) بعد مرض بداء الخناق ودفن جانب ابيه ، وكتب سيدي محمد بوسيف (49) احد تلامذة الشيخ الكبير والقاطن حاليا بجغبوب عند موته المرثية الاتية (50) .

س — سرنا بنعشك خضع الاعناق سيرا دوين العدو والاعناق
ي — ياخير محمول لاعلى جنة ولحورها يلقينه بعناق
د — داء اصاب المكرمات فغالها واغتال روح مكارم الاخلاق
ي — يجري على وفق القضا حتما فلا تبقي مواضيه على الارماق
و — والدهر يعتام الاخائر والردى بعتاد نهب نفائس الاعلاق

---

47) في سنة 1896 م وقد توفي في حرب مع الفرنسيين بالسودان سنة 1320 هـ 1902 م

48) وقال في جلاء الكرب ان وفاته كانت 1312 — 1895

49) توفي محمد بوسيف بزاوية الكفرة سنة 1315 هـ 1897 م

50) نقلنا نصها من جلاء الكرب ص 159 وما بعدها.

م ــ ما ضره لو ان صارم صرفه ابقاك للعافين والطراق
و ــ والعلم والحلم الذي شمخت به آفاق جغبوب على الافاق
ل ــ لكنه لا ينتهي عن قصده بتطبب او رقية من راق
ا ــ اودى الشريف بن الشريف محمد من للمعالي بعده من راق
ى ــ ياجامعا اصل العلوم وفرعها جمعا لمن ناواك غير مطاق
أ ــ أنت الامام لكل من أم الهدى والدين بالاجماع والاصفاق
ل ـ لك (منه) (51) كنز معارف وعوارف تحت الصفائح محكم الاطباق
س ــ سر ثوى في روضة موشية وشي الربى غب الحيا الغيداق
ى ــ يا ثاويا مع اصله في لحده هذا قران السعد في الاعماق
د ــ دار حوت اصل المكارم والعلا مع فرعه شبت على الاطواق
م ــ ماتلك (الا) (52) جنة قد زخرفت ورثت (أ) (53) يامولاي باستحقاق
ح ـ حزت النعيم بها وكنت منعما والله يمنحك النعيم الباقي
م ــ ما عذر من ينعاك اذ لم يرتشف كأس الردى من دمعه المهراق
د ـ دمع من العين (ين) (54) منها مرسل تهمي بذاك قريحة الاماق
ا ــ ان قصرت يوما فان قلوبنا اسرى لفقدك في اشد وثاق
ل ــ لو كان يفدى الميت بادركلنا يفديك بالاجال والارزاق
ش ــ شرفت ياجغبوب حقبا بالذي اعلى منارك بالثناء الباقي
ر ــ روت اليك وجوه آمال الورى عطشا لورد نوالك (55) الدفاق
ى يسعى لارضك كل جلف مملق فيثاب بالاداب والارماق
ف ــ فازت رجال باحتلال رياضه ورياضه الخلد النعيم الباقي
ر ــ راض (56) الانام بعلمه وبحلمه فتقدموا في حلبة الاسباق
ض ــ ضار اذا ما ربته في دينه او رمت نقض العهد والميثاق

---

51 ــ 52 ــ 53) ما بين المعقفين تكملة منا للنقص الموجود في (جلاء الكرب) .

54) ما بين المعقفين تكملة منا للنقص الموجود في (جلاء الكرب)

55) في المرجع : نواك

56) في المرجع : راضي

ى - ياصفوة ياشبله (57) صبرا على ريب الزمان وخطبة الفرّاق
ا ــ ان المنايا غاية ما دونها من ناصر كلا ولا من واقي
ل ــ لا تخطىء الاحباسهام حتوفها من فاته هذا فذاك يلاقي
ل ــ لكن اذا كان المصير لجنة كمصير سيدنا على الاطلاق
د ــ هان المصاب به ٬ان دك القوى وجرت مدامع بالدم الرقراق
ع ــ علمي بأنه لا حـق بمحمد وارى اوار لواعـج الاشواق
ن ــ نوحي عليه توجعا وتفجعا لمبرح قد ضاق عنه نطاقي
ه ــ هم همي بالقول (58) في تاريخه يجلـوه فطـر القــدر بــالاشراق (؟)

وقد خلف سيدي محمد الشريف اربعة ابناء ، يمثل اكبرهم سيدي محمد العابد البالغ من العمر 18 سنة في زاوية جغبوب (عمّه) سيدي المهدي ، منذ هاجر هذا الاخير الى بلاد الكفرة ، ويرافق ثاني الابناء المدعو سيدي احمد الشريف (59) سيدي المهدي ، والابنان الاخران لا يزالان صغيرى السن .

لم يزل سيدي المهدي ــ منذ موت والده يشعر بفيض بركات الله ويتوافد عليه الزوار من اقصى البلاد ، ويبقى بعضهم بجغبوب لطلب العلم الا ان الشيخ لا يأذن لهم بالزواج (60) .

ان عدد المنتمين للطريقة يزداد باستمرار بفضل المحبة التي توحي بها

57) في المرجع : ياصفة صفوة يا شبل

58) في المرجع : بالقم

59) احمد الشريف ولد بالجغبوب 1290 هـ 1873 وبزاويتها اخذ العلم وقاد الجهاد ضد الطليان سنة 1911 م في قطاع برقة كما حارب الانكليز بالحدود المصرية وانتقل الى الاستانة 1917 م وتوفي بالمدينة المنورة 1351 هـ 1932 م

60) علق الاستاذ المصراتي في جلاء الكرب ص 163 على هذا الزعم بقوله:«لست ادري من اين جاء المؤلف بهذا ، مع ان هذا لا يوجد في نظام مدرسة الجغبوب ولا عند الاخوان السنوسية ، وكثير من طلاب المدرسة كانوا متزوجين ولا يفرض عليهم هذا الذي اشار اليه الحشائشي ، وقد يكون بعض طلاب العلم يؤثر تأخير زواجه الى ما بعد اكمال الدراسة من تلقاء نفسه ولكنه ليس من النظام المفروض .

شخصية الشيخ وفي شهر ماي 1896 م ارسل اليه السلطان عبد الحميد مبعوثا برتبة امير امراء (61) يحمل هدية فاخرة ومر هذا المبعوث ببنغازي في قافلة تتركب من عشرة جمال متوجها عبر بلاد جالو نحو بلد الكفرة حيث كان الشيخ معتزلا وكان هدف هذه المهمة ان يعلم سبب مغادرة سيدي المهدي لجغبوب ، وبعد زيارته عاد المبعوث الى القسطنطينية حاملا رسالة للسلطان تتضمن دعاء الشيخ له بالخير .

وينبغي ان الاحظ في هذا الشأن ان الاتراك ، وحتى المنتمي منهم الى الطبقات العليا ، لا يرتاحون للشيخ المهدي ، ولو كان في إمكانهم حمله للقسطنطينية لفعلوا ذلك ، ومنحوه قصرا وخدما مثلما فعلوا بالنسبة لابي الهدى (62) والشيخ ظافر (63) ، ولكنهم لم يتوصلوا الى ذلك ، ولهذا السبب ظلوا يتخوفون باستمرار منه ، والشيخ المهدي نفسه لا يبادلهم الود : وهذا على الاقل ما لاحظته عندما كنت اتردد على الاخوان .

وروى لي الشيخ سيدي احمد المختار شيخ الطريقة بمرزق مايلي :

« كان سيدي محمد السنوسي الكبير قليل المودة للاتراك الى درجة انه دعا عليهم في يوم من الايام باللعنة الالهية حيث قال : إلهي اجعلهم كلما احتلوا بلدا من بلاد الدنيا ـــ يخلفهم عليه الاوروبيون (64) وقد اعتقدت انه بإمكاني ابداء ملاحظة في شأن هذا الدعاء ، لان لعن المسلمين او

---

61) هو صادق المؤيد احد رجال البلاط العثماني في أواخر 1895 م (عن جلاء الكرب ص 164)

62) أبو الهدى : محمد بن حسن وادي الصيادي الرفاعي الحسيني ، من أشهر علماء الدين ولد في منطقة حلب وفيها تعلم وتولى نقابة الاشراف ثم انتقل الى الاستانة واتصل بالسلطان عبد الحميد الثاني فقلده مشيخة المشايخ وحظـي عنده وخدمه مدة ثلاثين سنة، وكان له تأثير عظيم على السلطان . ولما خلع عبد الحميد نفي أبو الهدى الى جزيرة الامراء وفيها توفي سنة 1328 هـ 1909 م وترك تآليف كثيرة (عن الاعلام ج 6 ص 324 باختصار) .

63) هما المستشاران الرئيسيان من العرب للسلطان ، وأسم ظافر في الاصل الفرنسي (ظافا) وهو خطأ اذ ان اسمه (ظافر المدني) وهو و ابو المهدي المستشاران الرئيسيان من العرب للسلطان

64) معاذ الله ان يصدر هذا عن شيخ اشتهر بالتقوى وكره الاروبيين

حتى لعن غيرهم لا تبيحه الشريعة ، في حالة الضرورة ، فأجابني الشيخ احمد انه في الوقت الذي قال فيه الشيخ هذه الكلمات لم تمر مدة طويلة على اظهار الاتراك لمظالمهم في تونس والجزائر (65) .

وفي احد الايام ارسلت الحكومة الايطالية هدية معتبرة للشيخ فرفضها ، ويبدو ان هذه الهدية لا تزال موجودة بالقنصلية الايطالية في بنغازي .

وقد حدثني كثير من اخوان الطريقة — فيما يخص الحكومة الانكليزية : إن هذه الحكومة مكروهة من الشيخ ومريديه لانها تكن حقدا دفينا على المسلمين ، وفعلا فإنه يحكى ان وزراء الملكة قد قالوا مرات في البرلمان ،عند حديثهم عن القرآن : « طالما بقي هذا الكتاب عند العرب ، وتعاليمه متمكنة من قلوبهم ، ينبغي دائما ان نحذر منهم »

واما بقية الحكومات فإنني لم اسمع حديثا عنها في بنغازي ولا فزان ولا طرابلس ولا الصحراء الشرقية ولا بين التوارق ، الا انه ينبغي ان اقول فيما يتعلق بالحكومة الفرنسية ، وهي اكثر الحكومات شهرة بين هؤلاء الاقوام : ان الشيخ يعتقد انها تحب الشعب العربي بسبب العلماء والصالحين الموجودين تحت سلطتها او خارج حمايتها ، والذين يمكنهم — بدون اي عائق — ان يمارسوا شعائرهم ، وهو لم يسمع ان هذه الحكومة قد تنكرت لحقوق المسلمين (66)

وفي سنة 1893 م او — 1894 وصل الى جغبوب فجأة مكتشف انكليزي فأراد بعض الاخوان قتله لانه دخل بلادهم بدون ترخيص ، وهم يشكون في انه قد اطلع بعد اطلاعا واسعا على شؤونهم ، غير انه —

65) ما اظن هذا الا من خيال المؤلف اثبته قصدا ليقول للاروبيين انهم مرسلون لانقاذ المسلمين من ظلم الاتراك حسب عقيدته التي يدافع عنها في كتبه بحماس .

66) هذا الزعم من تمحلات الحشائشي لارضاء الفرنسيين حسب عادته .

عندما طلب مقابلة الشيخ ــ وقعت تلبية طلبه ، وقد بقي ثلاثة ايام في بلادهم دون ان يكلمه احد ، وسأله بعض الاخوان عن سبب زيارته فأجابهم ان لا هدف له الا رؤية الشيخ .

وفي نفس السنة قدم مكتشف انكليزي آخر لزيارة الشيخ ، وكان مصحوبا بامرأةٍ يهودية ، وكان يتظاهر بالاسلام فاستقبله الشيخ بالترحيب وعامله بالحسنى لكن المرأة اليهودية ذهبت لمقابلة الشيخ ذات ليلة واعلمته بأن هذا الرجل محتال وانه لم يعتنق قط الديانة الاسلامية ، وعندما علم الانكليزي بأن اليهودية فعلت ذلك غادر جغبوب ليلا تاركا المرأة عند سيدي المهدي فأرسل معها سيدي المهدي من يوصلها سالمة الى الاسكندرية ، ويخيل إلي اني فهمت ان هذا المكتشف قد قتل عندما وقع الحصول على دليل احتياله . •

وينبغي ان يعلم المرء ان الاشخاص الذين يزورون الشيخ ــ سواء كانوا مسلمين اولا لا يعاملون معاملة سيئة ، بل على العكس يقع قبولهم قبولا حسنا ، على الرغم مما قاله بعض الرحالة ذوي النوايا السيئة الذين ــ لما لم يتمكنوا من الوصول إلي سيدي المهدي قد تحدثوا انه يستقبل المسيحيين استقبالا سيئا ويتصرف تجاههم تصرفا غادرا ، واني اؤكد انه كلما تمكن غير المسلم من الوصول الى الشيخ سليما ، وهو ما يحدث نادرا ، فإنه واجد عنده الامن المطلق ، والضيافة الكريمة وحالما يسافر فإن الشيخ يرسل معه من يرافقه الى القاهرة او بنغازي او غيرهما حسب رغبته ، وقد كان يقول ــ آنذاك ــ للاخوان : ان من واجبنا ان نعامل هذا الغريب بالحسنى لان شريعتنا تأمرنا بإكرام الضيف مهما كان الدين الذي يعتنقه ، واذا ما عاملناه معاملة حسنة فإن هذا الرجل لا يمكنه الا ان ينشر في البلاد البعيدة اصداء نوايانا الحسنة .

ويوصي سيدي المهدي كثيرا شيوخ الزوايا والمريدين واعيان الطريقة بأن لا يغيب الاجانب والمكتشفون عن أعينهم ، وقتلهم وسلبهم معتبر

ظلما ، وعواقب عمل كهذا تكون وخيمة على مرتكبها ، وكان يعاتب غالبا التوارق كلما علم انهم ارتكبوا خيانة تجاه قافلة ، وكان اغلبهم يواصل اعماله السيئة فكان يدعو الله بأن يصيبهم بالجفاف والفقر اذا لم يتوبوا .

وبعد زمن قليل من استقرار الشيخ بالكفرة ، زاره مكتشف لم اتمكن من معرفة جنسيته ولا اسمه ، ويبدو ، انه كان انكليزيا ، وهو على الاقل ما اكده لي بطرابلس سي على الوسلاتي التونسي ، وقد علم ذلك من احد الاتراك لم يسمه لي ، ولا ينبغي ان ننسى ان العرب لا يميزون اطلاقا بين الانكليز والفرنسيين والايطاليين والاتراك (67) وكان هذا المكتشف قد وصل عن طريق وداي ، وقد وجهه الامير يوسف الى الشيخ ، وارسل معه الشيخ من يوصله إلى بنغازي ، واستقبل الشيخ ايضا رجلا من اهل مكة ارسله اليه نفس الامير .

اريد الان ان اتحدث عما وقع عندما قرر الشيخ في شهر جوان 1895 الانتقال من جغبوب الى بلاد الكفرة .

لما امره الله بالذهاب الى هذا المكان اختار مائة طالب من اكثرهم علما وقام بالاستعداد للرحيل بسرعة جعلت الناس لا يعلمون بنواياه الا حينما اذن بالرحيل ، وعندها حدثت رجة عظيمة واعرب له كل واحد — والدموع في عينيه — عن رغبته في الرحيل معه ، لانه لم يعد يستطيع البقاء هناك ، وعندما رأى الشيخ اولئك الناس في ذلك التأثر ، شق طريقه وسط الجماعة المحيطة به بشكل يقسمهم الى صفين وقال : « سيأتي معي من اراد الله رحيله (الذين كانوا على يمينه) ويبقى من لم يرد الله ان يرحل» وارتحل الشيخ ومعه من اراد الله رحيله ، وبقي الاخرون في ارض جغبوب فريسة لحزن عميق ، ومن بين من بقي ، سيدي العابد بن

---

67) هذا تمحل ايضا من الحشائشي ، فالعرب يفرقون بين الاتراك المسلمين وغيرهم من المسيحيين ، بل ان اغلبهم كان يكن للاتراك حبا واحتراما بصفتهم من بلاد الخلافة الاسلامية

سيدي الشريف وقد تركه الشيخ خليفة له في جغبوب ، وبقي كذلك العالم الكبير سيدي الريفي وغيره مثل سيدي بوسيف ، وارتجل هذا الاخير ـــ عندما تخلص من الحزن الشديد الذي غمره بسبب رحيل الشيخ ـــ شعرا في هذا الموضوع يرشح بالأسى والرقة (68) .

وعندما وصل سيدي المهدي الى الكفرة التي حددها الله لاقامته استقبلته القبيلة العربية الكبرى (زوية) والقبيلة التي كانت تجاورها ، وتقاسم معه هؤلاء الناس ـــ سرورا بمقدمه ـــ الاراضي والنخيل وكل ما يملكون ، وقدم لزيارته القبائل المجاورة ، وخاصة قبيلة (تبو) الهامة جدا وسكان الصحراء الشرقية وتسمى القرية التي استقر فيها الشيخ بلد (الجوف) وتتكون مما يقارب الستين منزلا ، وبين هذا المكان ووداي ما يقارب 45 يوما على ظهور الابل ، وجميع البضائع التي توجد فيها ، تحمل لها من طرابلس ومصر وبنغازي ، لكن البائعين يقدمونها على انها تونسية المصدر ، لان منتجات تونس لدى سكان الصحراء لها اعتبار خاص عندهم .

وفي بلاد الجوف ـــ مثلما هو الشأن في جميع التجمعات السكنية الصحراوية ـــ تخرب البلاد عندما ينزل المطر ، لكن المطر لا ينزل الا كل

---

68) اثبت هذا الشعر في جلاء الكرب ص 169 وهو قصيد به 35 بيتا اوله :

هم هيجوا يوم النوى (نار) اشجاني ... وحناديهم لما ترنم اشجاني
وهم سلبوا لبي والبس بينهم ... رداء الردى جسمي واثواب احزاني
وهم غادروا جسمي لظى بعد بهجة ... جرى ذوبها من نهر مدمعي القاني
فوالله لا انسى عشية ودعوا ... فأودعتهم صبري وودعت سلواني

وختمها بقوله :

عليكم سلام الله ماهبت الصبا ... تحية صب خافق القلب هيمان
ولما ارتحلتم صغت قولي مؤرخا ... لرحلتكم بند بتمهيد اوطان
67 461 56 728

1312 هـ

والشيخ محمد بوسيف صاحب القصيدة من كبار رجال الطريقة السنوسية وعلمائها وتوفي بزاوية الكفرة سنة 1315 هـ 1897 م .

30 او 40 سنة (69) ؟؟ ومن بين من هاجر مع الشيخ ، سيدي احمد البسكري وزيره بل مستشاره لان الشيخ يتجنب التسميات التي يمكن ان تعطي السلطة التي يمارسها طابع الملكية .

ــ وسيدي احمد التواتي الذي يشغل لديه مهام مماثلة لمهام القاضي
ــ وكاتبه هو الشيخ سيدي محمد التواتي
ــ واخيرا سيدي العربي الذي يشغل لديه وكيلا ماليا ، وهو صهره متزوجا من شقيقة زوجة الشيخ ويقيم جميعهم بالكفرة .

ومن بين اعيان الاخوان اذكر :
ــ سيدي محمد الجروالي (؟) امام بلد جغبوب

ــ وسي الحاج احمد الثني التاجر الواسع الثروة وهو ابن عم المرحوم الحاج علي الثني الغدامسي رفيق المركيز دي موريس ، وهو (أي الحاج احمد) يلازم الشيخ منذ سبع سنوات ويكن له الشيخ محبة كبرى وقد زوجه احدى شقيقات زوجته ، وبواسطته كانت ترد البضائع التي يحتاجها الشيخ ، ويقوم كذلك بعمليات تجارية معتبرة مع برنو ووداي والقاهرة وغات وطرابلس وكل تجارة جغبوب على يديه تصديرا وتوريدا ولكي يفوز برضا الاخوان كان يجلب لهم بضائع بأثمان منخفضة ، وهو ما يجعل الشيخ يعترف له بالجميل ، ورغبة من الشيخ في التعبير له عن الشكر ، سمى بلد الجوف (غدامس الجديدة) وهو العنوان المثبت على جميع الرسائل التي يتلقاها سيدي المهدي .

ــ ويمكن ان نذكر كذلك سيدي محمد السني الذي ارسله الشيخ الى السودان ليتصل برابح وينقل له توبيخا عن اعماله السيئة ويدعوه الى اتباع شريعة الله ورسوله ولينذره في نفس الوقت بخطر عاجل ، اذا لم

69) عندما كان المؤلف بالكفرة اخبروه انهم لم يروا المطر منذ 42 سنة ، وفي مرزق لم تمطر السماء منذ 35 سنة (المترجمان)

يرتدع ، ولا يزال سيدي محمد السني الى الآن عند رابح .

واعتنقت عدة شعوب سودانية ــ مثل اهل كانم ، وبرنو وآخرين الطريقة السنوسية .

ويبعد بلد الجوف عن جغبوب بمسيرة 21 يوما منها 10 ــ او ــ 12 يوما عبر منطقة صحراوية تحيط بالجوف من جميع الجهات وهو نقطة مركزية بين السودان وواداي وطرابلس وغات والقاهرة وبنغازي ، واظن ان الذي دفع الشيخ الى الاستقرار في هذا المكان هو موقعه الجغرافي الذي يسمح للاشخاص الراغبين في زيارته بالوصول اليه في سهولة اكبر مما لو كان في جغبوب ، ومن جهة اخرى ، سمعت الناس يقولون انه لم يغادر جغبوب الا للابتعاد عن المكائد الانكليزية والايطالية والله اعلم بالحقيقة .

وهذا البلد مجاور لمصر ، وعامة اراضيه طينية ، وتشاهد فيه جبال بعضها برونزي اللون ، وبعضها يميل لونه للصفرة ، ويصادف المرء في جهتي الشمال والغرب كثبانا رملية متحركة .

واغلب الشعوب التي تقطن هناك تحمل اسم (التبو) ، ولا تتبع اي حكومة ، وقد التقيت كثيرا بهؤلاء الناس في مرزق والقطرون ، وسأتحدث عنهم بعد هذا ، وأغلبهم قد اعتنق الطريقة ومنذ ذلك الوقت يسود الامن بينهم ، واصبحوا يفرقون بين الخير والشر ، وينقسمون الى (الرشاد) و (ثاران) و (مركو) و (باتلين) الخ ويجاور الطريق الذاهب من مرزق الى (كوكا) سلسلة من الجزر (70) المغطاة بالنبات وخاصة النخيل العملاق ، واكبر هذه الجزر تسمى (كاوار) ، وقد التقيت بعدة سكان من هذه المنطقة فالفيت بينهم اناسا لهم خبرة تجارية ، وتربية حسنة ، ويخضعون للشيخ المهدي ، والواحات الاخرى التي تصادفنا في هذه

70) يشبه العرب الصحراء ببحر جزره هي الواحات ، وتمثل نقط تموين البدو والرحل موانيه ، وهذه المقارنة هي في الواقع صحيحة جدا (المترجمان) .

المنطقة هي (تيبستي) و (بوركن) ثم (الكفرة) حيث يقطن الشيخ .

وفي واحة الكفرة الواقعة بين وداي ومرزق توجد في الشمال مدينة (كبانو) التي يحمل قسمها الشمالي اسم (ليبيا) وهي تابعة اسميا الى مصر ، وهذه الواحات المختلفة تحمل التسمية النوعية للواحات (جزر الصحراء) (71)

* * *

وتستمد التفاصيل التي اعطيتها حول هذا القسم من الصحراء ، والتفاصيل التي سأقدمها فيما بعد ، اهميتها من وجود الشيخ في تلك البلاد ، وفي هذا الصدد ينبغي ان أقول : ان سكان تلك المنطقة من الصحراء هم أناس وديعون ، ليس على المسافرين بينهم خوف ، وفعلا فإن الشيخ قد تلقى من الله القدرة على نشر الاحترام حوله ، ولا يعني ذلك انه يمارس ضغطا على الشعوب المحيطة به مثلما يفعل ذلك امير أو سلطان ، ولكنه يعيش في الصحراء التي استقر فيها بورع مستغرقا في العبادة والصلاة ، يتأمل القرآن ويسعى في غرس التعاليم التي يحتويها في قلوب المؤمنين .

وكل مايقال في هذا الموضوع من انه يستعد للحرب ، وانه يتزود بالاسلحة المتقنة ، ويشيد القلاع ، ويصنع البارود ، هو من نوع الخيال الصرف ، واني اقسم بالله العظيم ان هذه الاشاعات لا ترتكز على شيء بل على العكس من ذلك فإن الشيخ قد أمر القبائل بالخضوع لرؤسائها ودفع الضرائب ،وقد قيل ايضا : ان الشيخ عدو لدود لجميع فروع الديانة المسيحية ، واني اقسم بالله بأن هذا من الاكاذيب ، وهذه الادعاءات مصدرها اقوال بعض الاوروبيين الذين لا يصرحون بالحقيقة ، والذين يتسكعون في مواني الشاطىء ، او تعصب بعض اخوان الطريقة الجهلاء الذين لا يعرفون الشيخ الا بالسماع .

---

71) لا يزال سكان الجنوب الغربي التونسي يطلقون على الواحة الصغيرة اسم « الجزيرة »

وقد علم الشيخ ذات يوم ان احد هؤلاء الاخوان ينشر الخبر بأنه المهدي المنتظر الذي يأتي آخر الحياة الدنيا فأسرع بإرسال من يأتيه به ولامه لوما عنيفا قائلا : أنا المهدي ، واذا ما أعدت هذا الكلام انت او غيرك فلن اتردد في عقابك .

والحقيقة ــ من خلال ما لاحظته بنفسي ــ هي ان شخصية الشيخ الظاهرية ، وروح الله التي حلت فيه ، يؤثران في الشعب تأثيرا لا مثيل له ، ويخضعانه بصفة مطلقة لارادته ، وهكذا خضع لسلطته سكان الصحراء الوسطى واهل غات وقسم من سكان السودان واهل برنو ووداي وبرقة الحمراء ، وبرقة البيضاء والجبل الاخضر وبنغازي وفزان وقسم كبير من سكان طرابلس وقبائل توات وبعض التوارق وجميع الحجاز واليمن ، واقصى جهات العراق ، وقسم من مصر والشام الخ ، وأما شعوب السودان فهي تواصل اعتناق الطريقة .

ومما يستحق الذكر ان الاخوان يطيعون اوامر الشيخ طاعة عمياء وبأمر منه يندفع جميعهم للموت ، لكنه لا يأمرهم بغير الصلاة وطاعة الله والرسول ، وهو لا يظهر قوته التي هي اعظم من قوة ملك او امير ، وهو يبقى بمعزل عن المسائل السياسية ، ولا يظهر تفضيلا لحكومة على اخرى ، ويتجنب كل اعتبارات من هذا النوع ، لكنه يرشد البشر الى طريق الله ، ويسعى في الجهات التي استقرت فيها طائفته في نشر العدل والسلام .

وهو يرسل الاخوان المختارين من بين العلماء منهم الى القبائل الوثنية ليعرف بكتاب الله ويعلمهم ــ في رفق ــ الدين الحق ، وهكذا تصرف في المدة الاخيرة مع رابح الذي تسلط على (برنو) وطغى فيها ، فأرسل له سيدي محمد السنوسي (72) هو من اكثر الاخوان اعتبارا ليدعوه الى

72) هكذا في الترجمة الفرنسية وقد سماه المؤلف قبل هذا : محمد السني وهو الصحيح ، ولا شك ان السنوسي خطأ مطبعي .

الصراط المستقيم ، وامر القبائل العربية بالبقاء خاضعة الى رؤسائها ، وتتلقى منه القبائل التي لا تمتثل لاوامره توبيخا عنيفا .

وهو لا يكاتب القبائل والعشائر ولا الامراء والاعيان ليجلبهم الى طريقته ، ولا يؤكد كذلك ان طريقته هي افضل الطرق الموجودة الا اذا ما خاطب قبيلة وثنية ارتكبت تحديات في الصحراء . وليس لدى الشيخ من سلاح سوى ما يملكه ـــ عادة ـــ غني او شيخ كبير في قومه فهو يملك خمس غدارات صغيرة وست طبنجات ، وسبعة سيوف ، وثماني بنادق من الطراز العتيق ، وبندقيتين أو ثلاثا من الطراز الحديث ، وهذا كل سلاحه وسلاح عائلته ، ويملك ستة خيول منها اربع افراس (إناث)

وبجواره حداد يصنع له الادوات الفلاحية ، ورجل من غدامس يصنع القدور النحاسية ويصلحها ويبيضها بالقصدير ، ومسفر يجلد له كتبه ، وهذه هي كل الصنائع التي توجد لديه . فليس من الصحيح اذن ، مثلما يزعمون ـــ ان لديه طبيبا بيطريا ، ومهندسا وبناء ونجارا وصانع اسلحة الخ ، وحينما تكون احدى ساعاته الصغيرة او المنبهة التي تصلح لتعيين وقت الصلاة في حاجة الى الاصلاح يرسلها الى بنغازي .

وليس لديه ـــ كذلك ـــ نساج او حرائري ولا صباغ ولا مصفح دواب ولا بستاني ولا أي صانع يساعد الشيخ على بلوغ درجة معينة من الرفاهية والسلطة ولا أي شيء يمكن ان يسمح بالاعتقاد بأنه يعتبر نفسه ملكا او اميرا .

وهو لا يخاطب الرحالة بلغة يظهر منها التعصب ، فهم لا يسمعون منه سوى الادعية التي يطلب بها الله أن يباركهم في هذه الدنيا وفي الدار الاخرة ، وغالبا ما يقف امامه اناس لهم قضايا لم يقع فصلها فإذا ما تعلق الأمر بقضية تهم الحكومة أرسلهم الى باشا بنغازي ، والاشخاص الذين يكرههم اكثر ، هم اولئك الذين يغتابون المسلمين أمامه .

وتنطبق تسمية الاخوان على كل شخص يعتنق طريقة الشيخ السنوسي ، ويلتزم بورده (73) وتسمى هذه الطريقة : الطريقة المحمدية ، وبهذه التسمية ينعتها الشيخ في كتابه حول الطرائق الاربعين (74) ، ويقال هذا أخ ويعني ذلك انه يعتنق الطريقة السنوسية .

وتوجد اربعة اصناف من الاخوان : منهم الذين يحتلون ارفع مكانة في العلوم ويسمون المجتهدين ومن بينهم العلامة الشيخ سيدي محمد (75) الريفي اكبر المجتهدين وتلميذ الشيخ الكبير ويقطن الان جغبوب وينبغي اعتبار سيدي الفالح ضمن هذا الصنف ، وفي الصنف الثاني يجب ان يذكر سيدي محمد بوسيف وهو واحد من افضل ادباء عصره ، والشيخ سيدي هاشم الذي علم القرآن لسيدي المهدي ، وسيدي مدين (76) وجميع هؤلاء العلماء اصيلو المغرب او تونس او الجزائر ، ويوجد في الصنف الثالث سيدي محمد التواتي ، وسيدي محمد البسكري ، ويشمل الصنف الرابع بقية الاخوان من عرب وغيرهم الذين يحفظون القرآن الكريم ولهم بعض المعرفة بالعلوم العقلية وفقه العبادات .

وجميع هؤلاء الاخوان متحدون في الشعور بالحب للشيخ وهم يحرمون على انفسهم استعمال التبغ وأشياء اخرى متنوعة ، ولكنهم مثلما سأذكر فيما بعد ــ لا يمتنعون اطلاقا من شرب الشاي وهم لا يعترفون بواسطة اخرى بينهم وبين الله ورسوله غير شيخهم ويحب بعضهم بعضا ، ويدافع بعضهم عن بعض ، ويتجنبون ان تمس كرامة احدهم امام الاخرين وبما ان بعضهم يحمي بعضا فلا يلحق باحدهم أقل ضرر في بلاد يوجد فيها الاخوان ، ولهذا السبب لايرى أي فقير بينهم .

---

73) الورد هو مجموعة عقائد واعمال وصلوات خاصة بنظام ديني (المترجمان)

74) اسم الكتاب (السلسبيل المعين في ذكر الطرائق الاربعين)

75) سماه في السابق : احمد

76) هكذا في الاصل الفرنسي ، ويظهر انه خطأ والمقصود هو سيدي الشريف شقيق سيدي المهدي ، وكان المؤلف أشار في السابق الى ان الاخوين تعلما القرآن على الشيخ هاشم المذكور .

. والاخوان يقسمون انفسهم جيدا في الحياة والتمتع في هذه الارض ، فيأكلون ويشربون كل صباح ولا يتخذون هيئة الزهاد من ملابس مهملة وتعليق السبح في الرقبة بدل حملها في اليد ، وتبعا لتوصية اوصاهم بها الشيخ الكبير فانهم يظهرون شيئا من الاعتزاز في اعداد الشاي بعد الاكل . ويعتبرون هذا الشراب معينا على السهر للعمل الفكري ، وقد كان الشاي بينهم موضوع عدة اشعار ، وقد جمعت منها الكثير مما كان الاخوان ينشدونه في اجتماعاتهم الليلية وخاصة القصيدة التالية التي لم يذكر لي قائلها ولكنها من اشهر القصائد واكثرها اعتبارا (77) :

دعوا شربكم للخمر فالخمر مسكر ... وفي الشرع كل المسكرات حرام
وهيموا بشربكم اتاي فإنه ... حلال وليس في الحلال ملام
وكونوا عليه مدمنين لانه ... شفاء النفوس ان عراها سقام
يثير نشاطا يبسط اليد بالندى ... فمن ثم كل شاربيه كرام
ويكشف غم النفس سرا وجهرة ... ويوقظ جفن الانس حين ينام
ويكسو الوجوه حمرة ونعومة ... كأن بها وردا سقاه غمام
ويصقل جوهر العقول لطافة ... فيكشف عنها في الفهوم ظلام
ويدفع نتن الانف والفم دائما ... فطابت به ذات وطاب كلام
ويمنع من حر الظما ويدر ما ... من البول في احتباسه لك سام
ولو ان في الامعاء ريحا تعقدت ... يحللها بالطبع حيث يرام
وافعاله في الهضم حدث بها ولا ... تخف لومة اللوام فهي عظام
يوافق جملة الطباع ملطخا ... بتعديله فكان فيه قوام
فإن شئت فاصطبح وان شئت فاغتبق ... به فله في الحالتين نظام
الى غير هذا من منافع جربت ... وقال بها في السالفين إمام

77) فضلنا ان ننقل نص القصيد من حاشية ابن الحاج المشهور بابن حمدون على ميارة ج 2 ص 148 — 149 ط الاميرية — بولاق ، على مافيه من زحافات وعلل عروضية وتكلف في التعبير وهي من نظم سليمان الحوات حسبما جاء في المرجع المذكور .

وآدابه شتى ويزداد حسنه اذا رق ندمان ورقت جام
هو النعمة الكبرى على كل شارب واكسيره لا قهوة ومدام
ومذهبنا ان لا يشاب بغيره سوى العنبر الشحري فهو ختام

ويلبس الاخوان لباسا مترفا فيرتدون الحائك الجريدي من الصنف الرفيع ولحافا منوعا يباع لهم كأنه مورد من تونس ، وأيضا اقمشة من حرير الهند وشـواشي تـونسية ، وفي الجملة فانهم يلبسون كالتونسيين ، لا كما يصورهم بعض الرسامين في الكتب المطبوعة في اوروبا ، وقد رأيت كتابا لاحد المكتشفين سلمه اليّ المركيز دي موريس قبل رحيلي يظهرون فيه في زي مصري ، وهو خطأ فظيع ، ويعطرون اجسادهم بالعطورات وملابسهم بالعنبر ، وفي المدة الأخيرة تلقوا ماء الكولونيا فبدا لهم هذا السائل مشكوكا في حليته ، وسألوني ان كان مستعملا عند العلماء المسلمين في تونس فأجبتهم ان بعضهم يعتبر هذا المزيج شيئا نقيا ولكن غيرهم يحرمون استعماله مبالغة في التدين وتزمتا وخلاصة القول ان المواد العطرة لها اعتبار كبير عند الاخوان ، وهكذا ينبغي للانسان بينهم ان يشرب دائما ثلاث كؤوس من الشاي بعد الطعام ، ولا يشربه الميسرون منهم الا بالعنبر .

وشيوخ الزوايا يتمتعون بتقدير عظيم لدى الشيخ الكبير ، وسأذكر من بينهم فقط الشيخ سيدي السنوسي العشاب . شيخ زاوية مسوس (؟) وسيدي أحمد علي عبد المولى شيخ زاوية شخنب ، وسيدي ابراهيم الغماري شيخ زاوية دريانة ، وسيدي عبد القادر الجيلاني شيخ زاوية تميتسة ، وسيدي عبد القادر الشريف شيخ زاوية توكره ، وسيدي مصطفى المحجوب شيخ زاوية الطليمون ، ومحمد التواتي شيخ زاوية المرج ، وسيدي محمد بن ابراهيم شيخ زاوية البيضاء ، وسيدي ابن ادريس شيخ زاوية مارة (78) وسيدي عبد اللطيف شيخ زاوية القطيفة ، وسيدي

78) لعله أحمد بن ادريس احد تلاميذ الشيخ الكبير والذي نشر الطريقة بالحجاز واليمن .

حسن الغرياني شيخ زاوية دفنة ، وسيدي محمد بن اسماعيل شيخ زاوية زلة ، وسيدي محمد بن شفيع شيخ زاوية جالو ، وسيدي عبد الكريم شيخ زاوية الشخرة .

وخلاصة القول ان الشيخ يملك في بلاد بنغازي وحدها 300 زاوية لم اذكر منها الا البعض ويجتمع الاخوان في هذه الزاويا بعد صلاة الجمع ويقرأون جزءا من القرآن ثم الاوراد ، وهي على ثلاثة انواع : الصغير والكبير والمتوسط ، فالصغير هو على هذا الشكل :

استغفر الله (تعاد مائة مرة)

لا اله الا الله محمد رسول الله وصلى الله على سيدنا محمد في كل نظرة وفي كل نفس عددا لاتحصى كعلم الله (تعاد مائة مرة) .

اللهم بارك وصل على سيدنا محمد النبيء الامي وعلى آله وصحبه (تعاد مائة مرة)

ويوجد ايضا ورد كبير وورد متوسط ، والورد الصغير الذي ذكرته اجباري مرة في كل 24 ساعة بالنسبة لكل شخص معتنق الطريقة .

وتقع المحافظة على جميع زوايا الشيخ واهمها زاوية جغبوب وتقدم فيها الضيافات الواسعة ، ويعلم فيها القرآن ومبادىء العلوم ، ولها احباس وعقارات هي في الغالب مزارع نخيل ، ولزاوية مرزق وحدها 20،000 نخلة ، وشيخ الزاوية مكلف بالتصرف في العقارات وهو يرسل في بداية كل سنة للشيخ الكبير حساب الدخل والخرج .

وكذلك محصول الفتوحات (الهبات) التي تلقاها لحساب الزاوية .

وليس للاخوان تكبر ، وهم يعيشون ببساطة ، ويؤمنون بجميع الكرامات التي ظهرت على ايدي الاولياء ، ولا ينقطعون عن قراءة القرآن

ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وعندما يجتمعون لا يتحدثون الا عن الاحاديث النبوية ويتذاكرون سير الاولياء الذين مروا بهذه الدنيا وكذلك كراماتهم وكل معتنق لهذه الطريقة لايموت الا غنيا وعلى حسن الخاتمة .

وكنت ذكرت انهم يلبسون كالتونسيين الا ان احذيتهم مطرزة بالحرير ويتكلمون نفس اللهجة التونسية ، ويحبون اللهو والدعابات البريئة وقد زرت عددا كبيرا من زواياهم ، وربطت علاقات مع عدد كبير من اعيانهم فلم ار غير وجوه مشرقة باسمة تستقبلني بود وترحيب جازاهم الله خيرا .

والشخصيات المعتبرة تتجنب التداخل فيما لا يعنيها ، وتتهرب من المناقشات السياسية كما لو كانت هذه المواضيع محرمة عليهم ، وفعلا فإن الشيخ اذا علم ان احد الاخوان يشتغل بهذه المسائل ، سارع بتوبيخه ، وأغلبهم يقوم بالتجارة مع اهل السودان ومصر وتوات .

وليس من الصحيح اطلاقا ـــ مثلما قيل احيانا ـــ ان الشيخ لا ينتمي الى المذهب المالكي ، والنقط الوحيدة التي يخالف فيها اخوان الطريقة بقية المالكية هي الاتية : جهرهم خلال الصلاة بالبسملة وقراءة شيء من القرآن بين الرفع من الركوع والسجود ، وقبض أيديهم بدل بسطها مطلقة مع الجنبين .

ومن يحمل هدية الى الشيخ سيدي المهدي يتلقى هدية اخرى مقابلها .

ويلبس الشيخ الشاشية التونسية تحتها عراقية (طاقية) بيضاء ترى اطرافها تحت دائرة الشاشية ويلف حولها عمامة فيها ارتخاء (79) ذات

79) يظهر انها من النوع المعروف في الجنوب التونسي بـ (الزمالة)

اربع دوائر ، ثم يلبس قميص وقفطانا شبيها بلباس اهل الاسكندرية ، ويضع فوق ذلك حائكا تونسيا من الجريد او مغربيا لا حرير فيه ، وبرنسا جريديا ، وينتعل بلغة فاسية (80) ، هذا هو لباسه .

وأما خدمه وعبيده فيلبسون اقمشة متنوعة الالوان ، وهو يملك اكثر من مائتي عبد ، وهؤلاء العبيد هم الذين يقدمون للزائرين الاطعمة التي يقدمها اليهم الشيخ .

وكل زائر يستضاف لمدة ثلاثة أيام فيأكل في اليوم الاول ارزا مهيئا بلحم الابل ، وفي اليوم الثاني يأكل طبقا يسمى العيش ويتركب من القمح والشعير وقليل من اللحم ، ويقدم له في اليوم الثالث التمر ، وبعد ذلك ، اذا بقي الزائرون اكثر من ثلاثة أيام — يكونون ملزمين بالحصول على طعامهم بأنفسهم .

ويهيء الشيخ نفسه لاستقبال الزائرين ، ولا احد في الواقع ، يأتي لزيارته بغير اذنه ،فيخرج احد عبيده لاعلام القبيلة الراغبة في زيارته ، وتستقبل القبائل بالتداول ، ويبدأ بالقبائل الواصلة اولا فتدخل — ويسبقها العبد — الى المكان الذي يوجد فيه الشيخ ، ويكون الشيخ واقفا مطاطىء الرأس ، فإذا ما حاول احدهم ان يقبل يده ، يمنعه من ذلك ، ويسأل الشيخ الزوار عن وضعهم في الحياة ، ثم يرفع رأسه ويدعو لهم ، ويرفع بعد ذلك كفيه ليقرأ معهم الفاتحة ، ثم يمرون امامه .

توجد علاقات مستمرة بين الشيخ وسيدي يوسف ملك وداي وهو مريد له اعتبار وتقدير لدى الشيخ ، وفي كل سنة يرسل الملك هدية هامة ، أي عبيدا يتجاوز عددهم المائة ، وريش نعام ، وناب فيل ،

80) هذه البلغة شبيهة بالبلغة التونسية وهي مصنوعة من الجلد الاصفر ، ولكن مقدمها اكثر تغطية للرجل ، وهي ذات اقدام مزدوجة (المترجمان)

وكل ذلك بقيمة 50،000 بوطيرة (150،000 فرنك) وربما أكثر من ذلك .

وعندما كنت في مرزق علمت ، عن طريق تاجر يدعى أحمد التازي ان ملك وداي في هذه المدة الاخيرة قد اصبح يتخوف من جانب الشيخ لان بعض اعداء الشيخ قالوا له : ان الشيخ لم يتقرب منه الا رغبة في تملك وداي ، وقد نسبت انا هذه القصة الى مكيدة انكليزية ولا اعلم ماذا كانت نتيجتها .

والشيخ المهدي ابيض البشرة وهو ذو قامة تفوق المتوسط ووجهه اقرب الى الشكل المستدير من البيضوي ، وابيض عينيه ناصع ، واسودهما قاتم ، وذراعاه كثيرا الشعر وفي وسط لحيته شعرات بيضاء وانفه مستقيم وارنبته مرتفعة ، وهو جميل الهيئة ، وشخصيته تنم عن الهدوء وتوحي بالاحترام .

الفصل الرابع

من الكفرة الى غات

الرحيل عن الكفرة ــ الوصول الى ودان ــ معلومات عن المدينة وسكانها ــ خبر سيف النصر ــ الطريق من ودان الى مرزق ــ وصول والي فزان الجديد الى مرزق ــ الطريق من مرزق الى غات ــ إصابة المؤلف عند وصوله الى غات بجرح خطير في الركبة نتيجة سقوطه من ظهر جمل ــ اضطراره للرجوع الى مرزق للمعالجة .

في صباح 30 جويلية 1896 م (1314 هـ) ودعت الاخوان والشيخ سيدي المهدي وذكرت اني ارغب في الذهاب الى غات لاتمام المهمة التي حدثته عنها فدعا الله ان يوصلني الى غاية رحلتي ، وكتب في شأني الى سيدي احمد المختار شيخ الطريقة الكبير بمرزق وانطلقت بعد ذلك صحبة عثمان الذي كنت تحدثت عنه ، وابن اخيه متوجها نحو مدينة ودان قاطعا الطريق التي سلكتها سابقا،وهي ــ على كل ــ ايسر الطرق وأكثرها ماء .

وفي مدة تسعة عشر يوما أي يوم 18 أوت وصلنا إلى ودان سالمين فأستقبلنا سكان المدينة بفرح وأقمت عند زنجي اصله شريف يدعى الامين بن عبد الملك ، وهو أكثر الناس اعتبارا في المنطقة ، ويحيط النخيل بودان من جميع الجهات ، وهي واقعة على قمة هضبة عالية تدعى (كارا) (1) والارض فيها رملية والماء من الصنف الرديء يسبب الاسهال .

1) لفظة تركية تعنى الأسود (المترجمان) بل لعلها كلمة عربية (قارة) وهي ربوة ذات رمل واشجار .

ويعود نسب أغلب السكان الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وذلك مشهور ، وكل غريب يصل ودان يستقبل بالاكرام ، وخاصة اذا كان من سلالة الرسول او دارسا للعلوم .

والاعيان هم : الامين بن عبد الملك ، وعبد الملك بن عبد الهادي بن (؟) وكولان بن عبد الله ـــ ومحمد بن حسين بن احمد ـــ ومحمد بن عبد اللطيف بن علي الذي ظنني مسيحيا متنكرا ـــ وابنه عبد اللطيف ـــ وسي بوبكر بن احمد شيخ الزاوية السنوسية بهذه المدينة ، وهو رجل شديد الذكاء ولكنه مكفوف البصر ، وجميع هؤلاء الناس ينتسبون الى الرسول (صلى الله عليه وسلم)

وينبغي ذكر التاجر محمد بن فقيه من بين الاعيان الذين ليس لهم نفس الاصل الشريف .

وتشمل ودان ما يقارب 300 منزلا ، وهي مبنية بالطين ، ويوجد فيها ايضا مسجد كبير ، وتوجد هذه المدينة على مسافة يوم ونصف من بلد (سوكنة) ، ويوم واحد من بلد (هون) ، ويجمع هذه المدن الثلاث اسم بلاد الجفرة .

وفي ودان توجد عدة اطلال رومانية ، وقد أتاني أحدهم بحجارة كريمة رومانية تحمل صورة رجل واقف فلم ارغب في قبولها حتى لا يظن اني مسيحي لان سكان هذه البلاد يعتبرون أي شخص يبحث عن هذه الاشياء العتيقة انما يكن ودا للاوروبيين .

وقد طلبوا مني ان اقرأ عليهم بعض الاحاديث وجزءا من القرآن ، فالقيت عليهم درسا حول قسم من كتاب الامام مالك (الموطأ) ، وقرأت معهم سورتي يوسف ومريم ، وقرأت لهم اثر ذلك (مولد البرزنجي) ، وفسرت لهم الآية : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت

ويطهركم تطهيرا) وكان معي كثير من الكتب الهامة في مواد مختلفة .

ثم سألوني الى أي بلد أريد الذهاب ؟ فأجبتهم بأني أريد الذهاب الى غات ومرزق ، وطلبت منهم ان يؤجروا لي بعض الجمال للرحيل ، ولكنهم ألحّوا في بقائي ، فأصررت على الرحيل ، ومدحت خصالهم ببعض الابيات الشعرية ، وعندها اجتمع الاعيان واكتروا لي ثلاثة جمال من علي ابن زيد التمّامي واخيه البهلول ثم كتبوا عدة رسائل توصية بي الى أعيان مرزق : سي موسى بن عثمان ، وسالم البالح (؟) ، وسيدي احمد المختار امام وعالم مرزق ، وهو ايضا شيخ شيوخ الطريقة السنوسية وكانت معي ايضا رسالة توصية لهذا الاخير ، وأخذت أيضا رسالتين من الشيخ سيدي عبد اللطيف التمّامي قاضي قبيلة التمامة ، والشيخ سيدي سيف النصر (2) حاكم هذه القبيلة التي نصبت خيامها قرب ودان .

وفي ليلة اليوم المقرر لرحيلي وصلت قافلة من بلد بني وليد من المناطق الطرابلسية للتزو د ببعض التمور من ودان ، فطلبت من رئيس هذه القافلة علي بن عثمان الذي جاء للتحدث معنا ، معلومات عن البلاد ، وعن المنطقة الطرابلسية فأجابني بأن الثقة والامن يعمان كل مكان ولكن البلاد في أشد الحاجة الى المطر ، ثم سألني عن البلاد التي جئت منها ، وعن سبب قدومي الى ودان فأجبته بأني اتيت للتجارة ، واني اريد الذهاب الى غات ، فتعجب وقال لي : انه سمع بأن اهل تونس غير قادرين على السفر في الصحراء ، وبأنهم أناس لهم لطف وقبول (؟) ولكنهم لا يتحملون التعب ولا فراق عشيرتهم ، واضاف علي بن عثمان : « لقد سمعت منذ زمن ان قافلة مكونة من بعض التونسيين والغدامسية وفرنسي ، خرجت من تونس فلما وصلوا قرب غدامس الى مكان يسمى (بئر الوطية) هاجمتهم قبيلة من الشعانبة وبعض التوارق فقتلوهم لنهب

2) توفي سيف النصر بن عبد الجليل بن سيف النصر سنة 1926 وخلف اولادا اشتهروا في الجهاد الليبي اشهرهم حمد سيف النصر ، وعبد الجليل سيف النصر .

ماعندهم ، وكانوا في طريقهم إلى غات قصد التجارة » .

فلما سمعت هذا الحديث ــ ورغم ان علي بن عثمان لم يذكر أي جزئية ــ احسست بانفعال شديد ، واوشكت على الاغماء ، وفكرت أولا في ان لا اواصل رحلتي ، لشدة تألمي ، ثم بدأت اشك في صحة هذا الخبر لان المسيو دي موريس قرر الذهاب الى غات عن طريق تماسين (بالجزائر) ولا عن طريق الوطية والحدود الطرابلسية ، فتشجعت وقررت الرحيل الى غات .

اريد التحدث هنا عن سيف النصر بن عبد الجليل بن سيف النصر الذي كان جده المسمى باسمه حاكما على جميع منطقة فزان ، وخلفه عمه (3) عبد الجليل الذي ثار ضد الاتراك وحاربهم عدة سنوات ، كما هزم ــ قبيلة ورفلة وبعض جيوش الاتراك في عهد يوسف باشا (4) ثم قبض عليه الاتراك بمعونة العرب وقتلوه ، واخذوا رأسه الى طرابلس ، ولم يبق من سلالته الا سيف النصر الذي ربي في الصحراء في قبيلة اولاد سليمان ابناء عمه ، ولما كبر تبعته قبائل التمامة والميايس والشريدات والحواة أو الهواة والصهب، والعمامرة، والقذاذفة ، وجزء كبير من قبيلة ورفلة فأصبح رئيسا لهذه القبائل التي تعترف بسلطته وتطيعه بصفة مطلقة ، ومانفك تأثير هذا الرئيس في الزيادة والانتشار ، وبامكانه ــ اذا اراد ــ التصرف في قبائل طرابلس والتوازين (؟) وفي سنة 1892 م اغار على قبيلة الحسون التابعة للاتراك واخذ منهم ألف بعير تقريبا ، وعندما طارده الاتراك دخل الى الصحراء ، وهو مصدر خوف كبير لحكومة طرابلس .

المعايسة

الهوارة

---

3) هكذا في الترجمة وقد ذكر قبل هذا ان عبد الجليل ابوه

4) يوسف باشا القرمانلي ، تولى الحكم في طرابلس 1211 هـ 1796 م وكان عهده كله ثورات وانتفاضات وتنازل عن الحكم لابنه علي القرمانلي 1248 هـ 1832 م

وتذهب القبائل التي يحكمها مرة في السنة الى غات والقطرون للتزود بالتمور ، ولها علاقـات عائلية مع كـانم قرب برنو ، وهناك احتمت هذه القبائل لما قتل الاتراك عبد الجليل عم سيف النصر ، وتتكلم هذه القبائل اللغة العربية الفصيحة ، وفي الخريف تستقر هذه القبائل في حدود بلاد ودان للحصول على التمر ، وتقع ارضهم جنوب طرابلس على مسافة ثلاثين يوما مشيا على الاقدام ، وهي بدون ماء وغير منتجة الا بعض الاماكن المسماة بالهطية (5) اين توجد مراع صغيرة للابل مع بعض الغدران شديدة الملوحة والمرارة ، وتحد اراضيهم من القبلة الصحراء الشرقية ، ومن الغرب فزان ، ومن الشمال بلاد سرت ، ومن الشرق بلاد برقة البيضاء ، واهل هذه القبائل يكنون كثيرا من الاحترام والتقدير لنسائهم فعندما يأكلون التمر يقدمون لنسائهم أجوده ، وهذا لا يعرفه اهل مرزق الذين يتزوجون النساء بخمسة فرنكات ويعاملوهن بقدر هذا المبلغ ، وقد سمعت هذه القبائل بالأمة الفرنسية وعلموا انها تعامل العرب بالعدل ، وانها غنية ، وقد تحصلوا على هذه المعلومات من سكان فزان الذين يذهبون للعمل في الممتلكات الفرنسية بالبلاد التونسية خاصة في غراسة العنب ، ويعودون الى بلادهم بشيء من المال ، لذلك نرى هؤلاء العمال محل تقدير كبير عند اهل فزان .

ويتحدث اهل القبائل التي اشرت إليها بصورة جيدة ، وهم في نفس الوقت شجعان ، فقد قرروا — اذا ما قتل احدهم — او سرق متاعه ان يغيروا على القبيلة المذنبة ، وقد اعتزموا محاربة التوارق ، ولكن المسافة التي تفصلهم عنهم جعلتهم يعدلون عن رأيهم ، ولكني اظن انهم اذا مادخلوا يوما في حرب مع التوارق فإن هؤلاء سيخرجون من الحرب منهزمين ..؟ وهذا النزاع سيحدث بلا شك اما قريبا او بعيدا ، حسبما سمعت عن مساوى وشرور التوارق حين وجودي لدى سيف النصر ..

5) كلمة تطلق على الكثبان التي توجد فوقها بعض النباتات والاشجار (المترجمان)

ان الاماكن التي يسكنونها تسمى : سقط اللوى ـــ حزوى ـــ الابرق الخ وهي اسماء منقولة عن اماكن بالحجاز ، وعن بعض بلدان الجزيرة العربية .

وفي 20 أوت ودعت سكان ودان وتوجهت الى بلاد (الزيغن) باقليم فزان وقضينا الليلة الاولى قرب عين ماء في جبل (زاكم) ثم رحلنا صباحا ، وبتنا في جبل (السوداء) ، وهذه الجبال الشاهقة اشد سوادا من القطران ، ولا تنبت شيئا ، وهي مقسمة بعدة أودية جافة ، تنبت الطلح والسعدان وهو نبات تحبه الابل ، وسرنا ثلاثة أيام في هذه الاودية والجبال ، وفي اليوم الرابع دخلنا بسيطا متسعا يسمى (القاف) وهو صحراء بدون ماء ولا مرعى حيث يوجد كثير من الغزال والنعام ، وقطعنا هذا البسيط في ثلاثين ساعة دون ان ننزل من ظهور الابل ولما وصلنا الى مكان يسمى (عبيدة) وجدنا عينا من الماء الصافي وكان العطش قد اخذ منا كل مأخذ وهناك قضينا ليلة جميلة ، عند طلوع الشمس واصلنا السير فوصلنا قبل منتصف النهار الى بلاد (زيغن) حيث استرحنا مدة يومين .

وتوجد هنالك قرية متكونة من 150 منزلا مبنية بالجبس والجير ونرى هناك كثيرا من النخل وسكان هاته القرية يحبون الغرباء وهم يتعاطون الزراعة بفضل ماء المطر .

وفي صباح يوم 27 أوت ارتحلنا ، وقضينا الليل في بلد (سمنو) وهي قرية اقل اهمية من (زيغن) ، وغادرناها في اليوم الموالي وبتنا في الهطية ، وفي الايام الموالية بتنا على التوالي : في القرضة وسبها ، وطلحة ، واخيرا (بير **الوشقة**) التي تتزود منها القوافل بالماء ، فقضينا هناك ليلة ، وفي مساء اليوم الموالي خيمنا بـ(**غدرة**) حيث توجد واحة في واد يجري ماؤه الصافي الرقراق على التراب ، وفي مرحلة اخرى وصلنا الى (سريرة) وهي منطقة

صحراوية ، قضينا الليلة الموالية في (دليم) وهي واحة لها مراع ترعى فيها ابل القوافل وابل التوارق في طريقهم الى مرزق ، ورحلنا من هناك فوصلنا الى مرزق في يوم 5 سبتمبر 1896 على الساعة العاشرة صباحا .

ذهبت مباشرة الى الزاوية السنوسية ، وقد علموا بقدومي ، وتسلموا توصيات بي من الشيخ الكبير .

وسكان مرزق كلهم سنوسيو الطريقة وحصل لي الشرف بمقابلة شيخ الشيوخ سيدي احمد المختار الذي وجدته بالزاوية بصدد تفسير كتاب (كفاية الطالب) لسيدي عبد الله بن ابي زيد القيرواني (6) ولما انتهى من درسه استقبلني بحفاوة هو وكل الاخوان ، ووجدوا لي في الحال محل سكنى يتكون من سفلي وطابق اول على ملك محمد بشالة من طرابلس مقابل 15 قرشا (3 فرنكات) في الشهر ، وفي صبيحة اليوم الموالي خرجت للقيام بجولة وسط المدينة التي وجدتها ملئانة بالتوارق وبعض اعيان قبيلة (تبو) الكبيرة وبعد يومين من نزولي بمرزق وصل من طرابلس المتصرف الجديد لفزان (أحمد الانوري) (7) اصيل بغداد ، وبعد ان صلى بالناس بعد الظهر (8) خرج من الجامع الكبير ، صحبة قائد الجند وامين المالية وقاضي البلد وعدد من السكان ووقفوا أمام باب الثكنة العسكرية ، حيث كانت العساكر مصطفة وموسيقى الزنوج المسماة (دندنة) تصدع بألحانها العذبة ، وقرىء فرمان تولية الباشا أحمد الانوري متصرفا بفزان ثم تقدم القاضي علي رضا وتلا خطابا بالعربية يدعو فيه بالخير للمتصرف والسلطان والشعب ، وبعد ذلك زار المتصرف زاوية

---

6) الفقيه المشهور ، علم من اعلام المذهب المالكي ، ألف كتبا عديدة اشهرها النوادر والزيادات على المدونة ومختصر المدونة ، وكفاية الطالب المشهور بالرسالة وقد ألفه وعمره 17 سنة وتوفي بالقيرواز 386 هـ 996 م عن 76 عاما ودفن بداره وقبره مشهور مزار .

7) في جلاء الكرب : أحمد أنور

8) في جلاء الكرب : بعد صلاة العصر

الشيخ السنوسي ، وكنت انا هناك في ذلك الوقت فطلب مني الاخوان وسيدي احمد المختار نظم بعض الابيات الشعرية في تهنئة المتصرف فكتبت في الحال مقطوعة صغيرة (9) قدمتها لسيدي احمد المختار فقرأها بعد ان دعا للسلطان ، ثم ارسل المتصرف هذه المقطوعة للقاضي فكتبت بخط شرقي جميل واعجبت كثيرا اهل البلد .

وفي مساء نفس اليوم زارني القاضي في مسكني وكان مصحوبا بقائد الجيش لان سيدي مختار قدمني للسلط بأنني رجل عظيم ، وهذا القاضي الذي لا يتجاوز سنه الاربعين (10) اصيل القسطنطينية ، وهو يحسن العربية والفرنسية الى جانب اتقانه اللغة التركية ، وهو يقدر كثيرا الامة الفرنسية لخصالها النبيلة ويتقاضى هذا الموظف راتبا يساوي تقريبا ألف فرنك في الشهر ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لهذا البلد ، وقد ربطتني به صداقة متينة — حسبما سأتحدث عنه فيما بعد .

وبعد الاستراحة في **مرزق** اربعة ايام اكتريت ثلاثة جمال من تارقي يسمى (سنوسي) ورحلت صحبة ابنه ، ومعي رسائل توصية من سيدي أحمد المختار الى شيخ زاوية غات ، فكان رحيلي يوم 10 سبتمبر في الصباح الباكر ولم يعلم بهذا الرحيل الا الشيخ ، وقضينا الليلة الأولى بـ(تساوة) وخيمنا في مساء اليوم الثاني في صحراء لا تحمل اسما ، وفي مرحلة اخرى وصلنا الى (وادي الغربي) حيث لا يوجد ماء ، وقضينا الليلة الرابعة في (اباري) م دخلنا منطقة تسمى (تيتة) حيث لا يوجد ماء ولا مرعى ، وبعد اربعة ايام من السير في هذه الصحراء وصلنا الى بلد

9)هي ثمانية أبيات من النظم الهزيل شكلا ومضمونا أثبتها في جلاء الكرب ص 81 اولها

اادار من الهنـــــا كأس السرور ... قدومك للبـــلاد بكـــل خير
قدوم في ربيــــع كالربيــــع ... ونـــور لاح في نور الشهـــور
تبسمت البـــلاد بكـــم وأمست ... تجر ذيـــول اثـــواب الحبـــور الخ

10) في جلاء الكرب : 35 سنة

(العوينات) اين وجدنا آبارا وعيونا ونخيلا ، وهذا المكان يسكنه توارق (ازقر) وارتحلنا من هنالك فوصلنا بعد اربعة ايام من السير الى غات التي وصلناها ليلا .

وقبل ليلة من وصولي الى غات ، بينما كنا نسير في ارض حجرية عثر جملي فسقطت على ركبتي اليسرى التي انتفخت سريعا ، وقضيت الليلة الاولى بمنزل شيخ الطريقة السنوسية سيدي عبد الرزاق الذي عالج ركبتي بدواء متركب من (زهم) النعام (11) وواصل علاجي بذلك ، وفي اليوم الموالي جاء لزيارتي عالم المكان الشيخ محمد التبني والوجيه سيدي ايوب باي الانصاري فطلبت من هذا الاخير معلومات مختلفة عن غات وعن التوارق ، وسيدي ايوب هذا هو ابن احدى عمات المرحوم الحاج علي الثني ، وقد وجدته (أي ايوب) متأثرا كثيرا لموت ابن خاله .

وبما ان ركبتي ازدادات انتفاخا اضطررت لملازمة الفراش وحين رأوني في تلك الحالة نصحوني بالرجوع الى مرزق لكي اجد الطبيب والدواء ، لان كل من يصاب بمرض في غات يجبر على الذهاب الى مرزق للتداوي .

ورجعت الى مرزق يوم 6 أكتوبر فنزلت في المسكن الاول فزارني في الحال سيدي احمد مختار ، وحين رآني على تلك الحال التي يرثى لها ارسل في طلب طبيبين احدهما يوناني ، ابعده السلطان من الاستانة والآخر تركي مسلم فقررا اولا قطع رجلي ، ولكنهما لم يتفقا على بعض الجزئيات وكان اختلافهما سبب انقاذي فقد أتاني في اليوم الموالي الطبيب المسلم حاملا معه ادوات الجراحة واحدث في ركبتي جرحا عميقا اخرج منه نحو اربعة ارطال من القيح ، ولما رأى ان الدماء تخرج بعد القيح ، ادرك ان مظهر جرحي سليم وهذا ما طمأنه .

---

11) هو ذوب شحم النعام

ومن الغد اقتلع نحو نصف رطل من اللحم وضمد الجرح بعد ذلك بواسطة دواء يشبه الماء ورائحته كريهة ، وعالجني هكذا مدة شهرين وتقاضى مقابل ذلك 300 فرنك منها مائة دفعها له المتصرف بواسطة سيدي احمد المختار ، ولم أتألم قط خلال علاجي ، ولم ينفك اعيان التوارق من زيارتي .

في ذلك الوقت وصل صديقي الجديد سيدي ايوب باي الانصاري الوارث المتوقع لحكم غات ـــ لتهنئة الباشا الجديد وقبض المرتبات التي يتقاضاها من الحكومة التركية وتساوي 700 فرنك شهريا ، ووصل ايضا من غات سيدي علي الانصاري أخو الوالي الحالي واول زيارة قام بها في مرزق كانت لي .

ولما تماثلت للشفاء ، كتبت كل الارشادات التي تحصلت عليها بطريقة مباشرة او غير مباشرة عن غات حسبما اذكره فيما يأتي.

الفصل الخامس

غات ، ومرزق

أعيان غات ــ سيدي أيوب وعائلة الانصاري ــ وصف المدينة ــ الحامية التركية ــ استقلال مدينة غات من الحكم التركي ــ تجارة غات ــ علاقاتها مع تونس ــ تدهور مرزق ــ المدينة وسكانها .

يوجد في مدينة غات عدة علماء يطيعون الله ورسوله ، واهم هؤلاء العلماء هو الشيخ سيدي الحاج محمد التبيني وهو عارف بجميع العلوم العقلية والنقلية وله ــ خاصة ــ معارف واسعة بالكونيات وعلم الفلك لكنه فقد بصره واصيب بسمنة مفرطة .

وقد روى لي انه اصيل وادي الغربي في بلدة عامر ، وهي قرية بين غات والسودان ، وفيها عدة علماء واولياء صالحين ، وقد درس بجغبوب في عهد الشيخ سيدي محمد السنوسي الذي يعتبره شيخه الكبير واستاذه .

وقاضي المدينة هو سيدي محمد بن عبد السلام الانصاري ، وهو رجل رضي الاخلاق ، له ثقافة عامة .

واشهر الشخصيات حاليا بغات هو ولي العهد ، وهو شقيق ملك غات القديم ، سيدي ايوب بن الحاج الامين بن الحاج الصادق الانصاري ، وهو اصيل قبيلة الانصار وقامته فوق المتوسط ، جميل الوجه ولونه يميل الى السواد ، وله لحية كثة ، وطبعه لطيف ، وسيدي ايوب قليل الكلام ، ولا يقول قط الا اشياء هامة وحقيقية ، ويحب الرحلات والتجارة ، وتأثيره عظيم بين أغلب التوارق ، وكلمته مسموعة دائما وقد

شاهدت بمرزق عند وصوله الى هذه المدينة ــ جمعا من الناس ينتظرون أمام منزله لاستشارته في حاجاتهم ومصالحهم ، ولا أعرف من بين الرجال الذين اتصلت بهم خلال رحلتي من هو أكثر علما بالسياسة الحالية ، وخاصة ما يهم السياسة الفرنسية .

وقد قام سنة 1883 برحلة الى الجزائر حاملا اليها بضائع من غات وجلب منها ــ عند عودته ــ بضائع جزائرية ، وسمحت له هذه الرحلة بتقدير تنظيم الامة الفرنسية ، وجميل عدالتها ، وتصرفاتها المنصفة تجاه المسلمين ، ورفاهيتها وثروتها ، وتكون له تعلق متين بهذه الامة من اجل ذلك .

وهو كثيرا ما يوجه الى التوارق ممثلين له وتوبيخات ، ويحثهم على الانقطاع عن سلب الفرنسيين ، وقتلهم ، لان فرنسا ستتمسك دائما بالانتقام لرعاياها ، وسيفضي الامر الى احتلالها لاراضي التوارق ، وخاصة اثر اعتدائهم الاخير على المركيز دي موريس ورفاقه ، وكان ابعد ما يكون عن الموافقة على هذه الفعلة الشنيعة ، فلم يتأخر عن الوقوف ضد تصرفهم بحزم عندما التقى بأعيان التوارق ، وهكذا يسعى كل التوارق حاليا لالقاء تبعة الجريمة المرتكبة على غيرهم ، لانهم شديدو التخوف من عواقب فعلتهم ، ويخشون ان تقوم الجيوش الفرنسية ضدهم ، وهم يتهمون سكان غدامس لان الاغتيال وقع على ارضهم ، يقولون : ان الغدامسية هم الذين قاموا بتحريض غادر للتوارق والشعانبة وللخائن (بشاوى) (1) وينبغي القول : ان هذا الاخير ليس معدودا من بين اعيان التوارق .

وفي عهد ولاية احمد راسم باشا على طرابلس (2) قام سيدي إيوب

1) ذكره مرتال في كتابه (الحدود) باسم (الشاوي) ولعله (ابن الشاوي) فحذفت النون حسب طريقة اللهجة الدارجة فصار (بشاوي ــ او ــ بالشاوي)

2) ولا يته من 1881 ــ الى 1898 م

برحلة الى هذه المدينة للتجارة ، ولما علم المسيو فيرو قنصل فرنسا بوصوله استقدمه اليه ، بدون علم الباشا ، وكانت له معه محادثة في موضوع السياسة الفرنسية بغات ، وعندما علم الباشا بزيارته للقنصل بذل جميع الجهود لاجباره على مغادرة البلاد ، لكن مودته لفرنسا لم تنقص من جراء ذلك ، وكان كثيرا ما يقول للتوارق في اجتماعاتهم الا تكفون عن المعاملة الظالمة للرعايا الفرنسيين ؟ وهل تجهلون ان هذه الحكومة هي اعظم الحكومات وأقواها ؟ ولن يكبر عليها ان تنفخ عليكم فتقضي عليكم .

وسيدي ايوب يتمنى ان تربط صلات بين غات وفرنسا وان يقع ارجاع العلاقات التجارية مع تونس ، وتأثيره عظيم في غات ولدى التوارق .

وأهم تجار غات هم :

الحاج ابراهيم بن سليمان ، والحاج عمر النفوني (؟) والحاج عمر الاعمى ، ومحمد بلخو ، والحاج محمد المعمى (3) والمنطقي وعبد القادر ابن عيسى ، ثم من الغدامسية : ابناء الحاج عون الله ، والبشير بن عون الله بن الاكحل ، واولاد الثني .

ومدينة غات التي تشمل ثلاثة احياء واقعة على شكل مثلث ، تحتوى على نحو 600 منزل ، وهذه المنازل ، مبنية بناء قليل المتانة ، من صلصال مخلوط بالتراب وسعف النخيل ، ويوجد فيها مسجدان وزاوية الشيخ السنوسي ، وتوجد بئر في احد المسجدين وأخرى في الزاوية ، وحول المساكن كثير من العيون والنخيل والطقس فيها معتدل فلا تتجاوز الحرارة فيها 45 درجة ، وفيها اكسير الزنك ، ومعدن الاثمد (الكحل) والنطرون ، والملح من الصنف الرديء .

3) هكذا الترجمة الفرنسية (Maâma)

ولا يفتح التجار دكاكينهم بانفسهم ، وهذه الدكاكين هي غرف صغيرة مبنية بالصلصال والتراب وجريد النخل ، بل يكلفون عبيدهم الزنوج الذين يدعون (العتارة) بفتحها ، ويقطن هؤلاء حيا منعزلا ، وهم منذ عدة اجيال خدم لأهل غات ، وبعد ان يفتح العبد دكان سيده يصل هذا الاخير ويجلس .

ولسكان غات نفس عادات التوارق وتقاليدهم ، ولغتهم .

والحاكم الحالي هو سيدي الحسن بن الحاج احمد بن سيدي حسن الانصاري ، وتولى بعد موت ابن عمه سيدي الضاوي بن الحاج الامين ابن الصادق الانصاري شقيق سيدي ايوب ، وبعد تخلي هذا الاخير عن الحكم ، وله تحت امرته 35 جنديا يرأسهم يوزباشي ، ويتمتع بمرتب شهري قدره 1600 قرش ، وقد ارتبطت بصداقة متينة مع سيدي علي اصغر اشقاء الحاكم وقال لي انه يرغب في ربط علاقات بين تونس وغات ، ولكن بعض التوارق لا يرغبون في الكف عن تعدياتهم على رعايا فرنسا ، ثم عبر لي عن تعجبه من ان فرنسا لا تسعى الى الثأر لابنائها الذين اغتالهم المجرمون ، فذكرت له ان فرنسا لا ترغب في التصرف بعجلة ، ولكنها لن تتأخر — بالتأكيد — عن الانتقام الشديد لهذه الجرائم ، وقد بقي سيدي علي بمنزلي في مرزق اربعة ايام ثم عاد الى بلده ، وكان جاء ليقبض مرتب شقيقه ابن عم سيدي ايوب .

وعلي ان اذكر : ان التوارق الذين يرتكبون اعمال الخيانة والنهب والاغتيال تجاه رعايا فرنسا ينتمون جميعا الى الطبقة السفلى من هؤلاء السكان ، وهذه الطبقة مستقرة قرب الحدود الفرنسية ، واعيانهم لايرتضون اطلاقا هذه الاعمال السيئة ، ومن وضع نفسه تحت حمايتهم بمجرد الوصول اليهم للاقامة بعض الوقت يكون في امان تام مهما كان دينه ، اللهم الا اذا علموا انه اتى بنوايا سيئة مثل التجسس عليهم

والاطلاع على قوتهم . أما اذا كانت له نية التجارة فلا يخشى شيئا وخاصة اذا ما عرف كيف يبدو كريما ومنحهم بعض الهدايا ، فانهم يمكنونه من بلوغ اقصى الجهات التي يرغب في الذهاب اليها .

وكان يحكم غات قبل الحاكم الحالي ، الضاوي بن الحاج الامين وهو رجل عادل شريف منصف يعرف جيدا وضع الغرباء وهو شجاع كريم ذو هيبة ، ويضمن له اسمه وسلطته المعنوية احترام التوارق ومختلف حكام مرزق الاتراك الذين يتغيرون بسرعة كبيرة كانوا متعودين على القول : بأن ذكاءه وفطنته ونفاذ بصره يمكن ان تؤهله ، للصدارة العظمى ، وكان ينعت في كامل فزان بالرجل العادل وعندما حاول منع اعمال النهب التي يرتكبها لصوص التوارق دبرت ضده مؤامرة فتفطن اليها ورحل الى مرزق مسلما المدينة للوالي العثماني الذي اقر فيها خمسين جنديا ، واهتم سيدي الضاوي ـــ آنذاك بتدعيم سلطته على التوارق ، فساق منهم إلى مرزق عددا من الشيوخ والاعيان الذين دبروا الاضطرابات واخلوا بالامن العام ، ولكن عندما احتل الاتراك المدينة سنة 1876 م هاجم التوارق ليلا الجنود النائمين وقتلوا عددا منهم وانسحبت بقيتهم الى مرزق .

وتتألف حامية غات حاليا من 35 الى 40 جنديا يقودهم يوزباشي ولا يقوم الجنود بأعمال الحراسة ولا التمارين ويشتغل قائدهم بالتجارة ، ويدفع لهم سكان المدينة اجرا مقابل استخراج الماء من الآبار والعمل في البناء او اصلاح المنازل ، وهم مجبورون على قبول هذه الاعمال لانهم لا يتلقون من الحكومة سوى طعام غير كاف ولا يتقاضون أي جراية ، وينتعل أغلبهم احذية ممزقة ويلبسون ثيابا رثة ، ويقع انتدابهم عامة من فزان ، ويقضون اربع سنوات او اكثر في الخدمة العسكرية ، ويبلغ بعضهم من العمر ما يفوق الستين عاما ، ومجموع هذه الحامية لا يمكنها الصمود في وجه ثلاثة او اربعة جنود متدربين ، كالذين شاهدتهم في طرابلس ،

ويوجد من بينهم عبيد زنوج ، وفي الجملة انهم في وضع بائس للغاية ، والفرق الموجودة في مرزق ليست بأحسن حالا منهم كما سأذكر ذلك .

وقد هوجم سيدي الضاوي ذات صباح وطعن بالسيف ، ولم يكن يحمل سلاحا سوى خنجر صغير قتل به ثلاثة من مهاجميه ، وترك مصابا بجرح مميت ، فلبس جميع الرجال الخيرين ثياب الحداد على هذا الرئيس المهيب ، وفي نفس الوقت الذي اغتيل فيه بهذه الطريقة كان شقيقه سيدي ايوب في توات للتجارة ، وقد ترك المرحوم ابنين وجدت احدهما بمرزق يشتغل بالتجارة ، وعندما زرته كان محموما فاعطيته شيئا من (الكينة) فشفاه الله ثم رغب في الرحيل الى بلده وسافر مع قافلة لكنه في أول أيام سفره سقط من ظهر البعير ومات في الحين ، ودفن خارج مرزق ، وقد حضرت جنازته وصليت عليه اماما ، وكاتبت عائلته اعلمها بهذا المصاب مقدما لهم التعازي .

وأثناء غياب سيدي ايوب تولى ابن عمه سيدي الحسن بن الحاج احمد بن حسن نيابته في الحكم وعند عودته سلم له مقاليد الحكم لانه لم يكن راغبا في الاحتفاظ بهذا العبء (4)

وبعد ان قتل التوارق جنود سيدي الضاوي ارسلت الحكومة العثمانية متصرف فزان ، وهو في ذلك الوقت (ابن قدارة) فتغلب هذا العربي الذي عرف بالشجاعة والبراعة على التمرد وانتزع المدينة من ايدي التوارق ونشر فيها الامن .

ولا تدفع هذه المدينة أي اتاوة للحكومة العثمانية بل على العكس من ذلك ، فإن هذه الحكومة تتحمل مصاريف الاحتلال والادارة رغم ان

4) الظاهر ان المترجمان لم يفهما ما كتبه المؤلف الذي يصرح في (جلاء الكرب) بأن السيد ايوب اقر ابن عمه الحسن في الحكم إذ لم يرغب في تحمل عبئه .

البلاد تتمتع بموارد ، ويقبض الحاكم سنويا عن كل بعير يدخل غات فرنكا واحدا ، وفي كل سنة يدخل المدينة اكثر من ثلاثين الف بعير محملة ، ويبلغ الدخل اذن ما يقارب ثلاثين الف فرنك يقبضها الحاكم ويوزعها بين اعيان البلاد ووجوه التوارق والكاتب والقاضي ويحتفظ بربعها .

واريد ان اتعرض الآن الى كيفية توصل الطرابلسيين الى بعث صلات تجارية بالجهات الداخلية للصحراء والسودان :

فأغلب التجار في هذه الجهات ، من الطرابلسيين ، وفي سنة 1873 م وضعوا ايديهم على التجارة التي كان تبادلها واقعا بين اهل تونس وغات والسودان ، لان غات وغدامس كانتا تابعتين للايالة التونسية مثلما يستنتج من الكتابات التي مازالت موجودة في السجلات الخاصة لاهل غات ، ويلبس هؤلاء حاليا لباس التونسيين ويفتخرون بلبس الجبّة التونسية والبرنص التونسي المزين بالحرير ، والفرملة ، والصدرية ، والشاشية التونسية والسيوف التونسية ، وهم لا يزالون الى الآن ، لا يعتبرون الا ما هو تونسي ، وعندما يرغبون في التنويه بإحدى البضائع يقولون : انها واردة من تونس ، وما قلته الآن حول ثيابهم ينطبق على الطبقة الميسورة ، وأما الطبقة الفقيرة فتلبس مثل التوارق .

وفي سنة 1868 م قام احد الطرابلسيين يدعى (ناصوف) برحلة الى ودّاي وقدم له من اجل ذلك المدعو عريبيب وهو احد الرعايا الانكليز المستقرين في طرابلس أموالا ، ولما كان لا يعرف الطريق استشار المدعو (ابن عُلوّة) أحد اعيان مرزق ، وكان يقطن وقتها طرابلس وهو والد سي الحاج عبد الله وسي محمد بن علوة وهما الى الآن بمرزق فقال له ابن علوة — كان يعرف تجارة السودان معرفة جيدة : أذاكنت مصمما تصميما تاما على الرحيل فإني اتكهن لك بربح عظيم واذا ما وافقك ذلك ارسل معك احد ابنائي ورجلا يعرف الطريق معرفة جيدة وسوف تبلغ مرزق وتعود

سالما فجهز ناصوف قافلة واخذ كمية كبرى من البضائع وتوجه نحو مرزق وعندما بلغها توفي ابن علوة وابنه الذي كان في القافلة لكن ناصوف واصل طريقه بمفرده وبلغ وداي بدون عائق حيث باع بضائعه بأثمان باهظة ، واخذ عندئذ احمالا كثيرة من البضائع ورجع بها الى طرابلس حيث باع ما كلفه قرشا بخمسين قرشا .

وهو أول من دخل السودان وفتح طريق وداي للطرابلسيين واقتدى به هؤلاء شيئا فشيئا فذهبوا الى وداي وبرنو ، وكانم وكانو ، وبقية بلدان السودان الاقصى ، ويشكلون الى الآن شركات تبعث سنويا قوافل الى هذه الجهات ، وهم شديدو الانانية ويحسدون سكان غدامس وتوات وغات ، ويبتهجون عندما يهاجم التوارق القوافل التي ليس فيها مواطنوهم ،وعلى كل فستتاح لي الفرصة عندما اتحدث عن الطرابلسيين للعودة الى هذا الحسد وهذا الحقد اللذين يكنونهما .

وقد التقيت عدة مرات بناصوف في منزل رئيس بلدية بنغازي وربطت بيننا صداقة وقدمت له نصائح ارتاح لها ، وهو رجل بدين وقصير القامة ، به حول قليل يبدو متمتعا بطاقة غير عادية ، ومازال في سن الخمسين — مغرما بالاسفار والمغامرات ، وكان وقع ابعاده من طرابلس الى بنغازي على يد الباشا احمد راسم صحبة الذين ثاروا ضده عندما اراد فرض الخدمة العسكرية على الطرابلسيين ، ولم يحظ بعد بعفوه وهو من انصار السياسة الفرنسية ، وقد ذهب ثلاث مرات الى مرسيليا لبيع ريش النعام ، وقام كذلك سنة 1889 برحلة الى تونس .

والدليل على ان غات وغدامس كانتا — سابقا — تابعتين الى الايالة التونسية الاشارات الموجودة في بعض الاوراق الشخصية التي تركها اجداد سيدي ايوب وقد قص عليّ هذا الاخير انه قرأ في هذه الاوراق ان

جده سي الحاج احمد العربي الانصاري كان ذهب الى تونس ايام حكم محمد باي بن مراد باي (5) وحمل معه عشرة من اجمل العبيد بقصد بيعهم فقدمهم للباي الذي اعطاه 3000 محبوب (نحو 13000 فرنك) وكلفه بحمل هدية لملك غات وحثه على ارسال الضرائب السنوية التي يدفعها الى باي تونس ، وكتب محمد باي رسالة الى والي طرابلس يوصيه فيها خيرا بالحاج احمد ويقول له : بأن يراقب التجارة بين غات وتونس ، ولما وصل الحاج احمد الى غات علم ان اميرها قد توفي وترك الحكم لابنه فسلم الى الوالي رسالة محمد باي فاصدر الوالي اوامره حتى لا يحصل له شيء في الطريق وعندما وصل الى غات سلم الحاج احمد الى الامير الرسالة التي ارسلها باي تونس والتي مضمونها ان عائلة الانصاري يجب ان تتسلم الحكم في غات ، وجاء فيها : بأمرنا وبطلب منا ، انه كلما احتاجت هاته العائلة لشيء يجب ان تعلمكم به لكي تعينوها والسلام من محمد باي (6) فأرسل الامير الى محمد باي هدية ورسالة شكر .

وتعود امراء غات على ان يرسلوا سنويا الى باي تونس هدية تشتمل على عبيد عشرة من الرجال وعشر من النساء وخصي وجانب من الزباد ، وبعض البخور السوداني ، فيرد لهم باي تونس بدوره 25 قطعة قماش ، وثوبا من القماش الاحمر المطروز بالذهب وسيفا ، وعشرين سفساري (ازارا) من الجريد ، وتواصل تبادل الهدايا هذا سنين طويلة ، واني متأكد انه اذا بحثنا عن وثائق الحكومة التونسية سنجد عدة رسائل في هذا الموضوع .

---

5) استقل بالحكم 1096 هـ 1685 م وكان عانى كثيرآ من خلافه مع اخيه ثم مع صهره الثائر محمد بن شكر وتوفي 1108 هـ 1696 م .

6) هذا يخالف النص الموجود بجلاء الكرب وهو : ان حكام غات تبقى حكاما بغات على نظرنا ومهما احتاجوا الى شيء يخبروننا عنه لنكون في اعانتهم والسلام من محمد باي »

وحكمت عائلة الانصاري غات حتى سنة 1875 م وفيها ادخل سيدي الضاوي شفاهيا هذه المدينة ، تحت سلطة الاتراك .

وكما نرى فإن مدينة غات هي المركز التجاري للصحراء وللسودان وسكانها مسلمون يؤمنون بالله ورسوله وينتمي بعضهم الى الطريقة السنوسية وبعضهم الآخر الى طريقة مولاي الطيب ، وقديما كانوا لا يُتاجرون بالعبيد الا اذا كان هؤلاء وثنيين ، اما من كان له دين فانهم يعتبرون ان الاتجار به حرام ، ويقولون دائما انهم يستطيعون قانونيا بيع وشراء السودانيين من قبائل (متشو) و (كارم) و (تبعه) ؟ و (بوبا) لانهم وثنيون ولكنهم لا يستطيعون الاتجار في أهل قبائل (برنو) و(كشنكغ) و(كانوا) و(عفنو) و(مولي) و(كوبر) و(صافي) و(فلات) وجزء من قبيلة (زكزاكة) لانهم يؤمنون بالله الواحد ، ولكن منذ سنوات لم يعد التجار يتمسكون بهذه التفرقة ، وأصبحوا يعاملون كل القبائل السودانية نفس المعاملة .

ولما رجعت من غات وكان جرح ركبتي يؤلمني كثيرا اقمت شهرين بمرزق التي هي عاصمة فزان،وتقع على مسيرة 13 يوما من غات، وموقعها في منتصف طريق برنو بالنسبة للسالك طريق القطرون وكانت منذ خمس عشرة سنة مركزا لقوافل السودان ، ووداي ، ومصر ، وجالو ، وتوات ، فقافلة حجاج توات المتكونة من عدة آلاف من الاشخاص تمر بمرزق وتقيم هناك 25 يوما للبيع والشراء فكانت التجارة مزدهرة اثرى منها سكان المدينة ولكن لما منع والي فزان سنة 1884 م تجارة العبيد وحرر جميع العبيد الموجودين في البلاد بدأ مصير انحطاط التجارة ، ومن ذلك العهد لم تعد القوافل تأتي الى مرزق واصبحت غات هي مركز البيع والشراء .

وتوجد في مرزق ثكنة مبنية بالصلصال والتراب ، ويسكن المتصرف ــ غالبا ــ قصرا مبنيا بنفس المواد حيث توجد اربع قطع من المدفعية العتيقة وهناك مركز الحكم .

وتتكون الحامية العسكرية ــ عادة ــ من 150 إلى 200 نفر أغلبهم من العبيد القدماء اهالي البلاد متقدمين في السن كما سبق توضيحه ، وهم لا يتقاضون رواتب ولا تعطيهم الحكومة الا ثلاث خبزات كل اربعين ساعة تزن الواحدة منها عشر اوقيات أما الضباط ، وهم ــ عادة ــ من الاتراك فيتقاضون رواتبهم بانتظام .

ويبلغ دخل فزان 800،000 قرش أي 150،000 فرنك تحصل مع الضرائب على النخيل وعلى بعض الاشخاص وبعض العقارات ولكن بدون قاعدة منظمة .

أما القاضي ، وهو تركي يسمى السيد علي رضا ، فهو يتقاضى راتبا شهريا قدره 3000 قرش (7) ووكيل المالية يتقاضى 2000 قرش ، أما بقية الموظفين فمنهم من لم يتلق أي شيء منذ عشرين سنة وهذا ما يجعلهم يتسولون

وفي مرزق يوجد مجلس متكون من عشرة اعضاء بدون راتب يرأسه المتصرف ويجتمع هذا المجلس يوم الاثنين ويوم الخميس من كل اسبوع لدرس القضايا التي تهم الولاية او المدينة .

وكانت ــ قديما ــ توجد بمرزق قنصلية انكليزية يديرها مواطن انكليزي وحذفت منذ بضع سنوات ، ويجب ان توجد هنا قنصلية فرنسية يديرها رجل يحذق اللغة العربية وله إلمام بالشؤون الدبلوماسية .

ولم أر في مرزق من يتعاطى دراسة العلوم الا قليلا ومعظم السكان لا يعرفون الا قراءة القرآن . أما الاعيان والتجار فهم في الغالب غرباء . واهمهم : عبد الرحمان تيتيو ، والسيد الشريف السنوسي ، والحاج

---

7) أي 600 فرنك حسب قول المؤلف الذي اعلمنا ان الفرنك يساوي خمسة قروش وكان ذكره لنا سابقا ان هذا القاضي يتقاضى نحو الف فرنك مرتبا والفرق بين الرقمين بعيد .

الكيلاني الهوني ، وسي الحاج محمد بن علوة اصيل البلاد واخوه سي الحاج عبد الله ، وزروق التاجر ، ومهدي العمري ، وسي بلحسن الامين ، وسى موسى بن عثمان ، والسيد احمد مختار شيخ البلد وخليفة سيدي المهدي وامامها الكبير .

وطقس مرزق سيء للغاية ، لان المدينة تقع في سبخة مالحة لذلك توجد فيها دائما الحمى ، كما لا توجد هناك غلال ، وليس فيها الا بعض الخضر مثل اللفت والمعدنوس ، والطماطم ، والفلفل ، أما الزيت والزبدة فيجب جلبهما من الخارج وتصل احيانا أثمانا غير معقولة ويوجد التمر بكثرة هناك . أما اللحم فالموجود منه هو لحم الضان والمعز ، ولا وجود للبقر لا بفزان ولا بوسط او شرق الصحراء والخيل هناك قليلة ، وتتولى النساء بيع الخبز والخضر وبعض المواد الغذائية الاخرى في ساحة تقع أمام مدخل المدينة .

ونساء مرزق ذوات رقة وظرف وجمال ولطف ، ولهن سلطة ونفوذ على ازواجهن ، وكلهن بدون استثناء يشتغلن ، وعندما يرين غريبا يعاملنه بلطف : فيقدمن الى زيارته في بيته بكل حرية ويقدمن له احسن الطعام الذي يستطعن اعداده ، ومن السهل ان يتزوج الانسان في هذا البلد فالمهر الذي يقدمه الزوج لا يتجاوز عشرين فرنكا حتى ولو كانت العروس تنتمي الى احسن العائلات ، ولكن من العبث البحث عن زوجة صالحة بين غات ومرزق .

ولا يوجد ايضا في هذا البلد ثروات ضخمة ، فالمهدي العمري اكبر تجار البلد ورث عند موت أبيه نحو 60.000 ألف قرشا (أي 12.000 فرنك) وهو مبلغ ضخم لان القرش بمرزق يساوي الفرنك بتونس ، وحمل الجمل من الخشب يبلغ قرشا ونصفا (أي سبعة صولدي) ، أما حمل القمح فيساوي ثلاثة قروش (أي 15 صولديا) ، وأجر البناء او البستاني

والسباخ (منتج البقول في السباخ) أو الزهار (منتج الزهور) لا يتجاوز قرشا ونصفا .

كما لا يوجد في هذا البلد طبيب غير الطبيب العسكري الذي عالج رجلي وطبيب يوناني مبعد من بلده واسمه (نيكولا) ولا يوجد كذلك حمام .

والمتصرف اصيل بغداد وينتمي الى الطريقة السنوسية . والاراضي المحيطة بمرزق من النوع الجيد : تنبت كل شيء بكثرة فقد رأيت فيها (دلاعة) تزن 35 كيلو ، والماء عذب ، وتجلبه النساء من الآبار على ظهورهن ، وفي مقاطعتي فزان وغات تستعمل الاحمرة الصغيرة لجلب المياه من الآبار .

ويمثل النخيل اهم انتاج في البلاد ، ويشتري التوارق وعرب طرابلس وبنغازي جزءا من التمور ويدفعون ثمنه نقودا او قمحا او شعيرا ورغم هذا فان السكان لايتمتعون برفاهية العيش .

ومن ناحية اخرى فالناس يعيشون في فزع وخوف ، فهم يرددون : يا رب ، ان الاتراك قد شربوا دمنا لكثرة اخذهم الميرة (8) والاتاوات (9) والنخل والاملاك الاخرى لمن لايدفع الميرة في الوقت المحدد تصبح ملكا للحكومة .

وخلال اقامتي بهذه المدينة رأيت 27 ناقة وجملا منهوبة من طرف عرب الحدود التونسية ، اخذها المتصرف وباعها في سوق مرزق علانية بعد ان وضع ناهبيها في السجن ، وبعد المزايدة عليها مدة ثمانية أيام ، وضع المال الناتج عن عملية البيع بصندوق الحكومة .

---

8) ضريبة قارة (المترجمان)

9) ضريبة يتغير مقدارها حسب حاجيات الحكومة (المترجمان)

وسكان هذا البلد يستقبلون الغريب استقبالا سيئا وان كان غنيا حاولوا تلطيخ سمعته الا اذا صرح بانه ينتمي الى الشيخ المهدي .

كما ان البناءات ليست لها اي قيمة اذ لا يتجاوز ثمن منزل جميل بطابقين 500 فرنك .

ولا تمطر السماء بمرزق الا نادرا ، وعند وجودي هناك كانت قد مضت 30 سنة لم تنزل أثناءها قطرة من المطر ، وهذا ما ألهم الشاعر الذي قال (10) .

« تمشي السحب فوق مرزق محملة برطوبة السماء الكثيرة وتريد ان تتحول الى ماء الا ان الماء لا ينزل بسبب سوء سيرة البنات والنساء »

واذا نزل المطر فإن كل الدور تتهدم ، ولهذا السبب فقد اعيد بناء المدينة ثلاث او اربع مرات في ظرف قرن .

ويقابل مرزق من الجهة الغربية بلد القطرون حيث يوجد كثير من النخيل وسكانه اناس هادئون ، والعلاقات معهم مأمونة .

10) أثبتنا ترجمة الشعر إذ لم نطلع على أصله العربي

الفصل السادس

التـــوارق

توزيع قبائل التوارق في الصحراء ــ وصف بلاد ازقر والهقار ــ تقاليد وعوائد التوارق ــ اسباب مقتل المركيز دي موريس ــ احصاء الازقر والهقار ــ اعيان هاتين المجموعتين ــ العداء المزمن بين التوارق وسكان المناطق المحيطة بهم ــ غزو رابح لبرنو ، وهو ما بين السهولة التي يستطيع بها جيش مدرب على الطريقة الاوروبية حمل عشائر الصحراء والسودان على الطاعة .

كثيرا ما تحدث المكتشفون والمؤرخون عن التوارق ، وعن تاريخهم ووضعهم وتقاليدهم ، ولكن احدا لم يقدر ان يفعل ذلك بصفة كاملة اذ لا احد قد توصل الى معرفتهم ، والرحالة الاوروبي المسكين الذي يدخل بلادهم رجل معرض للموت نوعا ما ، وقد تاه كثير من العلماء المعروفين في الصحراء وردم الرمل عظامهم الى اليوم .

عندما سمح الله لي سنة 1896 ببلوغ المنطقة التي يسكنونها والارتباط ببعض اعيانهم تمكنت من الحصول على ارشادات في شأنهم وخاصة خلال اقامتي بمرزق ، وأتمنى ان تهم هذه الارشادات الجمهور وتفيد الذين لا يتراجعون امام الصعوبات ومشاق السفر الذي قمت به .

والتوارق عديدون وينقسمون الى عدة قبائل يرتبط جميعها بأربعة فروع كبرى : .

اولا : توارق الهقار وهرار ، ويوجدون بجبل هقار .

ثانيا : توارق ازقر وايفوغا ويقطنون جبل غات ونواحيه .

ثالثا : توارق كلوي وماويديرن ويقيمون بجبل سكمارة .

رابعا : توارق عو ليمندن شرقي تمبكتو .

وارغب في الحديث هنا عن الفرعين الاولين اي الهقار وازقر اللذين تمكنت ــ بصفة خاصة من دراسة طبائعهم ..

ان الهقار وازقر هم اشهر التوارق بسبب العلاقات التجارية التي يربطونها منذ عهد بعيد مع تونس والجزائر والمغرب ، وهم يقيمون اساسا في الجهة الوسطى من الصحراء ويمتدون نحو مرزق والاغواط (1) ووادي عتبة ، والشاطىء ، والعوينات ، وحتى بحيرة تشاد عبر مملكة برنو ، ويقطنون فوق هضاب ذات شكل مثلث تخترقها جبال ومجاري مياه وتقع ثلاثة من هذه الجبال في موضع يدعى (نماط) ويوجد خارج هذه المثلثات التي اشرت اليها ، في الشمال الغربي من غات بلد (ازاود) وبقية هذه الجهة صحراء ، وفي الشمال الغربي من غات تعترضنا كذلك الجبال المسماة بالهقار وهي لا تخلو من شبه بجبال اوروبا اذ توجد فيها غابات كبيرة وسيول تغذيها عيون ماء غزيرة وتشاهد فيها ايضا ثلوج دائمة ، وفي هذه الجبال يوجد منبع نهر كبير من انهار الصحراء : (ايغرغار) الذي يتوجه نحو الشمال وينتهي عند تكروت على الحدود الجزائرية ويصيد التوارق من هذا النهر اسماكا في حجم الخرفان الضخمة يملحونها ويحملونها كاملة الى غات حيث رأيتها واكلت منها .

وفي ذلك المكان يقيم توارق ازقر وهقار ذوو الاصل الخالص ، وبلدانهم التي تسمى اكبرها (عديلي) هي انماط من الاودية فيها كثير من الرمال والنخيل ، وتشيد مساكنهم بجلود تسمى (كلابو) ومساحتها متر

---

1) هكذا في الاصل الفرنسي Laghouat ولعلها غات حسبما يدل عليه السياق .

ونصف طولا وعرضا ، وهذه الجلود هي جلود نوع من ثيران السودان ، وقيمتها عشر فرنكات بمرزق ، و 12 فرنكا بغات ، ويمتد التوارق من مرزق الى توات على الحدود الجزائرية ، وغات هي (باريسهم) فإليها يأتون للهو والتزود بالتمر او المواد الاخرى ، ويشاركون الامير الحاكم في ادارة هذه المدينة التي لا تتبع السلطة التركية في نظرهم ، على الرغم من ان الاتراك لهم فيها ثكنة بها بعض الجنود . ويشترون كساءهم وسلاحهم من مرزق وغات ، لكنهم لا يمارسون اي تجارة اخرى ، غير انني رأيت بمرزق بعض قبائل التوارق تبيع الفحم والحطب والمصطكى وصمغ الطلح وخشبه وهي منتوجات بلادهم .

ومهنتهم التي يعيشون منها تتمثل في كراء الابل للقوافل التي تخترق ارضهم ، متوجهة من شواطىء افريقيا الشمالية الى بحيرات الجنوب ، ويقع هذا الكراء بأثمان ثابتة .

وفي كل سنة يجتمع رؤساؤهم واعيانهم بغات من سبتمبر الى نوفمبر وهذا الاجتماع نوع من السوق او المعرض تشارك فيه القوافل التجارية القادمة من جهات السودان وبرنو وكانم وتبو الخ ، وقد وصلت قافلة الصيف من برنو في 16 سبتمبر 1896 وتتألف من 700 بعير محملة بجلود ماعز السودان المدبوغة وتسمى (رقعة) وناب الفيل وريش النعام والعبيد السودانيين ، وكان فيها خمسة من الخيام مصنوعة من الكتان موجهة الى تجار طرابلسيين واحدى هذه الخيام كانت لجنّين الطرابلسي .

ويوجد مع القافلة بعض تجار طرابلس الذين كان رابح أسرهم في برنو واطلق سراحهم دون ان يمس اموالهم مثلما سأذكر فيما بعد .

وبعد أيام قليلة من وصول قافلة الصيف أي في 7 أكتوبر وصلت قافلة الشتاء وبما ان المراعي قد تقلصت في الصحراء هذه السنة فإن القافلة قد تنقلت ببطء شديد حتى تسمح للابل بالاستراحة ، وتعد القافلة الثانية

900 بعير ، يرافقها اعيان تجار غدامس منهم : حمّو بن حمود .

وكنت ذكرت ان غات هي باريس التوارق ويمكن ان اضيف انها مرسيليا الصحراء ، وكانت مرزق منذ خمس عشرة سنة ميناء (2) الصحراء والسودان ، ولكن القوافل التي كانت تقوم ـــ اساسا ـــ بتجارة العبيد كفت عن الدخول الى المدينة منذ منع الاتراك الرقيق . وقد تأثرت المدينة بذلك كثيرا ولهذا السبب يقع بيع العبيد حاليا في غات بالمزاد العلني في الاسواق مثلما يباع الحمير او البضائع الاخرى وهكذا اصبحت غات مركزا تجاريا كبيرا تأتي إليها جميع قوافل السودان وتوات التي تقع على مسيرة شهر من غات .

وينعت الازقر والهقار انفسهم (بالمشاك) بمعنى المستقلين والاشراف وكنت ذكرت ان مدينة غات غير تابعة للامبراطورية العثمانية حسب اعتقادهم ، بل هي مدينتهم .

وسماهم الغرب توارق ـــ او على الاصح ـــ توارك لانهم في بداية الاسلام تركوا الحق وهم اليوم من المسلمين لكنهم لا يعرفون المبادىء الحقيقية للاسلام ، اذ لا يدركون مفهوم الواجبات الدينية ، ولا الواجبات المدنية من باب اولى واحرى ، واللغة التي يتكلمونها هي (تماشك) ، وقد سمعتهم يذكرون انهم اشراف الجنس البربري .

ولون الازقر والهقار ابيض ، وملامحهم مقبولة وهم ابعد ما يكون عن الشجاعة مثلما يعرف عنهم في تونس خطأ وخاصة بين الاوروبيين .

وليس لهم اسلحة متقنة بل يحملون ـــ فقط ـــ الحربة ، وهي رمح طويل من الحديد في نهايته نصل في شكل صنارة غالبا ، وسيفا ذا حدين

---

2) باعتبار ان الصحراء تشبه بالبحر الذي لا يمكن الا عبوره (المترجمان) هكذا في الترجمة الفرنسية وربما يكون القصد ، لا يمكن الا عبوره دون الاقامة فيه . بوابة الصحراء والسودان

وخنجرا تشكل نهايته صليبا يعلقونه في الذراع الايمن ، والبعض القليل منهم يملك بندقية ، وحتى في هذه الحالة فهي بندقية من مرزق ذات طلقة واحدة عتيقة الصنع تنطلق بواسطة حجر الصوان ولا يحمل المسلح بها غالبا الا طلقة واحدة من البارود لتوقعه الالتقاء بثيران وحشية او غزلان .

وقد روى سيدي محمد بن ابراهيم التارقي احد الشيوخ الذين سأتحدث عنهم فيما بعد : ان تارقيا اشترى بندقية ذات طلقتين من الطراز العتيق بالكبسولة فانزلقت من يده ابان حشوها فجرح جرحا خفيفا فحطمها في الحين بضربة على الارض قائلا : ان سلاحا من هذا النوع ، يحمل سحر الاوروبيين الذين ارسلوه الى التوارق ليستخدموه فيما بعد ضدهم ، ونصح التوارق بعدم شراء البنادق ، ولم يجد صعوبة في اقناعهم بسبب ضيق تفكيرهم .

ويمتطي اغلبهم جمالا ذات قوائم دقيقة (3) ، وهم يستعملونها بالطريقة التالية : يضع التارقي على كتفي البعير بين العنق والسنام نوعا من السروج الخشبية (4) يربطها ربطا متينا بحزام يمر تحت البطن ، ويضع زاده واسلحته في (خرج) (5) من جلد الماعز ويعلق سيفه أمامه على مقدم السرج (6) ويمسك هذا السرج بين رجليه ويحتفظ بحربته لى جانبه ، ويلوي رجليه على عنق البعير ، ويسوق الجمل بواسطة الزمام (7) .

وعندما يؤجر التوارق ابلهم للتجارة يضعون في مقدمتها البعير الذي

---

3) هي ما يسمى (المهرى)

4) يسمى هذا النوع في الجنوب التونسي بالراحلة

5) هو جراب ذو قسمين

6) يسمى بالجنوب التونسي (دجاجة الراحلة)

7) هو نوع من الارسان يسمى (خزاما)

يكون اكثرها سرعة ، ثم يربطون بعيرا اخر بذيل الاول وهكذا دواليك بحيث تشكل القافلة السائرة خطا طويلا مستقيما ، والابل التي تؤجر بهذه الطريقة ليست سريعة فهي تقطع في الساعة كيلومترين فحسب ، وقليلا ما تسافر في الليل .

ويشكل الازقر والهقار شعبا عدده 9000 شخص على اكثر تقدير وقد اكد لي رئيسهم سيدي أيوب باي ولي عهد غات صحة هذا الرقم ، وذكر لي سيدي علي شقيق سيدي الحسن والي غات واعيان التوارق ان عدد التوارق سنة 1883 كان 13.000 ، ولكن هذا العدد قد تناقص الى ما يقارب النصف الآن نتيجة عدم كفاية المحاصيل بسبب قلة الامطار، وكذلك نتيجة الحروب الدامية التي خاضوها ضد الشعوب المجاورة (في قتالهم لقبيلة تبو خاصة فقدوا 700 رجل).

وكنت سمعت في تونس ان عدد التوارق يتجاوز المائة ألف على أنه من المستحيل تحديده بصفة مضبوطة ، ويوجد هنا خطأ مضاعف نشره بعض الاوروبيين الذين تحدثوا عن التوارق دون ان يأخذوا معلومات جدية ، والارقام التي ذكرتها ناتجة عن ارشادات دقيقة جدا تعرفها القبائل المجاورة ، ولا ينبغي — من جانب آخر — ان ننسى ان التوارق ، وإن كانوا منتشرين من حدود توات الى غات ومرزق — فان بين الاراضي التي يسكنونها مساحات واسعة خالية .

ويركب بعض الاشراف من التوارق المهاري السريعة ، وعدد هذه الحيوانات الممتازة جدا محدود للغاية ، وهي تقطع في يوم واحد المسافة التي تقطعها الجمال العادية في يومين او يومين ونصف او ثلاثة ايام من السير (8) وذكر بعض الكتاب ان التوارق يملكون مهارى تسمى (العشاريات) (9) يمكنها ان تقطع في يوم واحد مسافات تقطعها الجمال

8) هذا في سيرها العادي الذي يتخلله الركض احيانا

9) نسبة للعشرة والمقصود انها تقطع في يوم واحد مسافة عشرة ايام للجمل العادي

العادية في اربعة الى عشرة ايام من السير ، وهذا كذب (10) لانه لا يوجد في كامل الصحراء جمل واحد قادر على السير بسرعة تفوق السرعة العادية للابل أربع مرات .

ويوجد قليل من الخيل لدى التوارق يملكون المعز والضان ذا الصوف القصير والذيل الضخم .

والمطر نادر في بلادهم ، ولكن يوجد النخيل بكثرة في الواحات الصحراوية وأكبر بلادهم تدعى (عديلي) ومساكنها مبنية بالجلود والقصب المنسوج في شكل الحصر ، وتغطى بالحطب والجريد الملحوم بالطين ويقيمونها في الاودية حيث يوجد النخيل .

ويلبس التوارق اقمصة بيضاء او سوداء تكاد اكامها الطويلة الواسعة تجر على الارض لو لم يرفعها اصحابها ويرتدون العمامة ويترك وسط الرأس أحيانا عاريا ، ويحلقون رؤوسهم ولكنهم يحتفظون بخصلة من الشعر عرضها ثلاث اصابع على الاكثر تمتد من القذال الى الجبهة ، ويغطون رؤوسهم بلحاف لا ينزعونه قط الا احيانا من اجل الاكل ، ويحمل الرجال في اعناقهم حروزا (ستة على اقل تقدير) ملفوفة في كيس صغير من الجلد ، وقد كنت كثير الاعتبار عندهم وكتبت لاستعمالهم الخاص اكثر من 150 حرزا ، ويلبس رؤساؤهم (شواشي) ارتفاعها 20 صنتيمتر من صنع تونسي .

ولا يوجد عند التوارق تعدد الزوجات ، وعندهم — لفصل القضايا — نوع من الحكام ليست أحكامهم الزامية بالنسبة للرؤساء والاعيان ، فهو نوع من التحكيم الاختياري ولهذا السبب يعتبرون انهم يتمتعون بالحرية التامة ، وولي العهد عندهم ، هو ابن اخت الملك .

---

10) بل صحيح مجرب وقصدهم انما تقطع مسافة عشرة ايام للجمل العادي سيرا في يوم واحد جريا لان المهاري تستعمل للجري لا للسير العادي .

وعندما تصل القوافل الى غات يكون ملكهم ــ وهو ابن اخت الملك السابق نخنوخن حاضرا ويسمى (انقادازن) وهو رجل مؤدب لطيف ذكي متواضع ، وقد أهديته بواسطة سي محمد بن ابراهيم ــ الذي سأتحدث عنه فيما بعد ــ سبحة من العنبر ، ومرآتين ، وحقيبة يدوية من الصنع التونسي ، واربعة صناديق مصنوعة من العظام لوضع الزبد ، وقد سر كثيرا بهذه الاشياء ، وأعجب بها اعجابا كبيرا .

ولابد من ملاحظة الخاصية التالية في طبع التوارق : اذا كنت غنيا وذهبت الى منازلهم دون ان تهدي لهم شيئا يطالبونك مباشرة بالهدايا ، واقل ما يمكن ان تقوم به هو اطعامهم ، وليس لرؤسائهم مهنة او عمل سوى العيش على حساب التجار والرحالة .

وقد اظهر لي التوارق في مرزق صداقة كبيرة ، وكانوا عندما يلتقون بي ينحنون لتقبيل يدي ولو كنت ارغب في الرحيل الى اقاصي السودان لتمكنت من القيام بذلك في سهولة ، بفضل اعيانهم . ولولا جرح رجلي لكنت ذهبت الى برنو ووداي وكنت رجعت عن طريق النيل والقاهرة .

والفكرة الراسخة عند التوارق هي انه لا وجود في الكون لمدينة اكبر من تونس وهم يقدرون البضائع التونسية كثيرا ويعتبرون انها افضل البضائع ، وكل ما يقال لهم انه مورد من تونس يشترونه بثمن باهظ دون فحص او تفكير .

وقد ذكر لي سيدي ايوب انه يملك سيفا تونسيا دفع مقابله مائة بوطيرة أي 300 فرنك مع رطل من ريش النعام ، وعرض عليه ــ ثمنا له ــ 500 بوطيرة ، وقد شاهدت هذا السيف وهو ذو حدين له مقبض من الحديد وطوله 80 صنتم وعرضه 5 صنتم وغمده من الجلد القديم ، ولا يساوي هذا السلاح المصنوع بتونس في عهد حمودة باشا في

نظري اكثر من عشرة فرنكات ، ويبلغ لديهم ثمن السيوف والحراب والخناجر حدا جنونيا .

والتوارق مقتنعون للغاية بأن الاوروبيين الذي يأتون الى بلادهم ليس لهم من هدف سوى معرفة احوالهم قصد امتلاك بلادهم فيما بعد واستعبادهم ، وقد نشر هذا الاعتقاد ، وتصورات اخرى ليست اقل عبثا منه ، بين الطبقة الوضيعة من التوارق ، الجنود الاتراك بغات ومرزق الذين لا يرغبون ان تقر تونس او الجزائر علاقات تجارية مع غات والسودان ، وسمعت من جهة اخرى من يذكر لاهل طرابلس او غدامس ، ان البضائع التونسية لو وصلت الى غات لافلس تجار طرابلس ، وعلي ان اقول ان لاعيان التوارق في هذه المسألة افكارا مخالفة ، ومن الملاحظ ان جميع تجار غات ، هم اصيلو غدامس او طرابلس ، وليس هذا هو وضع تجار توات وفزان والسودان والصحراء .

وللسبب الذي ذكرته منذ قليل ، فإن الغدامسية والطرابلسية لا يلومون قط التوارق على ايقاف القوافل التونسية والجزائرية ونهبها وقتل اصحابها ، بل على العكس من ذلك ، يشجعونهم سريا على اعمالهم السيئة حتى لا تفتح طرق مواصلات السودان للاجانب ، ويمثل ذلك لديهم خطة سياسية لا ينبغي جهلها ، ولا بد من اعتبارها كثيرا واتخاذ الاحتياطات ضدها ، وجميع المعلومات التي تلقيتها هناك تؤكد حقيقة التصرفات التي اشرت اليها . وقد صرح لي فريد زمانه سي الحاج عبد الله بن علوة الذي يسكن حاليا مرزق ويعرف شؤون التوارق معرفة جيدة ــ بأن تجار غات وغدامس لما علموا ان المركيز دي موريس ورفاقه يتوجهون نحو السودان عن طريق غات ولديهم كمية كبرى من البضائع يرغبون بيعها بغات والسودان فهموا بسرعة كبيرة ان هذه المهمة ــ اذا نجحت ــ سيكون من نتائجها فتح طريق تجارية رابحة في وجه سكان تونس سواء كانوا اروبيين او مسلمين مما سينجر عنه تدهور تجارتهم

الخاصة فحرضوا سريا بعض التوارق ـــ وهم اناس بلا ذمة ـــ ان يقتلوا هؤلاء الاجانب في مكان منعزل ، ومما يدعم هذه الرواية ـــ بالنسبة لي ـــ هو ان بيع بضائع المركيز دي موريس قد وقع بصفة علنية في اسواق مرزق وغات ، ولقد عاينت ـــ واشهد الله على ذلك ـــ لباسا اوروبيا يتألف من سروايل ، وصدار (جيليه) وسترة ، وجميعها من اللون الرمادي يلبسها ابن اليوزباشي سي داود بمرزق ، وقد اشترى هذا اللباس الذي بيع في غات ، ابراهيم آغا الملازم وقائد الحامية واشترى ايضا اشياء اخرى أرسلها إلى سي داود بعينه وهو صهره .

ووصل خبر البيع الوشيك لبضائع المركيز دي موريس بمرزق وغات الى حدود توات ، وشاهد سي الحاج عبد الله بن علوة بنفسه برنس سي الحاج علي الثني يلبسه احد التوارق من جماعة (وادي عتبة) .

ووجدت نفسي في منزل سيدي ايوب الانصاري بمرزق صحبة سي محمد بن ابراهيم شيخ قبيلة توارق ازقر ، وهو يقطن حاليا بوادي عتبة ، فقال لي سيدي ايوب سرا ان لدى الشيخ المذكور بين افراد قبيلته المقيمة بوادي عتبة قاتلي المركيز دي موريس ورفاقه . وهم يحتفظون في منازلهم بقسم من بضائع ضحاياهم ، ويدعى أحد الذين ضربوا المركيز دي موريس (فزراف) ، ومن الملاحظ ان هذا الشقي قد ربته أم سي الحاج علي الثني ، وانه كان احد خدمه .

ومما يدعم رأيي في موضوع اسباب مقتل المركيز دي موريس ، أن احد افراد قبيلة (العتارة) يقيم بغات واسمه (محمد بن العتاري) كان قد ذهب الى تونس عبر طريق وادي تطاوين لاقتناء بضائع ، وتعرض عند رجوعه ـــ بعد قليل من اغتيال المركيز ـــ لالقاء القبض عليه وتهديده بالاغتيال في حدود ارض غات من طرف التوارق ، وقالوا له : لقد كان من الافضل ـــ بدل ان تذهب الى تونس ـــ ان تقصد الى طرابلس

لاقتناء البضائع،لاننا لانرغب ان نكوّن مع التونسيين علاقات تهدد تجارتنا وسنمنعك ـــ عقابا لك ـــ من الدخول الى بلادنا ، وهذا الرجل هو احد خدم سيدي ايوب ، وقد سلمته زوجة هذا الاخير عشرة مثاقيل من التبر لبيعها في تونس ، وجلب ما يساوي قيمتها من البضائع المتنوعة ، ومازالت تنتظر الى اليوم ، وعلم سيدي ايوب ليلا ان محمد بن العتاري قد استقر بصفاقس حيث يمارس التجارة بمشاركة احد سكان هذه المدينة ، وقد ذكر لي انه راغب في إرجاعه رغم انف سكان البلد ، ولا اعلم ما وقع في هذه القضية :

ولا ينبغي ان ننسى أخيرا ـــ اذا ما رغبنا في فهم سبب اغتيال المركيز دي موريس ورفاقه فهما جيدا ان اول من تكلم عن هذا الاغتيال هم تجار غات الذين أعلمتهم رسائل من الغدامسية القاطنين بتونس وطرابلس بقرب وصول الحاج علي الثني المرافق للمركيز دي موريس ، ومن هنا جاءتهم الفكرة برصد اناس لمهاجمتهم ، وما اذكره صحيح لان الذين كان يمكن ان يفكروا في المطالبة بدم الحاج علي لم يفعلوا ذلك بحكم اتفاقهم على قتله ، وهدفهم هو ارث املاكه المعتبرة ، وخاصة عقاراته بتونس وطرابلس لان الحاج علي كان قد ارسل الى منزله قبل الرحيل جميع وثائق ملكيته ، وكل رأس ماله النقدي .

وأما ظروف اغتيال المركيز دي مورس فهذا ما حدثني به سيدي ايوب :

لقد بقي المركيز دي موريس بعد ان ضربوه بسيوفهم (؟) ممدودا على الارض فجاء احد التوارق لتفتيشه لكن المركيز دي موريس في اللحظة التي وضع عليه التارقي يده اطلق عليه رصاصة فسقط ميتا في الحين واقترب عند ذلك بقية التوارق من المركيز ولاحظوا انه قد مات وتعجبوا من ذلك كثيرا .

وقبل ضرب المركيز طلبوا من الحاج علي الثني ان يبتعد لكنه اجابهم : لا يمكن ذلك لانني مسؤول عنه فهو من رفاقي واذ ذاك قتلوا الحاج علي (11) .

ولما علم إخوة الحاج علي وابناء عمه وسيدي حسن والي غات وبقية اقاربه بغدامس انه اغتيل ، لم يبد عليهم أي غضب على التوارق فقد أكد هؤلاء انه لم يقتل على أيديهم ولكن قتله المركيز دي موريس نفسه لأنه ظن اعتمادا على بعض **القرائن** ـــ انه غدر به ، وانهم لم يقتلوا دي موريس بعد ذلك الا ثأرا للحاج علي وهذه التهمة كاذبة تماما .

ومن الملاحظ اخيرا ان الغدامسية لم يفكروا قط في مطالبة التوارق بدية الحاج علي ولا بالبضائع الثمينة التي نهبوها منه .

ولم اتمكن من الحصول على معلومات وثيقة حول تاريخ هذه الجريمة (12) وقد وقعت في المكان المسمى بوادي الوطية على بعد 560 كم من غدامس .

ويستنتج من ملاحظات سيدي ايوب وما علمته شخصيا ان أكبر قسم من بضائع المركيز دي موريس قد اخذه اعيان التوارق غير انه ينبغي ان اقول : انه ، اذا شارك هؤلاء ، وعدد من التجار في هذا الاغتيال ، فان اعيانا اخرين قد استنكروا بصفة مطلقة هذه الجريمة الشنيعة .

ومن جهة اخرى فانه من المؤكد ان الحكومة العثمانية ، لو كانت ترغب في القبض على جميع المذنبين والعثور على البضائع المسروقة فان ذلك ـــ بالنسبة اليها ـــ أسهل من شربة الماء القراح، لان الضباط الاتراك بمرزق وغدامس يخشاهم التوارق ولا يخفون عنهم شيئا ، وقتلة المركيز

11) المشهور عند الناس نقلا عن رفاق المركيز الناجين انه قتل برصاصة طائشة
12) تاريخها يوم 9 جوان 1896 .

يعرفهم جميع التوارق ، وكذلك تجار غات الذين اشتروا غنيمتهم .

وكنت انوي الرجوع الى تونس عن طريق الشاطىء ومن هناك كنت سأسير في طريق غدامس حيث ابقى بعض الوقت حتى اتحصل على معلومات مفصلة عن اسباب مقتل المركيز دي موريس ثم اتوجه نحو قابس عن طريق وادي تطاوين ، ومنها ابحر الى تونس وقد عدلت عن هذا المشروع خوفا من الغدامسية الذين يعرفني اغلب اعيانهم بصفتي صديقا للمركيز دي موريس ورفيقا له ، ولن يغيب عنهم التخمين بأنني قادم للقيام ببحث حول الجريمة التي كان ضحيتها .

وباختصار فان البعثة قد قضى عليها على ايدي اشخاص بلا ذمة من توارق ازقر وبعض الهقار والشعانبة بتحريض من اهل غدامس ، وينبغي ابعاد كل رواية اخرى بصفة باتة .

وقد علم تجار غات بمقتل المركيز دي موريس ورفاقه فلم يرتضوا هذا الصنيع ولاموا التوارق واهل غدامس . وهذا على الاقل ما سمعته . ولكنني لا اصدقه ، ويبدو لي ـــ اكثر معقولية ـــ ان سكان فزان وولاية بنغازي واعيان القبائل قد استنكروا بصدق هذه الجريمة المخالفة لتعاليم الدين الاسلامي وللانسانية ، وهم ينتظرون من الحكومة الفرنسية ان تعاقب القتلة بلا شفقة .

وبينما كنت بمرزق علمت ـــ عن طريق التوارق ـــ انهم قد تلقوا رسالة من السيدة دي موريس تطالبهم فيها بدم زوجها ومتاعه ، وان يسلموا لها ـــ في نفس الوقت ـــ المجرمين والا انتقمت منهم حتى ولو لجأوا الى برنو ، واظن ان هذا الخبر قد **اختلقه** قتلة المركيز ، اذ كيف يتصور ان امرأة تنتقم من التوارق .

ومهما كان الامر فان هذه القضية قد تأثر لها اعيان التوارق فاجتمعوا

وبحثوا هذا الموضوع وهم يخشون حاليا انتقام الحكومة الفرنسية وقد اتخذوا الاحتياطات اللازمة .

واول توارق ازقر وهقار هو (انقادازن) ابن اخت (نخونخن) وهو حاليا رئيس جميع التوارق والثاني هو (تكروب) الذي له كلمة مسموعة في القبائل ويعتبر وزيرا ، ثم يأتي اثر ذلك (مولاي) ويتمتع بنفس شهرة (انقادازن) ، وسي (محمد بن نخونخن) ابن الملك السابق ، و (فنيّط بن موسى) ، و (خميدن بن ياونزن) والشيخ (محمد بن ابراهيم) وهؤلاء الثلاثة لهم اعتبار ومعرفة جيدة بشؤون التوارق .

وهذه الشخصيات السبعة تمثل رؤساء التوارق الذين يضعون القوانين ولا يتأخر احد اطلاقا عن استشارتهم عندما يحدث حدث خطير في الازقر او الهقار ، لا يتخذون أي قرار الا بعد تفكير طويل ويتصرفون دائما بأكبر قدر من الحذر ، ولايضطربون ابدا او ينفعلون او يتحدثون بطريقة غير معقولة ، حتى عندما يكونون تحت تأثير حدث سيء .

وقليل منهم من يعرف القراءة والكتابة ، وتتألف كتابتهم من علامات مصطلح عليها لا يعرفها الا بعض اعيانهم ، وتستخدم أيضا الحساب ، وتتمثل هذه الكتابة في علامات مختلفة تشبه خطوطا او دوائر متقاطعة ولكنها لا تسمح لهم بالتفاهم فيما بينهم بصفة كاملة مثلما تستطيع ذلك الكتابات الاخرى المشتملة على الاعراب والتصريف والافعال ومشتقاتها .

وعندهم اعتبار كبير للعلماء ، ولسلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخاصة من كان منها معتنقا للطريقة السنوسية .

ولا يعرف التوارق الركوب على الخيل .

والرئيس الكبير لقبيلة الفوغاس الذين يوجدون بين توات وغدامس هو (بوفنّيط) ويدعى احد رؤسائهم المشهورين اكثر بالسرقة (انكروب) ،

وجميع الاعمال السيئة التي يمكن ان تقوم بها هذه القبيلة تقع طبقا لاوامر (بوفنيّط) او على الاقل بموافقته ، ويتمتع هذا الاخير بتأثير كبير على قبيلة الشعانبة .

وقد قدم فرنسي منذ اربع سنوات الى غدامس لشراء ناب الفيل ، فاشترى خمسة أحمال ، ولما علم بذلك التوارق ، وبعض التجار الطرابلسيين لاموا تجار غدامس وأوصوهم بأن لا يبيعوا شيئا لهذا الرجل لانه يتعود بالربح ويجلب معه ــ فيما بعد ــ فرنسيين آخرين يستحوذون على تجارة البلاد ، وقرروا ايضا ان يوقعوه في كمين ، لكن الفرنسي ادرك قصدهم فرجع الى طرابلس واشتكى للوالي راسم باشا ، فأرسل هذا الى قائم مقام غدامس امرا بتوبيخ منظوريه لانهم ارادوا تعطيل هذا الاجنبي عن تجارته ، وباعلامهم ان عليهم ــ كلما اتى الى بلادهم تاجر او مكتشف اروبي مهما كانت جنسيته ــ احترامه وعدم اعاقته عن اعماله والا تعرضوا لعقاب شديد ، نظرا الى ان افعالا كالتي ارتكبوها مناقضة للقوانين المتعارفة بين الحكومات الصديقة ، فامتثل اهل غدامس ظاهريا لهذه التعليمات لكن طاعتهم لم تكن عن اخلاص .

وكنت تحدثت عن شجاعة التوارق ، وعن عددهم ، وطريقة قتالهم ، وكل ما ذكرته قد تحققت من صحته بصفة دقيقة .

وجميع القبائل المجاورة للتوارق معادية لهم . وخاصة سكان فزان ، وأما اهل تبو فقد خاضوا قتالا ضد التوارق سنة 1305/(1887 ــ 88) قتل فيه ما يقارب 300 تارقي (13) وللتوارق اعداء آخرون ، وهم انصار سيدي المهدي وتوجد عداوة بين التوارق واهل ودّاي ، ولن تنتهي هذه العداوة قريبا ، لان سكان وداي قد تعرضوا عدة مرات لهجومات التوارق الذين لم يفلحوا رغم ذلك في نهبهم ، ونعرف من جهة اخرى ما بين التوارق والجزائريين والتونسيين .

13) لقد ذكر قبل هذا ان التوارق خسروا في هذه الحرب 700 رجل .

وأما اهل غدامس فاكتفي بالقول ان صداقتهم للتوارق ليست مخلصة ، وأما توات والمغاربة فهم ــ بلا انقطاع في خصام مع الهقار .

وفي هذه القبيلة الاخيرة يوجد شخص يدعى (خراجي) ذهب سنة 1304 (86 ــ 1887) الى بلاد تقع بين توات والمغرب وذكر لسكان البلاد انه يرغب شراء بندقية جيدة يدفع مقابلها ــ اذا لزم الامر ــ مائة مثقال من الذهب وقد اخذ في مد هذا المبلغ أمام أعينهم ، ولما شاهدوا ذلك قدم له جميع من يملك سلاحا بندقيته وكلما اخذ بندقية في يده انتزع منها زنادها كانه يفحصه ، وعندما تحقق تقريبا من انه لم تبق بندقية واحدة في المدينة امر الاشخاص الذين كانوا يرافقونه وعددهم عشرون بمهاجمة اهل البلاد فوقع سلب جميع ما يملكونه او يكاد ، وقتل الكثير منهم ونهبت ابلهم ، والحرب عند هذه الشعوب هي دائما مطبوعة بالحيلة والغدر .

ويخشى جميع التوارق (خراجي) هذا وكان وصل ذات مرة الى غات فوقعت معاملته بكرم وطلب ان يزور ثكنة الجنود ففحصها بانتباه وعند رجوعه لبلده قال : ايها الازقر والهقار مادام في بلادهم هذا الحديد الضخم (يعني المدفع) وهذه البنادق المصقولة فلن تكون لكم راحة في منازلكم .

وعليّ ان الاحظ هنا انه لا يصعب ابدا على أي قبيلة عربية ان تعاقب هذا الفرع او ذاك من التوارق ، ومن باب اولى واحرى ، لا يكون ذلك صعبا على قوة عظمى ، فإذا ما ارسلت الحكومة الفرنسية لقتالهم 500 جندي محكمي التدريب وحسني القيادة ومعهم عشرة مدافع من الطراز الحديث و300 فارس عربي ذوى اقدام تحت قيادة قائد تعلم فن الحرب العصرية ، فان هذه الحكومة ــ تقر ــ بلا صعوبة ــ سلطتها على جميع قبائلهم ، وفعلا فانهم لا يعرفون القتال الا بالسيف ، ولذلك لا يمكنهم الصمود امام البنادق الحديثة ، وهم مدركون على كل حال ضعف

سلاحهم ، وانه لمن الخطأ ان تظن فيهم الشجاعة فطبعهم يحملهم على الاستسلام ، وعددهم ليس معتبرا فلا يتجاوز تسعة الآف حسبما اكده لي اشخاص ثقات .

واذا ما نظمت حملة الآن ضدهم يكون من الميسور للغاية قهرهم لانهم مصدر كبير للمشاكل مع الحكومة العثمانية بسبب اعمالهم السيئة التي ارتكبوها اخيرا ، خصوصا ضد المركيز دي موريس ورفاقه ، وهم على كل ينتظرون حاليا ــ ارسال فرنسا لجيوش ضدهم واذا ما اعترض علي بأن عملا كهذا لن تكون له أي نتيجة لان التوارق عندما تطاردهم جيوش منظمة يلتجئون الى الصحراء تاركين اعداءهم غارقين في مشاكل بلاد بلا موارد ، فانني اجيب بأن جيشا مكلفا بمعاقبتهم يكون عليه اولا ان يستقر في حدود غدامس وغات ، تبعا للشروط التي لا بد من ضبطها بين هذا الجيش والحكومة العثمانية ، وأول هذه الشروط هو ان تمنع هذه الحكومة على التوارق الاقامة فوق ارضها وعندها يبقون في شدة في جهة صحراوية بما انهم لن يتمكنوا من العودة الى غات حيث لن يمكنهم الصمود في وجه الجيوش ، وبذلك يقع القضاء على وسائل عيشهم المتمثلة في كراء دوابهم بغات لقوافل السودان .

ولا ينبغي الاعتقاد ان احدى القبائل ستنجدهم لانهم قد ارتكبوا تعديات مفرطة تجاه جيرانهم فلا يمكنهم ان ينتظروا منهم شيئا ولا تنتظر الشعوب التي فرضوا عليها الاتاوات الا فرصة الانتقام منهم ، وهي مرهفة الاسماع ــ بلا انقطاع ــ الى صليل الاسلحة الفرنسية ، وبمجرد ان يظهر جيش ، فان رؤساء التوارق الذين يعول عليهم ، والذين بايديهم الحل والعقد سيتسارعون للتقدم امام قائد هذا الجيش ليسلموا له المذنبين ، ويعيدوا اليه ما وقع نهبه من الرعايا الفرنسيين وتعقد معاهدة صداقة بين الامتين ، تصبح بفضلها شعوب الصحراء والتوارق وغيرهم حلفاء مخلصين لفرنسا ، ويمكن ان يتسرب هذا التحالف الى اقاصي السودان

وربما امكن الحصول على هذه النتيجة دون ان يكون على الجيوش الفرنسية اطلاق رصاصة واحدة ، وأجيب من يقول : ان هذا الكلام غير معقول ، بانني لا اعبر عن رأيي فقط بل اعرف ان سكانا آخرين في هذه الجهات يرون رأيي ، واني اعيد — بالنسبة لمن يعرف الوضع — بأنه من المؤكد ان عملية كهذه لا تتطلب اطلاقا جيشا ضخما واستدل على ذلك باستلاء رابح على برنو ، اذ لا يمكن نسيان ان جميع شعوب الصحراء السودانية متشابهة .

وقد روى لي محمد بن علوة وشقيقه سي الحاج عبد الله القضية التالية . وهما من اعيان مرزق ، وقد ذهب عبد الله الى برنو اكثر من خمس عشرة مرة :

« قدم رابح من السودان المصري ، وكان عبدا لشخص يدعى (الزبير) وهو متوفى حاليا ، وبعد ان استولى على (باقرمي) بجيش يعد 400 رجل على اقصى تقدير ، وقع انتدابهم من عدة جهات وسلحوا ببنادق ذات طلقتين بالكبسولة ، ووصل بهم الى مسافة نحو سبعة ايام عن برنو وكتب من هناك الى الشيخ الذي كان حاكما على المدينة يعلمه بأنه سيصل بعد سبعة أيام ، وأضاف : بأنه — تبعا لذلك — فإما ان يغادر الشيخ البلاد ويسلمها له او يدافع عنها ، وعليه ان يختار بين هذين الامرين .

وعندما وصلت الرسالة الى الشيخ استشار الاعيـان ، ثم قرر ان لا يهرب قبل ان يحاول الدفاع ، وارسل لمواجهة رابح قسما من محاربيه من بينهم خمسة تجار طرابلسية مستقرين ببرنو ، فساروا ووصلوا الى بحر يسمى (تشاد) (14) وعند غروب الشمس شاهد احد الطرابلسيين الذي كان يتمشى على شاطىء هذا البحر — اشياء تسبح من بعيد ، ولم يكن متحققا من انهم رجال ، فتابع مراقبتهم بينما كانوا يقتربون منه ،

14) هي بحيرة تشاد المعروفة .

وسرعان ما زايله الشك فنادى رفاقه الذين فهموا انهم جنود رابح بصدد اقتحام الضفة ، واقبل الليل فتمركز كل منهم في مكانه ولكن اهل برنو اتجهوا الى بلادهم ـــ بعد قليل ـــ تحت جنح الظلام تاركين اسلحتهم وامتعتهم ، وفي صباح الغد استحوذ جنود رابح على ما تركوه ، وقد لاحظوا اختفاءهم . ثم كتب رابح رسلة ثانية الى الشيخ : « سأكون في برنو بعد ثلاثة أيام فاختر بين الامرين اللذين أقترحتهما عليك ، ولا تحاول القول بأني سأغدر بك » .

فأعلم الشيخ والجنود بهذه الرسالة ثم خرج بنفسه لمواجهة رابح ، وتوقف على مسافة يوم من المدينة في انتظار انصاره لكن احدا منهم لم يأت ، ولما تحقق من تخاذلهم جمع اقاربه وابناءه وكل ما يملكه من ثمين وفر اثناء الليل ، ودخل رابح المدينة ، بلا قتال ، وسمح لجنوده بنهب الجهات المجاورة لمدة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع وضع جنديين امام كل منزل يملكه احد الاعيان ثم استقر في قصر الشيخ وتقبل فيه ولاء السكان الذين اعترفوا به ملكا .

وبعد ستة ايام اعلم التجار الطرابلسيين بان عليهم ان يسلموه كل الاسلحة التي يملكونها فأرسلوا اليه قسما منها وأخفوا البقية فعلم بذلك وطالبهم بالاسلحة التي اخفوا فاطاعوا أمره وبعد ثلاثة ايام طلب منهم ان يحضروا له الف قطعة (عنبرقيز) والف قطعة (محمودي)(15)للباس جنوده فاجابه الطرابلسيون انهم لايملكون هذه الكمية ولكنهم يعترفون به سيدا واميرا وانهم مهما كان الامر ـــ سيكسون جنوده بما يملكون ، وأرسلوا له اثر ذلك 500 قطعة من كل نوع من القماش ، وبعض هؤلاء الطرابلسيين قد ذهبوا مع الشيخ حاملين كمية

15) اسمان لنوعين من الاقمشة القطنية (المترجمان) .

كبرى من البضائع ، وقد اتفقوا على تقسيم بضائعهم قسمين : يحملون أحدهما ويبقى الثاني في برنو ، فاذا تمكن الشيخ من النجاة ، وقع تقسيم البضائع التى وقع انقاذها بينهم جميعا ، واذا نجت البضائع التي بقيت في برنو وحدها وقع تقسيمها ايضا بين الجماعة .

وفي اليوم الثالث من احتلال برنو ارسل رابح فرقة في اثر الشيخ ورفاقه ، وطارده مدة ثلاثة وثلاثين يوما في الصحراء ، ولما رأى الشيخ انه سيقبض عليه تخلى عن جميع بضائعه ونجا وحده على فرسه ، ولا يعلم مقره . وعاد الجنود الى برنو ببضائع الشيخ واقواته فاستولى عليها رابح ودفع هذه الغنيمة للتجار الطرابلسيين ثمنا للاقمشة التي تسلمها منهم .

وبعد وقت قليل غادر رابح برنو وترك مكانه خليفة وتوجه نحو مدينة (مندرة) فامتلكها وشيد فيها مسجدا كبيرا وكتب — اذ ذاك — الى التجار الراغبين في العودة الى بلادهم رسائل يمكن ان تكون لهم جوازات مرور اثناء طريقهم ، ووعدهم بالامان لاملاكهم في المستقبل ، وطلب منهم ان يجلبوا له بضائع .

وفي سنة 1896 خرجت ثلاث قوافل من طرابلس متوجهة نحو رابح عبر طريق (كاوار) وقد صادفت الاولى بمرزق والثانية بسبها والثالثة ببلاد (دليم) .

ووصل في نفس السنة من السودان الى غات عدد من اعيان التجار الغدامسية وكانوا يقيمون بكانو منذ ثماني عشرة سنة ، وصلوا اثناءها الى مكانة طيبة جدا ، وكان لاحدهم يدعى (ابن حمود) بكانو اربعون قطا من النوع المنتج للزباد ، يملكها لحسابه الخاص وتنتج له يوميا كمية كبيرة من الزباد السوداني دون اعتبار ما كان يشتريه من الزباد من التجار الاخرين .

وفيما يخص تقاليد التوارق اضيف انهم يحترمون نساءهم مثلما يفعل الاروبيون ، وطعامهم خشن فهو يكاد يتكون فقط من الذرة البيضاء والتمر المضغوط (16) الذين يصنعون منهما مرطبات بيضوية الشكل ، وهذا التمر يشكل افضل الوان طعامهم ، وليس لديهم زيت ، وعندما يحصلون مصادفة على بعض الزبدة يبيعونها في مرزق للاتراك ، ويستهلكون كذلك لحم الابل المجفف والمحفوظ ، ولكن لا يقع نحر هذه الحيوانات الا عندما يقترب اجل موتها الطبيعي .

وقبائل التوارق الرئيسية هي (الكلتوبرنو) و (اليوراغن) و (الغزاذن) و (الايجانازن) و (الفوغاس) و (امتريبالان) و (العواين) و (الازقيراتن) و(الكلتونن) و (الافيلالا) و (الاواروارن) و (المنغاراسن) ، وجميع هذه القبائل تسمى بصفة عامة (ازقر) و (هقار) .

واني اعتبر ان تحالفا بين شعوب الصحراء والفرنسيين لا يكون ممكنا الا بكسب مودة التوارق (الازقر) و (الهقار) غير انه لا يمكن الحصول على هذه النتيجة بواسطة الدبلوماسية وانما تكون العروض المسلحة واحتلال غات وغدامس ضرورية ، وينتج عن هذا الانتشار للقوات ، خضوعهم لفرنسا ، وعندها يتكون بينها وبينهم تفاهم ، يكون من نتائجه تحالف مع شعوب الصحراء الاخرى .

وكنت ذكرت انهم سيخضعون حالا عند اول خبر بوصول جيش قادم لقتالهم ، وكل ماروي عن عددهم وشجاعتهم غلط ، فهم جبناء وسيئو التسلح .

---

16) المحشو حشوا متينا في الجلود او الاكياس او الاواني الاخرى .

وعدا الطريقة التي ذكرتها لن يوجد اي تفاهم ممكن بالنسبة لفرنسا مع شعوب الصحراء . واضيف ان التوارق ليسوا محل أي ثقة لدى الحكومة العثمانية ، وقد تيقنت من انه لا يوجد بينهم وبينها أي صلة سياسية(17).

17) وعلى كل فالحكومة الفرنسية لم تول تحريضه على مقاتلة التوارق أي اهتمام والحمد لله على ذلك . بل عولت في سبيل امتلاك بعض قبائلهم على الدبلوماسية ، او المناوشات العسكرية المتقطعة لانها تدرك ان الحملة العسكرية القوية التي يشير بها الحشائشي مئالها الفشل والاضمحلال . والحشائشي لا يعرف اهوال الصحراء ، والموت الذي يترقب مقتحمها في كل لحظة متمثلا في العطش والجوع والهوام السامة ، والرياح العاتية حرا او زمهريرا .

الفصل السابع

الصحراء الطرابلسية وسكانها

نبات الصحراء الطرابلسية وحيواناتها ومنتوجاتها ـ الفزان سكانه ـ تجارة غدامس ـ سيطرة اهل غدامس على تجارة غات ـ علاقات غدامس بتونس ـ طبع اهل غدامس ـ العلاقات التجارية بين السودان وتونس ـ السودانيون بتونس : عاداتهم ـ نصائح للمكتشفين ـ الطريق الواجب اتباعه من طرابلس نحو السودان ـ ارشادات مجموعة من الاهالي حول المكتشفين الذين زاروا الصحراء الطرابلسية ـ اسباب نجاحهم أو فشلهم .

يوجد في بلاد طرابلس مناجم كثيرة ، ففي سرت نجد حجر التوتيا ، والكبريت ، والفسفاط ، وفي جبال (زكيم) الواقعة غربي سوكنة والمعروفة باسم الجبال السوداء ، يوجد الحديد ، وشيء من الفحم الحجري ، وفي هذه البلاد ايضا مقاطع رخام من الصنف الرفيع ، وأما الرخام العادي فيوجد في جبال ودّان ، وقد اتيح لي في كثير من المرات مشاهدة قطع عظيمة من هذا الرخام المتنوع على طول طريقي، ويوجد أيضا في طرابلس ملح النطرون الذي يستخدم خاصة في تخثير اللبن ، وشمالي فزان توجد سبخة من النطرون تستخرج منها الحكومة سنويا الف حمل اي 4000 قنطار تباع بطرابلس ، وتوجد بغات سبخة اخرى ولكنها ليست مستغلة ونصادف في فزان اودية وسباخا ملحية ، وفي غات توجد مناجم من الاثمد .

والنباتات التي توجد في بنغازي وطرابلس والصحراء الشرقية ،

والصحراء الوسطى هي التالية : العرفج (1) وهو نوع من الاشجار الشوكية (2) التي تنمو في السهول ، والزرب وهو شجرة شوكية تستخدم للتسييج ، والشجر المسمى بالجداري ويسمى ثمره (دمغ) ، والسنط ، والوزال الشبوكي ، ونوع من الحميض المسمى حماضة ، والفاسوخ المستخدم في الصباغة ، والصعتر ، والاكليل ، والنبات المسمى الرمث ، والحنظل وفي هذه الجهة توجد اغلب الاراضي التي تقطعها الابل .

وفي شمالي الاراضي الطرابلسية توجد جهة معروفة باسم (وادي بني وليد) يمثل امتدادها عشرة ايام سيرا وهي مغروسة زيتونا ، وتينا ، ونخيلا ، وارض هذه الجهة صالحة للزراعة ، ويملك فيها كل فرد برسوم قانونية ، بينما لا يصادف في أغلب جهات طرابلس والصحراء سوى الرمل والحجارة ، ويمكن ان يسير فيها الانسان طيلة اربعة او خمسة ايام دون ان يشاهد عشبة واحدة او قطرة ماء .

وفي هذه الجهة نفسها توجد وحوش ، والكثير من انوع الطيور والزواحف السامة ، فيوجد فيها الضبع ، وابن آوى ، والثعلب ، والظربان ، والقنفذ ، والارانب والغزلان كثيرة فيها ، كما يوجد بقر الوحش بالقاف بين سوكنة وزيغن ، ويوجد فيها ايضا النسور وبعض النعام وعدد وافر من الحجل ، وخاصة بين مصراته وبونجيم ، وكذلك الزرزور ، وابو الرؤوس ، والقبرة ، والبلبل في بعض الاودية ، والغربان ، والحمام ، واخيرا توجد فيها الثعابين والافاعي العادية ، وافاعي الجبال ، والورل ، والعقارب ، والنمل الاسود ذو الحجم الكبير ، ونمل أحمر صغير ، والجعل ولا يوجد البعوض ولا البرغوث ولا البق الا في القرى ، لكن القمل يكثر في كل مكان ، وكذلك ذباب الخيول المسطح الشكل .

---

1) العرفج المعروف ليس شوكيا وانما توجد حروشة في ازهاره

2) هنا تعليق للمترجمين يهم الفرنسيين ومضمونه انهما يضعان الاسم العربي للنبات اذا لم يوجد له مقابل في الفرنسية .

وينبغي ان نلاحظ ان المسافرين في هذه الجهات ، لا يحتاجون لحمل الحبوب لابلهم لانها تجد طعاما كافيا في نبات الارض ، والابل المتعبة هي وحدها المحتاجة لعلف اقوى .

والرياح الغالبة هي : الرياح الغربية والشمالية في الشتاء والجنوبية والشرقية في الصيف ، لكن الشرقية حارة مثل الجنوبية ، والرياح الغربية رطبة وتحمل الجليد .

وتوجد في (بيلمة) ببلاد كاوار ملاحة كبرى يأتيها اهل السودان للتزود منها ، ويجتمع حول هذه السبخة في بعض الاحيان 80.000 جمل ، ويدفع الذين يأتون لاخذ الملح في هذا المكان ضريبة بفرنك عن الجمل الواحد لفائدة اهل البلاد والاعيان ، ولكن على الرغم من ذلك يقع التزود منها يوميا ، لان ابل السودان تموت اذا لم تأكل الملح سنويا .

وحالات مرض الحمّى كثيرة جدّاً في الصحراء الشرقية والصحراء الوسطَى وفزان ، وقد لاحظت فيها ايضا امراض العيون وخاصة بين بنغازي وغات على طريق فزان .

وتقع تجارة التصدير والتوريد بفزان وغات في البضائع التالية : جميع الاقمشة القطنية البيضاء والمحمودي ، والعنبرقيز من انواع كثيرة ، والاقمشة القطنية المصبوغة من النوع المالطي او غيره ، والسكر ، والشاي ، والورق الابيض والاسود ، وبرانس الاقمشة ، والملابس المصنوعة من القماش التي تصنع زخارفها (3) بتونس ومختلف انواع الشاشية للتوارق والقرمسود (وهو قماش هندي تصنع منه جبة الصيف) في فضلات او مجهز ، وحائك الحرير ، وحائك الجريد ، وسفساري (ازار) قفصة وتوزر ، وعطر الورد ،

---

3) يقصد بالزخارف : التطريز في الملابس النسائية ، والتعمير بالنسبة لملابس الرجال

والخشب الاسود المعطر المسمى (قماري) ، وماء الكولونيا ، والمسك ، والاسلحة الحديثة للسودان ، والخواتم ذات فصوص العقيق للاغنياء والاعيان ، والاساور ، وجميع انواع الحلي الزائفة والحقيقية ، وعقود اللؤلؤ الزجاجي الملون ، واللالىء الملونة المنفصلة لصنع العقود ، والخلاخيل الفضية ، والخيوط من جميع الاحجام للابر ، والسكاكين الصغيرة (مطواة) والمقصات ، والحرير مختلف الالوان ، والشاشية والبرنس المصنوعان آليا ، ومختلف التوابل والافاويه التي تباع في سوق القرانة بتونس ، مثل الفلفل الاحمر ، والفلفل الاسود ، والقرفة ، والزعفران الخ ، والمناديل القطنية ذات الالوان المختلفة للعرب ، والمناديل الحريرية ، والقماش من مختلف الانواع ، والساعات الخشبية الكبيرة ، والاقفال الحديدية ، والسبح ، والعصي ذات السيف ، والمرايا من جميع الاحجام ، وطواقم الشاي من الصنف الرفيع والعادي ، والروز (وهو شاش فيه نقط بيضاء صغيرة) بالفضلات (4) والهندية ، والصابون الاروبي بمختلف اشكاله ، والعطور ، والطبنجات ، والسفاسر الصوفية المخصصة للنساء ، والاقمشة المطروزة بالفضة ، والمحابر ، واخيرا القمح والشعير ، والزبدة المملحة ، والعسل ، والشحم مهما كان نوعه (شحم البقر ، والضان ، والابل) وجميع هذه البضائع التي تصل غات مع القوافل تباع بكثرة وهي مطلوبة جدا .

وقد كانت ولاية فزان ، في الماضي مستقلة وكان يرأسها رجل من قبيلة اولاد محمد ، وكان مقر الحكومة ــ آنذاك ــ بمرزق حيث لا يزال يوجد افراد من هذه القبيلة المحتفظة بالسلطة طوال 500 سنة الى مجيء يوسف باشا سنة 1244 هـ (28 ــ 1829)

ويشمل فزان ما يقارب 300 قرية ، ويحتوي على عدد لا حصر له من

---

4) الفضلة من القماش هي لفة كبيرة ذات عشرات من الامتار

النخيل ، ويقوم اهل طرابلس وبنغازي وسكان الصحراء وكذلك التوارق بتجارة هامة في التمر .

والفزانيون ذوو طبع اقرب الى الجبن . وهم فقراء ، وفعلا اذا طرحنا الواحات فان اراضيهم الرملية والواقعة على هضاب جرداء ، لا تصلح للفلاحة ، وليس لهم قطعان من الحيوانات لنفس السبب ، وهم ينتقدون الأتراك باستمرار لأنهم يثقلون كواهلهم بالضرائب حسب رأيهم .

وترتفع الحرارة في الصيف احيانا الى 48 درجة ، وتنخفض جدا في الشتاء فيشتد البرد ، ويتجمد الماء من اكتوبر الى فيفري عندما تهب الرياح الغربية .

ويمارس الرق علانية ، وعندما تعلم الحكومة ان رجلا يبيع عبيدا تأخذ منه هدية هامة ولا يقع تتبعه .

ويسافر عدد كبير من الفزانيين للبحث عن وسائل العيش ببنغازي او طرابلس او تونس وعند رجوعهم تأخذ ادارة الضرائب المال الذي كسبوه لتسديد مخلفات الضريبة المسلطة على النخيل اذا كانوا يملكون نخيلا .

وتمارس الأحكام طبقا لقانون (المجلد) وهو كتاب يتناول الأحكام الدينية حسب المذهب الحنفي ، ويوجد في المدن الكبرى قاض تركي .

والميول السياسية لأهل فزان فرنسية ، ويتجه ودهم الخفي والظاهر نحو الشعب الفرنسي لأنهم مقتنعون بأن هذا الشعب تحركه مشاعر العدالة وحسن المعاملة تجاه الشعب العربي ، وهم يعلمون ان شعوبا عديدة قد وجدت في مخالطة الفرنسيين يسرا ورخاء . ورأت النظام يستقر في بلدانها ، ولهذا السبب لا يتحدث احدهم عن امة اخرى غير الامة الفرنسية .

ولم يسمع اهل فزان قط الا **بقوى ثلاث** : فرنسا وانكلترا وايطاليا ،

وهم يميلون الى الفرنسيين ، لأن اغلبهم يأتون للعمل في تونس حيث يتعرفون على هذه الامة التي يقدرونها لحبها للعدل ولطريقة تصرفها مع العرب ، وعند عودتهم الى بلادهم ينشرون هذه الأفكار في قبائلهم التي هي متشبعة جدا بها مثلما لاحظت بنفسي ، ولكنهم لا يجرؤون على اظهار عواطفهم بسبب الاتراك .

وينبغي ان ألاحظ هنا ان جميع الرعايا التونسيين يعتبرون في الاراضي التركية رعايا للعثمانيين ، ولا يمكنهم ان ينتموا الى القناصل الفرنسيين وليس الامر كذلك بالنسبة للجزائريين ، ولهذا اظن ان من مصلحة الحكومة الفرنسية بعث قنصليات بمرزق ومصراته في اقرب وقت ممكن .

والمودة الوحيدة التي تتجه نحو الامة الانكليزية في فزان هي مودة المالطيين والأشخاص المنجرين معهم ، وأما ايطاليا فلا يراها بعين المودة الا افراد الشعب في طرابلس فقط ، وفي الجملة فان جميع العرب الطرابلسيين الذين سافروا الى تونس او الجزائر يعرفون ان للفرنسيين مشاعر ودية نحو المسلمين ، واما اليهود فيحملون نفس الأفكار وتتجه ميولهم نحو فرنسا .

والشعوب التي كانت لي معها افضل العلاقات هم السنوسيون ، واهل فزان عامة .

ولغدامس علاقات متينة مع تونس ، ومنذ مجيء الموحودين يعتبر الغدامسية تونس وطنهم فهي امهم الحنون التي يدينون لها بثرائهم وعلومهم وتربيتهم مثلما يتجلى ذلك في التاريخ ، ومدينة غات مرتبطة ايضا ، في جميع مصالحها بتونس .

وقد كان سكان هاتين المدينتين في الماضي يدفعون لملوك تونس اتاوة ، سنوية متكونة من الخطايا والزنوج ، والزباد ، وناب الفيل الخ ... ويتلقون مقابل ذلك هدايا متمثلة في السيوف والأقمشة والسكر والشاي .

وهذه كيفية قيام الغدامسية بتربية ابنائهم : عندما يبلغ هؤلاء سبع سنوات من العمر ويحفظون نصيبا من القرآن ، يرسلونهم الى تونس للقيام بالتدرب على التجارة وهناك يتعلم هؤلاء الشبان معرفة قيمة المال ، وينمون ذكاءهم ، ولهذا كانت عقول جميع الغدامسية متفتحة غير منغلقة ، وهم اكثر ذكاء من اليهود انفسهم في شؤون التجارة ، ولكنهم لا يأكلون اطايب لطعام ، ويجهلون ترف اللباس ، وهم يستخدمون جميع اموالهم في افتناء العقارات ، فهذا التاجر الذي يملك ثروة تبلغ المليون يرتدي ملابس لو بيعت لما بلغت فرنكا واحدا . وعندما يتحصلون على ثروة بتونس يعودون الى بلادهم بكمية من البضائع التونسية تتناسب اهميتها مع امكاناتهم ، ثم يسافرون الى منطقة السودان عبر غات ومن ذلك الحين يتبوؤون مركزا بين اعيان التجار ، وهم يتصرفون على هذا النحو منذ زمن طويل ، ولا يعرفون طرابلس ولا الجزائر ولا توات ، والمثل السائر عندهم : (غدامس تلد وتونس تربي) او جملة مضمونها : (قم بتجارة العبيد وبع في السودان زجاج تونس ، واقطع باستمرار الطريق بين تونس وغات حتى تنعى لوالديك) ، لأنه من الشرف عندهم ان يموت المرء في هذه الظروف .

وباختصار فإن تونس هي المدينة التي يفضلها الغدامسية وتستهويهم اكثر .

وهم يكرهون جميع من ليس من جنسهم ، واذا شاركوا اروبيين احيانا ، فلن يكونوا معهم على حسن نية ، وهم حادو المزاج ، عنيدون ، غشاشون ، ولا يمكن التعويل عليهم الا اذا ارتبطوا بالتزام كتابي ، وحتى في هذه الحالة يكون ذلك عبثا احيانا ، وهم يكرهون الأجانب وخاصة المكتشفين ، وربما بلغوا حد اعداد الكمائن التي يذهب هؤلاء ضحيتها . ولهذا ينبغي التحذر منهم ، وهم من المسلمين المتعصبين فلا

يفهمون كمال الاسلام وسياسته الشرعية (5) وهم متكبرون يظنون انفسهم اشرف من جميع الاجناس العربية ، وليس خضوعهم للأتراك الا ظاهريا ، واذا مال بعضهم الى فرنسا فان ذلك بدون اخلاص ، وهم يرغبون في اقامة علاقات معها قصد الإثراء من التجارة فحسب ، اذ يعلمون ان الفرنسيين اغنياء . ويضع بعضم نفسه تحت حماية فرنسا لأنه يعلم انها عادلة ازاء رعاياها ، ولا تطمع في املاكهم ، ولما كان لفرنسا املاك في السودان فهم يرون ان من مصلحتها ان تظهر الود للغدامسية ، بسبب مكانتهم التجارية في هذه الجهات ، وتأثيرهم في القبائل

وفعلا ، فمن المحقق ان الغدامسية يتمتعون بتأثير بالغ في السودان وفي الصحراء ، وانهم احتكروا تجارة هذه الجهات بصفة مطلقة .

ويستنتج من المحادثات التي كانت لي مع اعيان مرزق وغات ان الغدامسية هم أول الامم التي عرفها السودانيون ، ولم يكن اهل السودان — منذ ثلاثين سنة — يعرفون رجالا آخرين من الجنس الابيض غير سكان غدامس ، ولا توجد قرية واحدة في هذه الجهة لا يصادف فيها تجار من هذه المدينة ، واغلب تجار غات ، وهي مرسيليا الصحراء هم من الغدامسية ، وهم جميعا اثرياء ، وبفضل ثروتهم يتحكمون في ابواب السودان الذين يربطون معه علاقات صداقة منذ زمن طويل ، وسأستعرض مختلف مناطق هذه البلاد مع ذكر الغدامسية فيها ، وسيرى القارىء انهم يسيطرون فعلا على جميع التجارة .

لقد كان الحاج محمد الثني الغدامسي ، وهو تاجر معروف جدا ، رفيق الشيخ سيدي محمد المهدي السنوسي عندما وصل الى الكفرة ، وكأنه وزيره للتجارة ، والوسيط الاجباري لكل ما يحتاج اليه الشيخ من

5) أي ما ينتج عن القانون الديني بالمقابلة مع القانون الذي يتصوره الناس المشتغلون بالمكاسب العابرة فحسب (المترجمان) .

اقمشة وارز وشاي وسكر الخ .. وتصل جميع البضائع الى جغبوب عن طريقه ولا يزال الى اليوم يمارس تجارة كبرى مع وداي وبرنو وتشاد وبقية بلدان السودان ، ويكن له الشيخ محمد المهدي صداقة كبرى الى درجة انه زوجه شقيقة زوجته ، وعندما غادر الشيخ المهدي جغبوب الى الكفرة سنة 1312 (94 — 1895) وصل معه الحاج محمد الثني ، وعندما شيد فيما بعد زاويته بالكفرة وبها مسجد ، سمى هذه القرية (غدامس الجديدة) ليظهر مودته للحاج محمد الثني ويذكره وجميع الغدامسية ببلادهم ، وللشيخ المهدي كثير من المحبة لاهل غدامس مثلما ذكرت في بداية حديثي .

وقد تمكنت من وضع القائمة الكاملة (6) للتجار اصيلي غدامس المستقرين في اهم مراكز السودان وهذا ملخصها .

— يوجد منهم ستة في برنو من بينهم : المسمى محمد بن محمد بن ابراهيم صهر سلطان برنو .

— ويعد منهم في التشاد اثنان

— وبزندر ستة

— وببلد بوشبير اربعة

— وبغات اربعة وعشرون

— ولا يوجد بوداي سوى واحد هو محمد الصياح ، وهو شخص معتبر يتمتع بتأثير كبير . ويقوم بدور شبه وزير لدى سلطان وادي .

6) يعطي المؤلف جميع أسماء هؤلاء التجار ، لكن لم يبد لنا من المفيد أن نثبت هذه القائمة كاملة (المترجمان)

— **ويعد** بكانم منهم اثنان

— **وبمرزق** اثنان

وببلد دامرغو : ستة من بينهم الشيخ محمد البشير الوحشي ، وهو شخص معتبر يتمتع بتأثير كبير بين الغدامسية .

— وببلد كانو : تسعة عشر من بينهم : الشيخ محمد بوزمالة وهو شخص له اعتبار وزير لسلطان كانو ، وعلي بن بركة وهو عبد زنجي للتاجر محمد بن ابراهيم الثني ، والتاجران حماد وزبرمة عتيقا الحاج علي بن أحمد الثني .

— وببلد نو ثلاثة .

— وببلد زارية ثلاثة .

وبتمبكتو المسمون : حمّو البليلي ، وعبد الرحمان بن كيالي ، ومحمد بن محمد بن علي بن رشيد ، والبشير بن احمد الغنجي ، واحمد بن الحاج ابراهيم ، وهذا في خدمة عائلة الثني ، وحرمو المزغني .

— وبسوكوتو : أربعة

— وينبغي ان نذكر أيضا احد عشر تاجرا معتبرا مستقرين بغدامس ولهم شركاء في كامل السودان ، وقد قاموا بعدة رحلات الى هذه البلاد ، وعرفوها بصفة كاملة كما عرفوا الصحراء . وهم يقودون قوافل سنوية نحوهاتين الجهتين من ناحية ، ونحو تونس وطرابلس من ناحية اخرى .

— ويوجد اخيرا بتونس 37 تاجرا معتبرا من الغدامسية يمارسون الى اليوم تجارة كبرى الى السودان عبر طرابلس .

والبضائع التي يتلقونها من السودان هي الآتية : التبر والذهب

المستخرج من المناجم . والزباد السوداني ، وناب الفيل ، وجلود الثيران السودانية الضخمة وتعرف باسم (كلابو) ، وجلود الفهود، وجلود المعز وانواع الغزلان المختلفة، والعبيد ذكورا و إناثا . ويبيعون اغلب هذه البضائع بطرابلس لكي لا يدفعوا معاليم القمارق .

والبضائع التي يشترونها من تونس لبيعها في السودان هي :

المصنوعات الزجاجية ، والكتان المنسوج وغير المنسوج ، والحرير الخام والمنسوج ، والمنتوجات الصوفية (اللفة) فضلات او جاهزة ، والسيوف ، والشواشي ، والبنادق ،والاقمشة الملونة ، والشاي ، والسكر ، واللوبان : وهو صنف من الصمغ يلاك دون ان يبتلع ولا يذوب ، والافاويه، والقرمسود، ومنذ اعوام قليلة بدأ تجار غدامس او — على الاقل — عدد منهم في اشتراء البضائع — التي يشترونها من تونس — من طرابلس .

واعتقد ان تجار غدامس وغات يمكنهم الاتفاق مع التونسيين للقيام بالتجارة في السودان ، واذا اقرت علاقات بن السودان وتونس عن طريق تطاوين ووداي ، فسيكون لهذا الحدث نتائج لا تغيب اهميتها عن احد .

والغدامسية عرب خالصو الاصل ، على الرغم من انهم اعتبروا احيانا من نفس جنس البربر او التوارق ، وقد وقع غزو بلادهم من قبل العرب في عهد فتح افريقية اثناء خلافة عثمان مثلما ينقل ذلك ابن الشباط (7) في تاريخه ، ويوجد في بلدهم قبرا صحابيين هما سيدي البدوي وسيدي عقبة بن عامر .

ومنذ تولى الحفصيون الحكم — وخاصة — منذ عهد حمودة باشا اعتبر الغدامسية انفسهم تابعين للايالة التونسية .

7) محمد بن علي بن محمد شهر المصري التوزري ابن الشباط ولد بتوزر 618هـ - 1221 م درس بتونس وتولى القضاء بتوزر ، من تأليفه (صلة السمط) في اربعة اجزاء وهو شرح للقصيدة الشقراطسية ، وتوفي بتوزر 681 هـ 1282 م

وللتعبير عن مودة حكام تونس للغدامسية نظموا بتونس حرسا من الغدامسية كلف بحراسة المدينة ليلا ، وكان هذا الحرس يسمى (اللواجة) واعتاد حمودة باشا ان يخرج متنكرا بعد مغيب الشمس ليراقب الطريقة المتبعة في الحراسة وكلما مر باحدى نقط الحراسة التي يشرف عليها الضابطية يسمح له هؤلاء بالمرور مقابل بعض القطع الذهبية ولكنه مر ذات مساء امام نقطة حراسة يشرف عليها الغدامسية ، فقبضوا عليه وقادوه الى دريبة الدولاتلي ، فتيقن بأن الغدامسية ينفذون الاوامر باخلاص ولا يقبلون الرشوة . ولمجازاتهم كان يمنحهم سنويا قفيزا من الملوخية (8) وخمسة ثيران ، ووقع الاحتفاظ بهذه المنحة الى منتصف عهد احمد باشا ، وفي ذلك العهد وقع حذفها .

وكنت ذكرت ان الغدامسية لا يعرفون مدنا اخرى غير تونس وليست لهم علاقات مستمرة مع الطرابلسية ولا مع الجزائريين وقد ربطوا علاقاتهم بتونس عبر تطاوين ، وعن طريق عرب الحوايا (9) الذين يسكنون الاعراض ولم يعرفوا طرابلس الا في عهد الوالي الطرابلسي يوسف باشا ، فهم — اذن — ابناء تونس واصدقاؤها ، وقد وفرت لهم سبل الثروة ، ولهذا يعتبر عندهم من لا يذهب الى تونس جاهلا مسكينا .

ويوجد حاليا بطرابلس بعض التجار الغدامسية ، مثل اولاد الثني وغيرهم لكنهم قليلو العدد بينما عدد الغدامسية في تونس يتجاوز 300 وجميعهم اثرياء يمتلكون العقارات ، ومنهم من تتجاوز ثروته المليون .

واذكر هنا ملاحظة شخصية وهي ان الحكومتين التونسية والفرنسية يكون تصرفهما حكيما ، لو اظهرتا المودة للغدامسية لكسب ميولهم نظرا لانهم يمتلكون مفاتيح السودان ، فيمكن مثلا ان يعاد اقرار منحة قفيز

8) نوع من النبات الذي يستعمل افاويه في الطبيخ العربي ، بعد تجفيفه وسحقه (المترجمان) وهذا خطأ اذ ان مسحوق الملوخية يستعمل طبقا خاصا في الطبخ العربي ولا يعتبر من التوابل

9) الحوايا او الخزور : سكان بنخداش من ولاية مدنين

الملوخية والخمسة ثيران التي تحدثت عنها ، ويكون من المفيد ايضا ان يعفوا من المجبى لانهم شديدو النفور من هذه الضريبة ، وفعلا فانهم يعتبرون انفسهم اشرف من التواتيين الذين لا يدفعونها وخلال اقامتي بمرزق وغات اتيحت لي فرصة الاستماع الى آراء اعيانهم في هذا الموضوع ، واعتقد انه اذا ما عوملوا بهذه الطريقة فإن الحكومة الفرنسية ستجد فيهم عونا هاما لتحقيق اهدافها في السودان والصحراء .

والعلاقات بين السودان وتونس قديمة جدا ، وتواصلت منذ تولي الحفصيين الحكم الى اواسط عهد احمد باشا ، وكان تجار غدامس والشعانبة وعرب ورفلة ، وكذلك بعض تجار التوارق يجلبون من اقاصي السودان اعدادا كبيرة من العبيد ويقودونها الى تونس عبر تطاوين حيث يشتريها تجار جزائريون ومغاربة ومصريون . وقد دامت هذه التجارة الى العهد الذي منعت فيه القوى الاوروبية تجارة الرقيق ، لكن الشعانبة والغدامسية واصلوا القيام بها بصفة سرية ، ويذهبون لبيع العبيد في المغرب ويبلغونه باتباع الحدود التونسية الجزائرية ، وعبر توات ويوجد في الايالة التونسية سودانيون كثيرون بعضهم عبيد قدامى وقع عتقهم ، وجاء الباقون الى هذه البلاد بعد منع الرقيق ، وفيها مئات من اصيلي برنو ، ووداي (وهؤلاء اقل عددا) وكانو وتمبكتو ، وسوكوتو ، وكاوار ، وغات واخيرا ينتشر الاف من الفزانيين والطرابلسية في مختلف مناطق تونس ، واهم الاشغال التي يقوم بها عبيد السودان هي بناء الطوابي (10) وترزيم (11) اسس المنازل وردم السقوف ، ونشر الخشب وتكسير الحجارة ، ودق القمح لصنع البرغل (12) وكان لهم في الماضي رئيس خاص يدعى (قائد الوصفان) يحكم بينهم ويرتبط بالباش آغا وقد كان

166

10) هي مرتفع من الطين يكوّن جدارا حول الاملاك

11) أي تثبيتها بالرزام وهي قطعة من خشب متين ثقيل الوزن طرفه الاسفل ضخم او يلصق به حجر أو قطعة حديد تضرب بها الاحجار والاتربة لتثبيتها في اماكنها

12) اكلة معروفة تصنع من دشيش القمح

ايضا رئيس خصيان قصر الباي ، وينبغي جبرا ان يكون هذا القائد زنجيا .

ويوجد بتونس أربع سودانيات زنجيات تسمى كل واحدة منهن (عريفة) وتشتغل لفائدة القبيلة التي تنتمي اليها ، فهناك عريفة (الباقرمي) وعريفة (دارفور) وعريفة (برنو) وعريفة (الواحات الجزائرية) ولهؤلاء العريفات نفوذ روحي على جميع الزنوج وفي بعض الاحيان حتى على البيض ، ولهن حشم يخدمونهن ، وهن يدعين اقامة علاقات مع الجن الذين يدخلون رؤوسهن في الوقت الذي يكن فيه في نوع من ازمة الصرع ، ويتنبأن خلالها بالمستقبل ولكي يدخلن في طور الجذب ينفخن في آلات النحاسية ويقرعن طبولا ، وينشرن فوق كانون النار نوعا من البخور السوداني المعروف باسم (قاجيجي) ، واثناء هذه الحال يذبحن دجاجات دون ذكر اسم الله ليأكل منها الجن وحدهم ، ولهذا السبب كفّرهن العالم سيدي احمد بابا التمبكتي (13) في احدى الفتاوى ، ويعتقد بعض هؤلاء الساحرات اعتقاد عميقا في الجن ، حتى انهن يبلغن الى عدم الايمان بالله ، ولكل عريفة في منزلها مطمورة تدعي انها مسكن الجن ، ويقمن سنويا بزيارة اضرحة بعض الصالحين ، ففي الخريف يزرن سيدي سعد ، ولكل منهن اسبوع خاص لهذه الزيارة، وجميع اتباعهن العاطلين عن العمل ، خاصة حثالة الناس ، وكذلك البدو ، يرافقونهن في هذه الزيارة ، وخلالها يضعون حليا ذهبية وفضية واقمشة حريرية فوق تيس ويتجولون به عبر الشوارع ، ويذبحونه اخر ايام أسبوع الزيارة تقربا الى الولي المزار ، ويذهبون في نفس الوقت الى مرناق في مكان يدعى الدواميس ، وهو حسب زعمهم مسكن الجن واولياء آخرين ، ومن هناك يذهبون الى وادي مليان من جهة ضريح سيدي سعد ، وفي هذا المكان توجد مستنقعات

---

13) الفقيه والمحقق و المؤرخ صاحب (نيل الابتهاج) وغيره من كتب الفقه والتوحيد ، ولد سنة 963 هـ 1556 م وتوفي بتمبكتو 1032 هـ 1622 م .

كونها الوادي ، وهي مملوءة بالضفادع والسلاحف فيطعمها المتجمعون بيضا مصبوغا باللون الاحمر ، وحمصا مقليا مرتين ، وكذلك بعض المرطبات فإذا صادف ان سلحفاة تناولت هذا الطعام من يد شخص كان ذلك دليلا على ان زيارته كانت محل قبول ، وعاد الى منزله مبتهجا جدا ، وهذه المعتقدات هي نتيجة الجهل الذي يسود الزنوج الفاقدين للذكاء فطرة ، وقد كنت كتبت مؤلفا يروي بالتفصيل طريقة عيش السودانيين في تونس ، واني أحيل عليه الراغبين في الوصول على بيانات اوسع حول هذا الموضوع (14) ولكني اعتبرت من المفيد ان اذكر هنا بعض الخصائص التي قد تفيد القارىء .

يستنتج من جميع ملاحظاتي ان السودانيين — وهم يجهلون الدين بصفة مطلقة — ضحية اكبر الدجل شرا ، واكبر اعمالهم فظاعة هو (الصمباني) (15) وهي حفلة يقرعون فيها الطبول ويضربون الصنوج (شقشقات) ويشربون الدم ، ويأكلون ثمرة اسمها (عزرا) ويذبحون حيوانات دون بسملة (16) ويسجدون للجن ، وقانا الله من هذه الافعال التي يخدعون بها العوام والصبيان والنساء ، وتوجد مثل هذه الحفلة في السودان ولكن بأشكال اخرى .

وحسب ماذكره لي بعض اعيان التوارق فان اهل السودان يعتقدون ان البيض اناس لم يبقوا المدة الكافيةفي بطون امهاتهم ، ولو مكثوا المدة العادية لاصبحوا سودا ولهم كثير من الافكار من نفس هذا النوع ، وكان من الممكن ان اذكر افكارا اخرى لولا حرصي على الاختصار .

وقد حان الوقت للحديث عن بعض المكتشفين الاوروبيين وخاصة

14) لم نذكر هذا الكتاب في قائمة مؤلفاته في المقدمة لأن المؤلف لم يذكر لنا اسمه ولا وجوده له ضمن كتبه المعروفة ولم يذكره في غير هذا المكان .

15) المعروف اليوم الصمباني او السطمبالي : باللام

16) أي باسم الله وهي العبارة الواجبة التي يمكن بواسطتها ان يحل للانسان اكل الذبيحة (المترجمان)

من مات منهم ، وبيان الامكنة التي سقطوا فيها ، والتعريف بالظروف التي حفت باغتيالهم ولكنني ارغب قبل ذلك في اثبات بعض الملاحظات هنا وبعض النصائح الموجهة الى الراغبين في السير على آثارهم فسأرشدهم مثلا الى القبائل الطيبة والشريرة ، والطرق التي عليهم اتباعها للذهاب الى برنو وواداي وسأذكر لهم الاشخاص الذين يمكن التعويل عليهم خلال رحلاتهم .

فأقول اذن للراغب في القيام برحلة استكشاف ، اذا ما اردت الذهاب الى برنو او السودان فمر بطرابلس ، ولكن حاول قبل ذلك الحصول على رسالة توصية من الحكومة العثمانية لكامل الوقت الذي ستقضيه في ايالة طرابلس وستخرج من هذه المدينة بعد شراء بعض الابل التي ينبغي ان تكون من الجنس الصحراوي ، وستبلغ اولا بلادا تسمى (بني وليد) على مسافة خمسة ايام سيرا من طرابلس (17) وعليك خلال هذه المراحل ان تسهر بعناية على بضائعك وابلك وعلى نفسك فلا تنم ليلا ، لان هذه الجهات هي منطقة قبائل ورفلة وطرهونة العربية المتألفة من اناس اشرار ليس لهم اي احترام للحياة البشرية (18) حتى ولو كان الامر يتعلق بموظفي الحكومة ، ولا تكتري قط دابة من اهل ورفلة ، ثم تتوجه من بني وليد نحو بو نجيم حيث تصل بعد خمسة ايام اخرى من السير وحيث عليك ان تواصل خلال اقامتك التزام الحذر ، ثم تسير مدة خمسة الى ستة أيام دون أن تتعرض الى أي خطر فتصل الى سوكنة حيث تجد مدنا ثلاثا اهمها هون وودان وتبعد احداها عن الأخرى مسافة يوم ونصف من السير ، ويسمى مجموع هذه المدن الثلاث : الجفرة ، وهي اول بلاد ولاية فزان السفلى .

17) حوالي 190 كلم

18) انه لحكم قاس على هذه القبائل ، وغير صحيح ، وقد ذكرت في المقدمة سبب حقد المؤلف على قبائل ورفلة .

وللذهاب من هناك مباشرة الى مرزق تكتري ابلا من عرب رياح المقيمين بسوكنة وهم ناس طيبون او من عرب ودان التابعين لقبائل التمامة واولاد سليم،فاذا اتفقت معهم اوصلوك حيث ترغب دون ان تتعرض الى أي خطر ، ولكن اياك ان تتفق مع القبائل الاخرى أي ورفلة وطرهونة والحسون ، والقذاذفة واولاد بوسيف فهذه القبائل تتألف من اشخاص خطيرين .

وتسير ــ انطلاقا من سوكنة ــ سبعة او ثمانية ايام لتصل الى بلاد (زيغن) وفيها تسير يوما لتصل الى سيمنو ثم يوصلك سير يومين آخرين **إلى (القرضة).و(سبها) وعليك أن تقطع أيضا ثلاث مراحل لبلوغ (غدرة)** وثلاثا اخرى للوصول الى (دليم) وهي على نصف يوم من مرزق ويمكن ان تقيم فيها ، وانطلاقا منها تصل في اربعة او خمسة ايام الى بلد (القطرون) ، ثم يوصلك سير اثني عشر يوما مشفوعا بسير ثمانية ايام الى ولاية (كانم) ثم بعد عشرة ايام تدخل ولاية برنو .

ولن يعوزك الماء من حدود طرابلس الى برنو فستجده كل ثلاثة ايام على الاقل ، وفي الغالب كل يومين ابتداء من مرزق ، وكل الطريق آمنة جدا الا في المناطق التي ذكرتها .

ومن برنو يمكنك الذهاب ــ دون ان تخشى شيئا ــ الى اي جهة من جهات السودان ، ولكن اياك ان تكتري ابلا من الازقر والهقار والفوغاس الا اذا تحصلت على الضمان الشخصي لرؤسائهم وليس هذا الضمان ضروريا مع بقية التوارق او مع عرب السودان ، وخاصة قبيلة تبو المستقرة بين مرزق وبرنو ، لان هؤلاء التبو اهل ثقة كاملة .

وتسافر القوافل من طرابلس وغدامس بلا انقطاع بين برنو ومرزق ، وسكان هذه المدينة الاخيرة يذهبون الى برنو مرتين او ثلاث مرات في السنة ويمكن الوثوق بهم ايضا .

واذا رغبت في الذهاب الى وداي فعليك ان تمر من طريق بنغازي لان قافلة متكونة من تجار طرابلس وبنغازي تنطلق من هناك سنويا تقريبا ، وهم اناس اذكياء ومتحضرون فيمكنك شراء العدد الذي تحتاجه من الابل ، وترافق رئيس القافلة التجارية ، فتبلغ وداي بلا تعطيل .

وقبل ان تسافر ينبغي ان تتعلم قدرا كافيا من العربية للتمكن من التفاهم ، ولا تظهر مكاسبك ، ولا تبد كريما نحو العرب فيكفيك ان تمنحهم شيئا من الطعام هدية ولاينبغي ان يخفي الاوروبيون عقائدهم الدينية ولا ان يتظاهروا بالاسلام ، ولا تتكلم كثيرا مع العرب ، ولا تواجههم — خاصة — بكلام خشن ولا تثق بهم من جهة اخرى حتى ولو بدوا لك جديرين بالثقة ، واذا ما اكتريت منهم ابلا فلا تدفع لهم معلوم الكراء كاملا مسبقا ، وعليك ان تجمع زادا كبيرا من الطعام ولاتكن به شحيحا ازاء العرب، ولا تظهر لهم اطلاقا اموالك ، واذاعن لك ان تكتب فقم بذلك في خفية واتخذ عددا كبيرا من قرب الماء ، ولا تتوقف في موضع دون ان تستخبر عن سكانه ، وفي جميع الحالات اتخذ اكثر الاحتياطات الممكنة، وقل دائما الحق ولا تحاول ان تعرف جميع شؤون العرب ولا تظهر لهم امتعتك ولا بضائعك ، ولكن اذا كنت تحمل سلاحا فاحرص على ان يروه ، ولتكن معك ذخيرة من (الكينة) لان الحمى تسود وسط افريقيا ويتعرض لها المستكشفون بصفة خاصة .

فإذا اتبعت هذه النصائح فاكثر من المحتمل ان تنجو بحياتك ولكني سأعطيك نصيحة اخرى ثمينة : كل من الشعير أو التمر فانهما من الطعام الذي يصلح اكثر في هذه البلاد ، فمن المستحسن ان تتعود عليه .

وسافر صيفا ان كان ذلك ممكنا ، فخلال هذا الفصل تكون الساعات الاولى والاخيرة من النهار في الصحراء لذيذة ، وتكون الليالي بليلة جدا والرحلة شتاء مصدر ألم لان الحرارة تنخفض الى اقل من خمس

درجات ويجمد الماء في القرب وتخاف الابل — الى جانب هذا — البرد كثيرا .

وقد اتبع اغلب المكتشفين الذين عادوا سالمين هذه الارشادات ، وهذه حكاية قصها عليّ سي عبد الله بن علوة احد اعيان مرزق ، وكان سافر مثلما ذكرت سابقا الى غالب انحاء السودان وذهب عدة مرات الى برنو ، وارتبط بصداقة ملك برنو السابق الشيخ عمر وابنائه مصطفى وابراهيم وبو بكر ، وقد حمل من طرابلس كمية من البضائع الى الشيخ الذي منحه مقابل ذلك مئات من العبيد ، وعندما كان **بمرزق** حوالي سنة 1289 (1872) شهد قدوم الماني يدعى (ناشتيغال) (19) وكان يسمي نفسه ادريس وأقام هذا الرجل في منزل سي عبد الله وشقيقه سي محمد وهما اكبر اعيان المدينة ، وكانا يكنان محبة كبرى للمكتشفين ، وهما — بالاضافة الى ذلك — على علم كبير بشؤون السياسة فطلب ناشتيغال من مضيفه ان يقوده الى برنو فرافقه سي عبد الله — اذن — الى بلد القطرون حيث اكترى له كل ما يمكن ان يحتاج اليه وسلمه — مع ذلك — رسائل توصية ليلقى قبولا حسنا في كل مكان ، وتمكن ناشتيغال بهذه الطريقة من بلوغ برنو ثم وداي وعاد بعد ذلك الى بلده عبر مصر .

والتقى سي عبد الله ايضا بمكتشف فرنسي يسمى مصطفى باي وقد اقام بعض الوقت في منزل سي عبد الله الذي سلمه توصيات لعدة قبائل ، وافترقا في برنو فتوجه الفرنسي من هناك الى وداي ومرزق .

وقد روى لي سي عبد الله وشقيقه كذلك ان امرأة انقليزية تدعى

---

19) Nachtigal Gustave رحالة الماني ولد سنة 1834 كان طبيبا عسكريا ثم ترك مهنة الطب ، وساح في كثير من البلاد والتحق بجيش باي تونس محمد الصادق وقاتل مع جيشه ضد القبائل الثائرة 1864 (لا 1963 كما جاء في معلمة لاروس) وفي سنة 1869 غامر في رحلة الى اراضي طرابلس وفزان ووصل حتى بلاد تيبستي Tebesti وتنقل في غالب افريقيا السوداء وتوفي بخليج غينيا سنة 1885 م

(تين) (20) قد وصلت ذات يوم الى مرزق قادمة من مصر وكان يرافقها قوم: عشرة رجال وامرأتان مسلمتان من طرابلس ، واقامت بمنزل سي محمد بن علوة وشقيقه اللذين احسنا معاملتها ، وكانت معها اشياء ذات قيمة وبعض الاثاث ، وخاصة مرآة يبلغ ارتفاعها مترا جلبتها من طرابلس ، ولما كانت تنوي الذهاب الى السودان طلبت من سي عبد الله وشقيقه ان يوفرا لها وسائل الذهاب الى غات ومن هناك تذهب الى مرزق لتتجه فيما بعد نحو برنو ، فنصحها سي عبد الله بأن لا تسافر في ذلك الوقت لانه يرغب ان يبعث معها اناسا ذوي ثقة كانوا موجودين اذ ذاك بالقطرون ، وعندما يعودون سيكلفهم باصطحابها الى غات حيث تصل بسلام وامان ، ولكنها — لسوء الحظ — لم ترغب الاستماع الى سي عبد الله ، فاتفقت — للذهاب حتى غات — مع اربعة اشخاص من قبيلة اولاد بوسيف كان معهم تارقي ، وقد وقع هذا — فيما اظن — حوالي 1289 (1872 م) فسلك هؤلاء الرجال معها طريق غات ولكنهم — بعد ثلاثة أيام من السير قرروا اغتيالها ، وكانت تحمل بندقية سريعة الطلقات ، ولها خيمة مبطنة بدرع حديدي . وذهبوا ذات صباح فجأة أمام باب خيمتها يرافقهم سبعة افراد من قبيلتهم وتظاهروا بالتخاصم ، فجلبتها الضجة فظهرت بباب الخيمة بملابس النوم بدون سلاح فطعنها احدهم بخنجر فاسقطها فصرخت : ماذا تفعل ؟ اني امرأة خذ ما تريد من مالي واتركني ، فسدد لها طعنة ثانية من سلاحه ، وكانت جريحة فقط فاستعطفته ، ذاكرة انها مسلمة لكنه واصل طعنها حتى قتلها ، وهذا القاتل يعرفه جميع العرب ، وخاصة بفزان ويسمى (عثمان بود) من اولاد بوسيف ، وقد سلط الله عليه ذات يوم — شابا يبلغ من العمر اربع عشرة سنة فاطلق عليه رصاصة فقتله انتقاما لابيه ، ووقع هذا

---

20) Tinné Alexandrine رحالة هولاندية (لا انكليزية) ولدت بلاهاي 1839 وزارت في رحلاتها كثيرا من البلدان الافريقية وقتلت بين مرزق وغات 1869 (لا 1872 كما ذكر المؤلف)

سنة 1311 هـ (93 ــ 1894 م) وترك هذا الرجل خمسة عشر ولدا مازالوا احياء .

ولما رأى عبيد الآنسة (تين) مصرع سيدتهم هربوا بعد ان فقد بعضهم (؟) وأما المرأتان فعادتا الى مرزق ، ورغم ان الجاني كان معروفا حق المعرفة في الاراضي العثمانية فلم يهتم احد باتخاذ الاجراءات لمعاقبته وعلى كل لم يكن تارقيا كما زعم بعضهم .

وتركت الآنسة (تين) في غرفة بمنزل سي محمد بن علوة بعض الاثاث وكان سي محمد طلب منها ــ عند سفرها ــ ان تضع خاتمها على باب المدخل فرفضت في البداية لكنه اجبرها على ذلك ، وبعد مدة قدم شقيق الآنسة (تين) من طرابلس لجمع المعلومات عن الحادث ولكن احدا لم يعطه الارشادات الصحيحة ، بل وقع التأكيد له بأن شقيقته قد ماتت خارج الاراضي العثمانية بينما الحقيقة هي انها اغتيلت على ثلاث مراحل من مرزق في اتجاه غات في موضع يسمى (الوادي) ولم يقع الثأر لها ، وجمع شقيقها الاشياء التي تركتها ورجع الى طرابلس .

وقد روى لي سيدي ايوب باي ، ان فرنسيا قدم من الجزائر حوالي سنة 1284 (67 ــ 1868م) مع مائة من الجنود فقتله التوارق قرب عين ماء مع بعض رفاقه ونجا الباقون ويسمى هذا الفرنسي (فلاتارس) (21) وطارد التوارق الجنود للاستيلاء على اموالهم وادباشهم ولكنهم دافعوا عن انفسهم وتمكن بعضهم من الالتحاق بعاصمة الجزائر ناجين بأنفسهم .

---

21) بول فلاتارس Paul Flatters ضابط فرنسي ولد بباريس 1832 م وارسل الى الجزائر بعد حرب 1870 م وتطوع لقيادة بعثة تبحث عن وضع تخطيط لسكة حديد عابرة للصحراء حتى تبلغ السودان بين النيجر وبحيرة تشاد فانطلقت بعثة اولى برئاسته سنة 1880 من ورقلة الى بحيرة منلهوغ Menlahough وعادت قبل اتمام المشروع ثم رأس بعثة ثانية في نهاية 1880 لتصل حتى الهقار وانتهت هذه الرحلة بقتل الضابط واغلب افراد البعثة ببئر الغرامة Garama في 16 فيفري 1881 من طرف التوارق .

وروى لي سيدي ايوب ايضا ان اوروبيا آخر يسمي نفسه عمر قدم الى غات وقد بلغها صحبة قافلة قادمة من غدامس وادعى انه مسلم ، وكان يؤدي الصلوات الخمس في المسجد مع عامة المسلمين ، وعند عودته الى طرابلس لبس القبعة واسترجع شخصيته الحقيقية وكان انقليزي الاصل ، وقد قال له احد سكان غدامس عندما رآه في تلك الهيئة لماذا تلبس القبعة وتظهر انك مسيحي ؟ بينما كنت في المدة التي قضيتها في بلادنا تتظاهر بالاسلام وتؤدي الصلوات مع الجماعة ، فأجابه : ان بلادكم بلاد اسلام ، ولهذا اردت ان اعيش فيها مسلما لكن طرابلس بلاد مختلطة فأبدو فيها احيانا مسيحيا واحيانا مسلما ، ومن الصدف انك وجدتني اليوم في هيئة مسيحي ، وليس في هذا ضرر .

وينبغي ان اقول في هذه المناسبة : ليس من الضروري اطلاقا بالنسبة للمكتشف ان يتصرف كما فعل هذا الرجل بل من الحكمة ان يحافظ الاجنبي على دينه فلا تصلح التصرفات المناقضة الا لزيادة الحذر الطبيعي للعرب تجاه الاوروبيين .

وقد روى لي سي محمد بن علوة الذي كان لا يفارقني نهارا ولا ليلا ، وكان يشعر بمودة كبيرة نحوي ان مكتشفا فرنسيا يدعى (مونتاي) اتى الى مرزق عن طريق **القطرون** وكان قادما من برنو وكانم . وذلك في سنة 1308 (90 — 1891 م) وكانت في انتظاره خطابات توصية صادرة عن المتصرف فوضع تحت تصرفه عدداً كبيراً من الحراس رافقوه الى طرابلس ، وكان هذا الرجل يعرف حق المعرفة طريقة القيام برحلات الاستكشاف لانه لم يكن يذهب الى أي مكان دون ان تسبقه توصية او يحملها معه ، وقد استقبله سي عيد الله وسي محمد بن علوة افضل استقبال ، واهداهما عدة ادوية ، واشياء متنوعة مازالا يحتفظان بها ، وذكر لهم انه قادم من السينغال ، وتعطينا الطريقة التي اتبعها هذا المستكشف صورة تنم من مقدار ذكائه وعلمه ، وقد مدح امامهما امم السودان ، عدا

اهل برنو الذين كانوا حسب زعمه متوحشين يعيشون بلا هدف مثل الوحوش ، وتدعمت صحة حكم هذا الفرنسي عندما استحوذ رابح بجيش لا يتجاوز عدد جنوده 400 على البلاد والسكان .

ووصل اروبي آخر الى بلد ودان ثم ذهب الى زلة وعندما وصل بلد جالو ،وكان قاصدا جغبوب، قتلته قبيلة الزوية ولم يعثر على اشلائه .

وجاء شخص شريف وعالم وثري سنة 1312 (94 ـ 1895 م) لزيارة الشيخ سيدي المهدي ثم غادر جغبوب قاصدا بنغازي وكان اصيل المغرب ورافقه في سفره ثلاثة من قبيلة (سفالة) من ولاية برقة فتآمر اثنان من رفاقه على قتله ولكن الثالث لم يوافقهما ، ففر بعد ارتكاب الجريمة لاعلام سيدي المهدي فأمر الاخير بالقبض على الجانيين وارسلهما الى باشا بنغازي ولا يزالان الى اليوم في السجن ، وقد قص علي ابناء عم القاتلين ان الذين دفعهما للقتل هو انهما فاجاه بصدد تسجيل الجبال والاراضي التي يقطعونها ، وقد كان شريفا مغربيا ولكنهما ظنا انه اوروبي يتظاهر بالاسلام ، وحسبما علمت فسوف لن يفلتا من العقاب قريبا .

وخلال نفس هذه السنة انطلق ثلاثة يهود من مصراتة بنية التجارة وعند وصولهم الى صحراء سرت وقع اغتيالهم ولم يقع اكتشاف القتلة ويذكر بعض الناس انهم ماتوا عطشا .

وانني لم التق بيهودي واحد لا في الصحراء ولا بين القبائل ، وأكد لي بعضهم انهم لا يوجدون في السودان الا في القسم الجنوبي حيث تدين بعض الشعوب الاهلية بالديانة اليهودية ، ويوجد ايضا في نفس الجهة بعض القبائل ذات الاصل السوداني تدين بالمسيحية .

ووصل ـ ذات يوم ـ احد الاوروبيين الى سوكنة ، وهي على مسافة خمسة عشر يوما سيرا من طرابلس ، واستقر فيها حدّادا وتسمى هذا الرجل باسم عبد الله الطيب بعد اعتناقه للاسلام وتزوج وانجب ولدين

مازالا — الى اليوم — في سوكنة ، وهما مسلمان ، وعندما سألت احدهما ، ذكر لي ان والده المتوفى — اذ ذاك — كان ايطاليا اصيل رومة .

وروى لي سيدي أيوب انه كان يوجد — لمدة قريبة — في قبيلة الهقار اروبي أسير وهو أحد رفاق (فلاتارس) وكان التوارق قتلوا رفاقه ، وكان سيدي ايوب متيقنا كل التيقن من هذا الامر ولكنه يجهل ان كان هذا الرجل باقيا على قيد الحياة .

ولن ألح كثيرا في توصيتي للتجار والمكتشفين الراغبين في السفر الى غات والسودان ان لا يحملوا معهم عملة اخرى غير الـ (بوطيرة) الذي يساوي بغات عند الصرف 24 قرشا أي خمسة فرنكات الا قرشا ، بينما يساوي في طرابلس 13 قرشا أي فرنكين ونصفا ، ويساوي ببنغازي او فزان ستة عشر قرشا أي ثلاثة فرنكات وقرشا ، وعلى الرحالة والمسافرين ان يحملوا معهم الليرة العثمانية التي تساوي بفزان وغات 130 قرشا واقل بقليل في اماكن اخرى ، واما الجنيه الانقليزي او اللويز الفرنسي فيساويان بغات ومرزق والسودان 116 قرشا .

ومن الصالح ان اعلن للرحالة والمسافرين الذين يصلون غات بعملة البوطيرة او بالليرة العثمانية ان عليهم ان يبدلوا هذه العملة ببضائع لأنهم إذا عادوا الى طرابلس او فزان او بنغازي او أي مكان آخر ، كان عليهم ان يتحملوا عند الصرف خسارة معتبرة ولهذا يحسن ان يبقى المال في غات فلا يخرج منها سوى البضائع ، وهذه القيمة المضافة للبوطيرة والليرة العثمانية هي نتيجة اتفاق بين تجار غات تسمح لهم بترويج جميع بضائعهم .

وفي طرابلس يتكلم كبار الموظفين الاتراك وكبار الرؤساء والضباط والاعيان الفرنسية الا بعض الاستثناءات ، وعندما كنت بمرزق ارسلت

في طلب دواء لركبتي من الصيدلية العسكرية المسماة (اجزاخانة) فبعث الى القبطان المكلف بهذه الصيدلية بزجاجة تحتوي على سائل نتن وطلب مني دفع 20 قرشا ، مضيفا ان الادوية تسلم اليه من الحكومة مقابل ثمن وانه لا يستطيع تسليمها الا للاعيان وللاجانب ، ددفعت له عشرين قرشا وارسل الي بوصل مكتوب باللغة الفرنسية ، ولما زارني هذا الضابط بعد يومين سألته عن سبب كتابته للوصل بالفرنسية . والحال انه تركي وانا عربي ، فأجاب بأن كل الكتابات المتعلقة بالصيدلية العسكرية في البلاد العثمانية تحرر بالفرنسية ، وكذلك الشأن بالنسبة لامور اخرى كثيرة .

ولا ينبغي على المستكشف مهما كانت جنسيته ان يظهر كرمه تجاه أي شخص كان ، وعليه ان يتظاهر بأنه تاجر متوسط او الافضل من ذلك ان يتظاهر بأنه طبيب اذا كان يعرف مبادىء الطب ، ولكنه اذا اظهر معارف جغرافية او جيولوجية عرض حياته للخطر بلا شك ، خاصة في بلاد التوارق .

الفصل الثامن

من مرزق الى مصراتة

مغادرة المؤلف لمرزق صحبة قافلة قادمة من غات متوجهة نحو سوكنة . وتوفير الزاد له من طرف الوالي ، ومنحه رسائل توصية ــ الطريق بالتفصيل من مرزق الى سوكنة ، وارتباط الكاتب بشيخ سوكنة ــ الرحيل عن سوكنة ــ قيادة الادلاء له في غفلة منه الى دوار من قبيلة ورفلة التي تحاول نهب بضائعه والاعتداء عليه ــ الوصول الى مصراته .

وفي 18 ديسمبر 1896 وصلت الى **مرزق** قافلة من غات تتكون من عرب رياح ويقودها محمد رشايدة ، وهي متوجهة نحو بلد سوكنة ، فاتفقت معهم على مرافقتهم على الرغم من اني مازلت اتوجع من ركبتي ، ولكن الشوق هو الذي دفعني الى الرحيل ، ولم اكن قادرا على مواصلة الصمود للاقامة في هذه الجهات غير الصحية فقد كانت الحمى تأكل جسدي ، ونصحني من حولي بالرحيل فودعت ــ اذن ــ المتصرف ، وسي احمد ر . والقاضي وأمين المال ، وجميع أعيان المدينة .

وسلم لي سي احمد المختار ــ جزاه الله خيرا ــ زادا مكونا من بعض التمر ودقيق الشعير والذرة البيضاء (الدرع) وسلم لي ايضا رسائل توصية الى اعيان المدن التي سأعبرها والى الاخوان (1) .

---

1) أي أعضاء طائفة سيدي السنوسي (المترجمان)

وانطلقت صباح يوم 20 ديسمبر وكان فرحي شديدا بمغادرة مرزق ورافقني سي احمد المختار وسي محمد علوة وشقيقه عبد الله واعيان آخرون الى مسافة ميل خارج المدينة ثم فارقتهم دامع العين .

وقضينا الليلة الاولى بدليم ،.وكنت اخذت معي عبدا يسمى جبريل كان يشتغل لدى البنباشي داود الطرابلسي ، وسيخدمني هذا العبد خلال الطريق ، واوصلتنا المراحل التالية الى سريرة — وغدة وبير الوشقة — والطلح —**والقرضة**— واتيزة — ثم قضينا ليلة بقرب سمنو ثم زيغن ، حيث اقمنا ثلاثة ايام وبفضل التوصيات التي كنت احملها وقعت معاملتي معاملة حسنة من سكان البلاد ، وعلى كل فأينما حللت لقيت حسن المعاملة .

وغادرنا زيغن في غرة جانفي 1897 ولم نسلك طريق عبيدة والقاب (2) لأن هذه المناطق تنقصها المراعي للابل وسلكت قافلتنا طريق العين ورافقتنا قافلة اخرى متوجهة نحو سوكنة وكان من بين التجار الذين يكونونها الفاضل سي حميدة الصالحي ، وكان هذا الرجل غادر بلاده منذ عشر سنوات واقام خلال هذه المدة في برنو اولا ، ثم مرزق وترافقنا فاظهر نحوي كرما لانه كان ذا طابع بشوش جدا .

وسلكنا منطقة رملية ، يشتد فيها البرد للغاية ، فتجمد الماء ، وانفلقت القرب ، ولولا عثورنا على شيء من حطب التدفئة — لحسن حظنا — لتجمدت اطرافنا .

ومن هناك سرنا مدة تسعة ايام عبر جبال وكثبان رملية وصخور ووهاد ووصلنا الى (السوداء) وخلال هذا القسم الاخير من الطريق لم نعثر على الماء ، ولهذا تزودنا منه بكمية كبيرة من العين وفي اليوم العاشر قطعنا المرحلة الاخيرة نحو سوكنة حيث وصلنا في الساعة الثالثة بعد الظهر .

2) هكذا في النص الفرنسي Gab ولعلها (القاف)

وكان رفيقي سي احمد اصيل هذه البلاد فاستقبله الأعيان خارج المدينة وعبروا عن فرحتهم الكبيرة بلقائه فقال لهم : اني اطلب منكم ان تعدوا مسكنا للشريف الذي يرافقني ، وحالا اعدوا لي مسكنا مجانا ، وقدم الأعيان لمقابلتي ، ورحبوا بي ترحيبا حارا ، ثم زارني العالم الشيخ سيدي محمد عز الدين ، قاضي المكان والوالي السياسي به ، وهو شخصية بارزة في طرابلس وقد عين واليا وقاضيا بسوكنة بفضل الوالي القديم راسم باشا (3) وهو مثقف جدا وشاعر رقيق وظريف ، لين الجانب ، وكان معه العالم المفتي سيدي محمد البندق فتبادلنا حديثا وديا ، وسألاني عن رحلتي ثم حملني القاضي الى منزله وقدم لي اطباقا شهية فأكلت وشربنا شيئا من الشاي ثم اخذنا في نقاش حول مسائل شتى علمية وفقهية ، ولما عرفت تذوقه للشعر انشدته نحو 400 بيت اخترتها من احسن الشعراء فأعجبته جدا وسجل بعضها .

ويعتنق الشيخ عدة طرق صوفية وخاصة الطريقة المدنية والرفاقية (؟) وقد تلقى هذه الطريقة الاخيرة عن الشيخ ابي الهدى ، وهو احد مستشاري السلطان ، وكان يملك اجازة تسمح له باعطاء الطريقة لمن يرغبها ، وهكذا منحني الطريقتين كتابيا وفوض لي رخصة منحهما الى غيري ، وارتبطنا بصداقة متينة ، وطوال كامل اقامتي بهذه المدينة لم يفارقني ، وبقيت ضيفا لديه مدة 13 يوما في انتظار انطلاق قافلة نحو طرابلس ، وبما ان هذه الفرصة لم تتح لي قررت ان اكتري ثلاثة جمال على ملك عرب ورفلة القاطنين بسوكنة والمعروفين حق المعرفة في البلد فتكفل الشيخ بهذا الكراء ودفع من ماله الخاص كامل الاجر مقدما الى مصراته حيث عليّ ان اكتري دواب اخرى الى طرابلس ، وسلمني زادا ، وخاصة تمرا من الصنف الرفيع رسائل توصية لأعيان مصراته وطرابلس ، منها رسالة الى

3) من الغريب أن يصفه بالقديم ، وهو في أيام رحلة المؤلف لا يزال واليا على طرابلس وبقي في الولاية الى سنة 1898 م .

سي الحاج عمر بن المنتصر والي ولاية سرت،ويقيم بمصراته،واخرى للعالم سيدي محمد بن مصطفى رئيس المستشارين الحنفيين بطرابلس ، وسلمني ايضا مالا لاقاربه المقيمين بهذه المدينة لكنني اجهل مقدار المبلغ المسلم اليّ .

ولما اتممت شؤوني ودعت الشيخ والأعيان،ولا بد ان اذكر من بينهم الشيخ سيدي حامد من الزاوية السنوسية وهو عالم كبير ارسله سيدي المهدي الى هذه المدينة ، وقد وجدته بصدد تدريس كتاب البخاري وتقدمت اليه برسالة من الشيخ احمد المختار وارتبطنا بصداقة متينة ، وسألني عن الكرامات التي حققها الشيخ سيدي المهدي فذكرت له منها نبذة تتعلق بالشيخ ومختلف الاخوان .

وغادرت المدينة في 15 جانفي ورافقني الشيخ والأعيان، ولما كنّا نتبادل الوداع تسلمت من سيدي محمد بن أحمد والي هون رسالة يطلب فيها مني تشريفه بزيارتي،مضيفا انه يعدني بإرسالي الى طرابلس صحبة قافلة مأمونة ، فأجبته في الحين معبرا عن اسفي لعدم استطاعتي تلبية دعوته،ثم توجهنا نحو مكان يسمى الحمام حيث قضينا الليل وهو واحة يوجد فيها نبع ماء حار ولكنه حلو وقضينا الليلة الموالية بالاثمد ، وهناك اضطرت احدى نوقنا الى التوقف بسبب جرح في سنامها وتطلب منا ذلك اقامة يوم في ذلك المكان ، وغادرنا مالك الدابة ، وكانت له ابل اخرى في الجوار بعد ان عوض لنا الناقة المريضة ، وترك والده ، وعمره 90 سنة لمرافقتنا بدله ، وكانت قافلتنا متكونة من اربعة اشخاص من بينهم شاب عمره 18 سنة جريء جدا ، وعبد جبان متخاذل ، وتوجهنا في 19 جانفي نحو بونجيم ، وبينما كنا نسير حوالي الساعة العاشرة ليلا مستعينين في معرفة طريقنا بكواكب الدب الاكبر لأنه ليس لنا في هذه الصحراء من دليل غير النجوم إذ تفطنت فجأة الى ان هذه الكواكب اصبحت في مستوى اذني اليسرى ففهمت اننا زغنا عن الطريق ، وقد لاحظت فعلا ان

القافلة قد تخلت عن طريق بونجيم لتسلك طريقا آخر ، فأبديت هذه الملاحظة لرفقائي الذين ذكروا لي انهم لا يرغبون فعلا في المرور من بونجيم ، لأنهم علموا بوجود لصوص من قبيلة ورفلة في هذه الجهة ، فرأوا من الصالح تجنبهم وسلوك طريق اقصر لكنهم اعلنوا استعدادهم لتلبية رغبتي ، فلم املك الا موافقتهم على رايهم متسائلا بيني وبين نفسي عما اذا لم تكن لهم نوايا سيئة .

وقضينا تلك الليلة بوادي الحطاب ، والليلة التالية في مكان يسمى خشم محمد ، واوصلتنا المراحل التالية الى مكان يسمى ملتقى الشنطة (ملتقى البريد) (4) ثم الخيمة ، وخيمنا بعد ذلك قرب عين ماء .

وتتكون كل المناطق التي عبرناها من كثبان رملية واراض صخرية تشقها اودية ليس في اغلبها سوى الرمل ، الا ان نباتات تنمو فيها مثل اشجار السنط ، والارطماسية (؟) والجداري ، والنبات الشوكي .

ولم تعترضنا طوال الاربعة ايام أي نقطة ماء ، وقضينا الليل بعد مغادرة العين ، التي ذكرتها منذ قليل في صحراء تنتشر فيها احجار ضخمة ، ورحلنا في منتصف الليل ، وكنا نسير بسرعة كبيرة حتى وصلنا الى ضفة واد كبير فيها ما يقارب 300 خيمة لقبيلة ورفلة .

وبما ان الجمالين لم يخبراني بوجود هذه القبيلة في هذا المكان سألتهم عن سبب ذلك فلازما الصمت لكنني تمكنت من فهم السبب الذي دفعهما الى ايصالي الى هذا المكان وهو ان اصغر الدليلين له والد وام في هذه القبيلة وللاخر ابناء عم فيها ، وقد رغبا في تمضية بعض الوقت بين اهلهما لاراحة دوابهما ، ووجب على الشاب ان يبقى في عائلته ليرافقنا والده مكانه .

4) هكذا فسرها المترجمان بملتقى البريد جاعلين الكلمة بين قوسين وربما كان ذلك منجرا عن كلمة الشنطة (الحقيبة) أي حقيبة البريد ومع ذلك أردت أن أنبه الى أن (الشنطة) لقب يطلق على عائلة معروفة بتلك الجهات .

ولما وصلنا الى هذه القبيلة يوم 25 جانفي في الساعة الرابعة بعد الظهر ، كان احد افرادها قد توفي منذ قليل ، وكنا نسمع صراخا عاليا وكانت النساء تندب ، فتشاءمت ، ودعوت الله ان يجنبني ما يمكن ان يصيبني من هؤلاء الناس خربي الذمة ، وقضيت تلك الليلة تحت خيمة ولم ياتني احد ، ولو بكسرة خبز محترقة (5) .

ومن الغد أي يوم 26 جاء جانب من القبيلة لمقابلتي ولسؤالي عن سبب مرورنا بطريق غير مطروقة واتهموني بأني أريد فتح طريق جديدة بين مصراتة وسوكنة ولاموني على ذلك بشيء من الحدة فاعترضت بأني اجهل الطرق وان الجمالين قد قاداني لهذه الجهة فقالوا لي لقد اخطأت في الاصغاء لهذين الدليلين اذ أن أحدهما صغير السن جدا والآخركبير السن جدا وغبي ، وعليك ان تعرف اننا التجأنا الى هذا الوادي هروبا من الضرائب التي تريد الحكومة التركية الظالمة اجبارنا على دفعها ، فطمأنتهم ، ووعدتهم بالتداخل لفائدتهم لدى الباشا عند وصولي الى طرابلس ليعاملوا بعدالة اكثر ، وخاصة من الشيخ الذي اثقلهم بالضرائب بهذا الشكل ، واضفت ان الخطأ ليس خطأ الباشا ولكنه خطأ الشيخ المقيم في بلد بني وليد ، وان الباشا لن يتردد في عزله عند اعلامه بوضعهم وسوف يعفون — اذ ذاك — من جميع الضرائب ، وكنت اسعى بهذا الكلام الى فرض هيبتي عليهم وكأنني موظف سام ، لكنني تفطنت الى ان كلامي لا تأثير له عليهم ، فلم ار حولي الا وجوها عابسة مهددة ، ولم اسمع الا كلاما خشنا ، فأرسلت عند ذلك في طلب والد الشاب الذي رافقني من سوكنة ، وكان هذا الرجل — وعمره حوالي 45 سنة — يدعى علي بن أحمد، فأدخلته خيمتي اثناء الليل وقدمت له أطيب ما عندي ، وهو اكثر القبيلة فقرا، ولكنه أشجعها، ولم يكن يرتدي

5) غاب عن الحشائشي أن البدو لا يطبخون طعاما يوم وفاة أحدهم ، وهي عادة متأصلة فيهم الى اليوم ولذا فنقد الحشائشي لموقفهم منه لا مبرر له .

من الملابس غير قطعة من القماش الكتاني رقيقة جدا ، ورأيته يرتجف ، فقلت له : يا علي بينما كنت بسوكنة سمعت من يقول انك رجل مثالي الشجاعة حسن التربية ، وقد خرجت من سوكنة مع ابنك امام انظار الجميع متوجها نحو طرابلس ، وقد اتيت الى هذه القبيلة بسبب غلطة ابنك ولا أعرف فيها سواك فلا بد ان ترافقني الى طرابلس والا طمع افراد قبيلتك في الاستيلاء على أمتعتي وربما في قتلي لان الشرّ باد على وجوههم، وقد سمعت كلاما لايطمئن ، وفتحت عند ذاك صندوقا واخرجت منه جبة وسفساري (إزار) اهديتهما اليه ، لكنه واصل صمته دون ان يرفع عينيه واخيرا رفع رأسه وقال لي : ايها الشيخ الشريف ان اهل هذه القبيلة لا يعرفون الله ولا رسوله ، وهم يعيشون من السلب والنهب ، ولا يحترمون العالم ولا سليل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا الشخصية البارزة ، لكن لا تخف من كل ما قيل لك فاني اقسم بالله اني سأوصلك الى طرابلس دون عائق على الرغم من الذين يرغبون في الحاق الشر بك ثم رفض الهدية التي كنت ارغب منحها له ، ذاكرا انه اذا قبلها كان عليه ان يعتبر نفسه قد تلقى بعد مكافأته على ايصالي الى مصراته ، ولا بد من الاعتراف بأن ذلك يساوي اكثر من هذا المقدار .

وقضيت الليل بصبر نافد ، وروى لي العبد الذي يرافقني ان اهل القبيلة يتشاورون بعد في الحاق الشر بي .

وفي صباح 27 جانفي لجأت الى حيلة للخروج من الورطة فاخترت اسماء عدة موظفين ساميين في الحكومة معروفين حق المعرفة في طرابلس ومصراته والخمس وكتبت هذه الاسماء على عدة ظروف ، وضعت فيها ورقا ابيض . ووضعت الظروف في صندوق وعندما جاء اعيان القبيلة صباحا لمقابلتي ، ذكرت لهم اني اريد الرحيل حالا الى مصراته لرغبتي في الوصول قبل رمضان ، فأجابوني بأن دوابي ليست في حالة تسمح لها بحملي ، لأن احدى النوق جريحة (وهي ناقة الرجل الذي بقي في سوكنة)

وان ناقة اخرى وهي ناقة الشيخ قد ولدت البارحة فلم يبق لي اذن الا ناقة علي بن احمد ، وادعوا أنني لن اجد في القبيلة ناقة ولا جملا للكراء ، بينما هم يملكون من الابل ما يزيد على 5000 .

ولما سمعت هذا الكلام اخذت في الصراخ بقوة ، واصفا صنيعهم بالخزي وقلت لهم انني احد اعيان طرابلس ، وانا بينكم غريب فريد ، وقد اخذ اهل سوكنة ضمانات من الجمالين وهما من ابناء اعمامكم فاذا منعتموني من الرحيل او سمحتم بالتخلي عني في هذه الصحراء فإن ولاة طرابلس وفزان **ومصراتة** سيقومون ببحث لمعرفة مئالي خصوصا وان لدي رسائل موجهة اليهم ورسائل اخرى موجهة الى ولاة سوكنة وهون وزيغن واعيان طرابلس وعند ذكري لهذا فتحت الصندوق واخرجت الظروف التي اعددتها . وكان فيهم رجل يعرف القراءة فأطلعته على الكتابة فقرأها بصوت مرتفع وقد كانوا يظنون ـــ الى ذلك الوقت ـــ انني مجرد تاجر ، لكنهم اقتنعوا انني شخصية هامة ، وفهموا ان اعيان طرابلس وفزان وسوكنة على علم من مروري ببلادهم .

بينما كنا نتناقش على هذه الصورة قدم علي بن أحمد وقال لهم : يااهل ورفلة ، يجب ان تؤجروا بعيرين للشريف لأني لا املك الا ناقتي مثلما تعلمون فقال احدهم : سنؤجر ابلنا لهذا العالم الفاضل ولن نمنعه من الرحيل ، ولكننا نتوسل اليه ان لا يطالب باسترجاع تسبقة كراء الناقة الجريحة والناقة التي ولدت لأن صاحبيهما فقيران ، وتوسل لي الجميع ان ارضى بطرح المبلغ المدفوع ، فقلت لهم : اني لا اطلب الجمالين بشيء ، فاعدوا في الحال ناقتين ومكنوني من دليل لمرافقة علي بن احمد .

ورحلنا يوم 28 جانفي بعد حمل امتعتنا ولم نكد نقطع ثلاثة كيلومترات حتى اخذ علي بن احمد يصرخ قائلا لأهل قبيلته : لن اقطع خطوة واحدة قبل ان تسددوا نصف معلوم كراء الناقتين للشيخ الشريف

الذي لا يريد التخلي عن حقه-ولأنه عندما يبلغ مصراتة سيطالبني انا بهذا المبلغ وسوف يودعني السجن ويبيع ناقتي ، فأخذ الجميع يصرخون ، وعدنا الى مضارب القبيلة ، وفي المساء اتاني القوم بالمال الذي يساوي معلوم كراء الناقتين اللتين اكتراهما علي بن احمد آخر مرة ذاكرين ان مالكي هذه الدواب لم يعودوا راغبين في تأجيرها لأنني رجعت في قراري بالتخلي عن معلوم كراء الناقتين الجريحتين ، وفي منتصف الليل سمعت ضجيجا ، فقد اخذ علي بن احمد الناقتين الجريحتين (6) والناقة الوالدة ووضعها تحت خيمته وارسل ايضا رسولا في نفس الليلة لقبيلة القذاذفة حيث جرت به ناقتان اخريان وحملتا اليه ، ومن الغد اتى لاعلامي انه اكترى ناقتين افضل من ناقتي البارحة ، ويقود هاتين الدابتين احد أعيان القذاذفة وابنه ، وطلب مني ان اسافر حالا مضيفا : أطلب منك ان لا تتخلى عن حقك ، وأن لا تكف عن المطالبة باسترجاع معلوم الكراء الذي تستحقه لأني اريد ان اسوق الى مصراته هاتين الناقتين اللتين حملتاك من سوكنة وابيعهما حتى ارجع لك مالك ، واذا اراد احدهم منعي من حمل هاتين الناقتين فسوف اقتله بلا تردد ، لأني قادر على مقاتلتهم جميعا ، ومعي على كل حال رجال عديدون وشجعان بصفة كافية ، فوافقت على جميع تصرفاته ، واقسم لي انه سيكون مخلصا ، وسافرنا وساق امامه الناقتين غير محملتين .

ولم نكد نقطع ثلاثة كيلومترات حتى هجمت علينا جميع القبيلة كانها سيل يصرخون : كيف ترغب في حمل هاتين الناقتين غير القادرتين على السفر ، فأما ان تعيدهما او تأخذهما بالقوة ، فالتفت علي نحوهم وقال : لستم سوى (قوادين) وانتم كاذبون اذا زعمتم انه يوجد بينكم من يقدر ان يفتك مني بالقوة هاتين الناقتين ، ثم وجه اليهم شتائم ، الى حد اني ظننت ان الدماء ستسيل ، وفجأة ارتمى شيخ هرم يحمل في رقبته

6) ذكر سابقا ان الجريحة واحدة

مسبحة ضخمة على ناقتي واخذ يقبل قدمي قائلا : ايها الشيخ سادفع لك ربع معلوم الكراء واعطيك عنزا مقابل الربع الآخر ، فالتفت الى علي وسألته عن رأيه في هذا العرض فأجابني انه لا يرى مانعا من قبوله ، وقال : ان هذا شأنك والمال مالك ، فاذا قبلت انت قبلت ، فأخذت اذن من هؤلاء القوم ربع معلوم الكراء والعنز وسافرنا متوجهين نحو ديار مصراتة .

وعند قدوم الليل تفطنا الى ان ثلاثة من اللصوص يتبعوننا ، وحاولوا مهاجمتنا متسترين بالظلام ، ولكن علي اطلق عليهم النار ثلاث مرات ففروا كالكلاب ، وحمدت الله على تخلصنا من هذه القبيلة غير المضيافة .

وفي صباح 29 جانفي قمنا برحلة طويلة وقضينا الليل في مكان يسمى (لغير) ثم خيمنا يوم 31 في واحة بلد(تاورغا) حيث يوجد عدد لا حصر له من النخيل وهذا البلد يتبع منطقة مصراته .

ويتعرض الغرباء عن البلاد ، من تجار او مسافرين ، اذا اقاموا طويلا في (تاورغا) حالا الى نوع من المرض يسببه الهواء الوخم فيؤدي الى موتهم ، والسكان واسعو الثراء .

ووصلنا الى مصراته يو 28 (7) في الثالثة بعد الظهر ، وكنت احمل رسالة الى سيدي الحاج عمر بن المنتصر ، ولما ابديت رغبتي في مقابلته علمت انه في سرت ، فنزلت — اذ ذاك — في وكالة السوق حيث استقبلني الشريف احمد احد اعيان ودان ، ووضعت امتعتي في افضل الغرف واسترحت من المتاعب التي سببتها لي قبيلة ورفلة ، واذا ما رويت

7) هذا خطأ مطبعي أو سهو من المترجمين أو من المؤلف ، اذ ذكر المؤلف قبل هذا أنه نزل بتاورغا يوم 31 جانفي ومنها قصد مصراته فكيف يمكن أن يرجع التاريخ للوراء فيصل مصراتة يوم 28 ولعل الصحيح 2 فيفري ورقم 8 زائد .

هذا القسم من رحلتي بكثير من التفاصيل فذلك لتحذير الرحالة والتجار من هذه القبيلة .

الفصل التاسع

مصـراتـة وطرابلس والعـودة

وصف مصراتة ، طبائع سكانها ، التجارة والفلاحة ــ الرحيل عن مصراتة والطريق من مصراتة إلى طرابلس ــ وصف طرابلس ــ ملخص تاريخ هذه المدينة ــ طبائع السكان ــ التجارة المتداولة فيها ــ وضع الاتراك بطرابلس ، الجيش ، الادارة ــ ابحار المؤلف من طرابلس نحو تونس

تقع مصراتة وهي تابعة لولاية طرابلس على مسافة 12 كلم من البحر ومناخها طيب وأرضها خصبة يغطيها نخيل كثير ، ويملك كل فرد من سكانها حديقة يقلب أرضها حتى تصبح ناعمة كالحرير وتوجد في هذا البلد أشجار مثمرة من جميع الاصناف ، وعددها كبير لان عيون الماء كثيرة وكذلك الآبار .

ويتعاطى سكانها الفلاحة وينتجون القمح والشعير يصدرونها إلى أوروبا ، وتصنع فيها أيضا الزبدة المملحة ، وينتج فيها الزيت بكمية كبرى لكثرة الزياتين فيها .

والمدينة كبيرة تتباعد مبانيها عن بعضها مثل ما هو الشأن في بساتين صفاقس لكن الارض أفضل وأكثر خصوبة مما هي في هذه الجهة من تونس .

وفي عنصر سكانها جمال ، وهم أثرياء ، والحياة عندهم ايسر معيشة من بنغازي .

والتجارة نشيطة جدا ولكن لا أمن فيها على الاملاك ولا على الاشخاص فخلال إقامتي بهذه المدينة سرقت لي قدر نحاسية وملعقة وقدح من النحاس أيضا فينبغي عند التوقف بها أن تتخذ احتياطات خاصة للمحافظة على النفس والمتاع .

وتنتصب بمصراتة ثلاثة أسواق أهمها سوق الاحد لان عرب طرابلس يتوافدون إليها في عدد كبير من مسافات خمسة أيام سيرا ، وهي محل اجتماع قبائل ورفلة وسعادة وطرهونة وبني وليد وأهل طرابلس ، وزليطن ، والخمس إلخ .

وتباع في هذه الاسواق آلاف من البقر والمعز والضان والابل والحمير والبغال ، وتباع فيها أيضا الزبدة المملحة والعسل ، والزيت والدجاج والبيض الذي تصدر منه كميات كبرى إلى طرابلس ، والاقمشة الصوفية المخططة مثل المرقوم من الصنف الرفيع وهو لا يوجد في مكان آخر ، وتباع فيها الحصر ، وسوقا الثلاثاء والخميس أقل حركة .

وفي كل يوم جمعة إثر الصلاة ترحل من مصراته قافلة حاملة للبضائع التي عددتها ، وتصل إلى طرابلس صباح الثلاثاء ، لكنها تسير ليلا ونهارا ولا تتوقف إلّا ثلاث ساعات في كل مرحلة .

وأغلب تجار هذه المدينة من اليهود ، وهم واسعو الثراء ومن الغريب أن القوى الاوروبية لا ممثل لها فيها ، وقد سألت بعض اليهود عن الامم التي تحميهم فأجابوا بأنهم جميعا من التونسيين أو الجزائريين وهم يرغبون كثيرا في اقرار قنصلية فرنسية لديهم لانهم قد يحدث لهم أحيانا أن يتعرضوا لبعض المظالم ، وبعض التجار من الاهالي لكن لا يوجد بينهم أي صفاقسي ولا يوجد سوى جربي واحد مستقر هناك منذ مدة طويلة جدا .

وللمدينة حامية تعد 25 جنديا ، وحاكم تركي الاصل وليست مصالح الشرطة على ما يرام فقد اقتحم لصوص — أثناء إقامتي — ليلا البيعة اليهودية وسرقوا نسخة من التوراة وقناديل فضية وصندوق الفقراء المحتوي على 14.000 قرش ومزقوا الكتب المقدسة ، وعندما تفطن اليهود إلى هذا الاعتداء على مقدساتهم اشتكوا إلى السلطة التي قامت ببحث عن طريق الجيش فوقع القبض على 12 شخصا تعلقت بهم تهم خطيرة لكن التحقيق في هذه القضية لم ينته بعد ولا يزال اليهود ينتظرون عقاب المذنبين الى الآن .

ويوجد في مصراته تاجر من رعايا اليونان رغم ادعائه أنه انكليزي يبيع القمح والشعير والمقرونة ، والجبن ، والسردين ، ومختلف أنواع التوابل ، ويعطي قروضا على العقارات في المدينة أو الأرياف ، ويذهب جميع الاعيان وحتى الحاكم للجلوس في دكانه الذي يديره بعناية تامة .

ويتشكى السكان من المجاوزات التي ترتكبها السلطة في استخلاص الضرائب . والارض في هذه المدينة ليست مرتفعة الاثمان ، وعملة الصرف هي نفس العملة المستعملة في طرابلس التي ترتبط بها مصراتة بالتلغراف والبريد .

والمنازل ليس لها شكل البناءات الاوروبية لكنها متينة البناء وهي مبنية بالجير والحجارة والأجر ، ويوجد في هذا البلد آثار رومانية كثيرة العدد ، ويوجد فيها أيضا ضريح سيدي أحمد زروق (1) زعيم الطائفة الزروقية وضريح سيدي محمد المدني (2) الرئيس الاكبر للطائفة المدنية ، وقد زرت هذين الضريحين .

1) أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي المغربي ولد بفاس 486 هـ 1442 م وتوفي بمصراتة 899 هـ — 1494 م وهو فقيه صوفي له تآليف عديدة وضريحه معروف مزار .

2) محمد بن حسين بن حمزة ظافر المدني ولد بالمدينة المنورة 1194 هـ 1780 م ونزل بمصراتة اثر سياحة دامت أكثر من عشرين سنة وبنى زاويته هناك ، وتوفي 1263 هـ 1847 م

وفي يوم الجمعة 12 فيفري على الساعة الثالثة بعد الزوال اكتريت جملين وضعت عليهما أمتعتي وأخذت قافلتنا تسير في اتجاه طرابلس وسرنا طوال الليلة الاولى ، وفي الصباح دخلنا واحة بلد زليطن ومنها ذهبت لزيارة زاوية سيدي عبد السلام الاسمر (3) ثم التحقت بالقافلة وهي تقترب من بلاد الساحل ، وفي المساء نزلنا في أكواخ أهل الطريق التابعين لقرية بلاد الساحل ، واستأنفنا السير في الصباح وقضينا الليلة الموالية في جوار بلد الخمس وفي مساء الغد خيمنا في تاجورة وأوصلتنا المرحلة الاخيرة إلى طرابلس فدخلناها على الساعة الثامنة صباحا ، وتعرفنا أثناء الطريق على عدة مبان رومانية على قمم الجبال وخاصة في جوار الخمس وطرابلس فهناك مدينة كبيرة مثل قرطاج القديمة ، وربما كانت تحتوي على مبان أكثر وتسمى لبدة وتحتوي على عين ماء كبيرة تصب في البحر من جهة الخمس ، وهذه المدينة الاخيرة هي ميناء صغير تأتيه السفن لشحن الحلفاء .

وبمجرد أن سمح لي القدر ببلوغ مدينة طرابلس دون حدث جديد توجهت نحو خان أهل سوكنة وهون الموجودة قبالة فندق أهل مصراتة فاستقبلني صاحبه وأعد لي غرفة كبيرة وكنت حجزتها بواسطة سائق بغال ، ونزلت بها ونمت نوما عميقا إلى الساعة الثالثة بعد الظهر لاني كنت شديد التعب .

وخلال إقامتي بهذا الخان زارني تونسي يسأل عن أحوالي وهو النبيه سي حسونة بن عمر الشريف الذي استقر بطرابلس منذ 21 سنة يمارس فيها استيراد الشواشي ، ويعرف الجميع نزاهته في التجارة ، وقد فرح باستقبالي وحملني إلى منزله حيث كنت أتناول طعامي وبفضل هذا الرجل الجدير بالثقة الذي أوصلني الله إليه ، تمكنت من الحصول على معلومات حول طرابلس لا يمكن لغيري الحصول عليها، ولو اثناء إقامة طويلة ،وقضيت

3) الصوفي الشهير ولد بزليطن 880 هـ 1475 م وتوفي 981 هـ 1573 م

يوم 18 فيفري في زيارة أسواق المدينة ومساجدها ، ومختلف الاحياء وبعض الحدائق والميناء رفقة هذا الصديق الوفي ، والتقيت بتونسي آخر يدعى علي الوسلاتي وكان غادر تونس إثر صعوبات لم تسو بعد ، وقابلت أيضا ابن حفيظ بن الشيخ وهو القائد القديم (الوالي) لاحواز تونس وحاول هذان الشخصان الحصول على ثقة التونسيين العابرين وقد أظهرا لي المودة حين كنت معهما ، ولكنهما في الحقيقة كانا يكنان لي مشاعر الغدر ، وقال لي صديقي حسونة ذات يوم : يا شيخ محمد لقد أشاع هذان الرجلان بالامس بين الاتراك أنك جاسوس لحساب الحكومة الفرنسية وهدفهما من ذلك هو الحصول على مكانة لدى الباشا وإني أوصيك بعدم مخالطتهما ومخاطبتهما ، وابتداء من ذلك الوقت لم أعد أخرج من غرفتي وكان سي حسونة يقوم بقضاء حاجياتي .

ان جميع من يعرف التاريخ يعرف أن طرابلس كانت مرتبطة بالمملكة التونسية ومن باب أولى وأحرى غدامس وغات . وذلك منذ تولي الخليفة عمر (رضي الله عنه) فهذه البلدان تكوّن ــ إلى عهد الحفصيين ــ مملكة اسلامية واحدة ، وقد شاهد السلطان الناصر الحفصي (4) قوته تتناقص اثر إعلان عدة ولايات في هذه الجهات القصوى للاستقلال ، ومن بين الثائرين يوجد والي طرابلس التي كانت بالنسبة الى تونس ولاية بعيدة فأرسل الامير(5) جيشا لقتاله ومنح حكم طرابلس لابي محمد عبد الواحد الحفصي (6) فرفض هذا في البداية ثم انتهى الامر بقبوله لهذا

4) هو محمد الناصر الموحدي ــ لا الحفصي كما ذكره المؤلف خطأً ــ تولى 595 هـ 1199 م وكان كامل المغرب العربي تحت حكمه وقدم إلى تونس لمطاردة يحي الميورقي الثائر سنة 502 هـ 1205 م وسرح وزيره محمد عبد الواحد الحفصي لمطاردة الثائر فكسره بالجنوب التونسي وتولى هذا الوزير حكم إفريقية 603 هـ 1207 م .

5) أي الناصر الموحدي

6) بل منحه حكم افريقية كلها بما فيها طرابلس و هو أول الامراء الحفصيين وحكم من 603 هـ 1207م إلى 618 هـ 1221 م .

المنصب ولكن بشرط ان يبقى واليا حتى يستتب النظام وتتركز السلطة في الولاية بصفة كاملة ، وان يكون مستقلا من الناحية الادارية ، وأن يمكنه تجنيد قوة مسلحة كافية لضمان تطبيق اصلاحاته ، فقبلت هذه الشروط ومات أثناء ولايته وعوضه ابنه (7) الذي التزم بنفس خطة والده ، واستتب العدل والرخاء في البلاد أثناء ذلك العهد لكن الوضع لم يلبث أن أثار أطماعا رهيبة ، ويروى أن سفينتين محملتين بالبضائع دخلتا — في أحد الأيام — ميناء طرابلس ، فاشترى أحد سكان البلد بمفرده كل حمولتهما ، ودفع ثمنها نقدا ، ثم دعا كل طاقميهما للطعام على مائدته ، وأثناء الاكل أخذ لؤلؤة ذات قيمة كبيرة وسحقها في هاون ورش بها أطباق الطعام قائلا : إن هذا هو الفلفل الاسود أقدمه لكم ، واحضر بعد ذلك بطيخة خضراء (دلاعة) وطلب من ضيوفه سكينا لتقسيمها شرائح ، فتعجب هؤلاء من عدم امتلاكه لسكين ، فأجاب بان سكان هذه البلاد قد كانوا يحملون الاسلحة ليلا ونهارا أثناء فترة الاضطرابات والنهب ، ولكن بما أن الامن مستتب الآن فانهم يعتبرون حمل السلاح إهانة لمواطنيهم ، فتعجب المدعون شديد التعجب — وكانوا من الاسبان — وقوتهم عظيمة في ذلك العهد ، وأعلموا حكومتهم بهذا الحادث فبدأت إسبانيا من ذلك الوقت تفكر في الاستيلاء على طرابلس .

وفي ذلك العهد كان أحمد الحفصي (8) الذي تدعمه اسبانيا ثائرا على عمه (9) بتونس فأرسلت الحكومة الاسبانية جيشا استولى على طرابلس ، ولما رأى سكان نابولي ذلك منحوا حمايتهم للطرابلسيين قائلين : إنهم ليس لديهم نية التدخل في شؤون البلاد ولكنهم يرغبون اقرار

7) عبد الله عبو 620 هـ 1223 م

8) أبو العباس الثاني 942 هـ 1535 م — 980 هـ 1572 م

9) بل كان ثائرا على أبيه الحسن الحفصي ضد الاسبان ولكنه اضطر للاستعانة بالاسبان لمقاتلة الاتراك فلما تغالى الاسبان في شروطهم تخلى عن الحكم وقبل الشروط أخوه محمد 981 هـ 1573 م ولكن الاتراك أعادوا الكرة فأطردوا الاسبان واحتلوا البلاد بأسطول يقوده الوزير سنان باشا سبتمبر 1573 م — 981 هـ

حاميات في الحصون ، وقد احتلوا في الواقع طرابلس ، فحمل عندئذ ما يحصل في مثل هذه الظروف ، إذ تصرف أهل نابولي في البداية حسب وعدهم لكنهم لم يلبثوا أن أرادوا بسط سلطتهم على جميع الاشياء فاختار السكان الفرار وتحصين أنفسهم بتاجورة فكانت الحرب مع أهل نابولي ، ولما كان الاهالي واعين بضعفهم أرسلوا وفدا إلى القسطنطينية ملتمسين من السلطان التداخل ودعوا الحكومة العثمانية ــ وكان أكبر قسم من البلاد الاسلامية تحت سلطتها مثل مصر والشام إلخ ــ إلى الاستيلاء على كامل ولايتهم ، ولما وصل الوفد إلى القسطنطينية أثار نوعا من الفضول لان زي أولئك الناس يبدو غريبا ، ولم يكن أحد يعرف لغتهم ، وأخيرا طلب منهم أحد أفراد البلاط وكان يحسن العربية ــ أن يشرحوا له الهدف من رحلتهم ونقل طلبهم إلى حكومة السلطان ، فعين هذا الشخص واليا على طرابلس وأرسله إليها مع جيش صغير لان الطرابلسيين أكدوا أن هذه الحملة لن تلقى أي صعوبة ، ولما وصل الوالي واطلع على الوضع أرسل تقريرا مفصلا إلى حكومته ، فبعث باسطول للاستيلاء على تونس وتلقى سنان باشا قائد هذا الاسطول الامر بالتوجه أولا نحو طرابلس فانتزعها من أيدي أهل نابولي .

وبقيت الولاية في البداية مستقلة ، فحكومة الاستانة لا تحصل منها اتاوات ولا مساعدات الا زمن الحرب ، وبقيت الامور على هذا المنوال إلى ثورة يوسف باشا الذي حاربه الباب العالي سنة 1835 م فاحتل إقليم طرابلس فعلا ، وأصبح ولاية عثمانية عاصمتها طرابلس .

وسكان طرابلس أقرب إلى أن يكونوا بدوا من أن يكونوا حضرا ، غير أنهم يعتبرون أنفسهم أناسا متحضرين جدا ، ويفرق صفوفهم الحسد ويقضون وقتهم في اغتياب بعضهم ، وهم يميلون إلى التجارة وعلى عكس المشاعر التي يتظاهرون بها عندما يأتون إلى تونس ، فهم لا يحبون

التونسيين ولا الجزائريين (10) وهم يمارسون التجارة منذ سنين قليلة مع غات وبرنو ووداي وبعض جهات السودان ، وخضوعهم للاتراك لا يعدو أن يكون ظاهريا .

وليس لهم فكر مثقف ، فليس للعلوم الاسلامية ممثل بينهم ، وزرت ذات يوم مسجد السوق عندما كان عالمهم الكبير ذائع الصيت سي محمد بن مصطفى باش مفتي الحنفية يلقي درسه في الحديث فرأيته يمسك بيده كراسا لا ينفك عن القراءة منه .

ويتألف العنصر الاوروبي من سكان طرابلس في أغلبه ، من الايطاليين ويوجد قليل من الفرنسيين ، ويرتبط الاعيان الاثرياء بعلاقات ودية مع الفرنسيين بينما تخالط الطبقة الوضيعة الايطاليين ويتكلم الحمالون والبحارة اللغة الايطالية .

والمدينة العتيقة متينة البناء على الطريقة العربية ، ويحتوي الحي الجديد المسمى المنشية على مبان جميلة على النمط الاوروبي ، وتقع المدينة على شاطيء البحر في مكان بهيج ولطيف ، وتوجد بعض المباني العتيقة جدا لها نوع من الاهمية .

والطقس معتدل ، والهواء صحي ، لكن الحمى تنتشر في الصيف .

والاغذية كثيرة وأثمانها منخفضة ، وتتلقى المدينة من أوروبا نفس البضائع التي تصل إلى تونس ، وفي السنوات التي يكون فيها المحصول طيبا يقع تصدير القمح والشعير والبقر والضان والصوف والتمر والليمون والبرتقال ، والحصير والحناء والفلفل وجميع بضائع السودان مثل الجلود المسماة بـ (رقع) وريش النعام وناب الفيل إلخ . وتدفع البضائع المصدرة رسوما ضئيلة ، ولا تدفع البضائع المستوردة على طريق البر شيئا ، وأغلب

---

10) لم يلاحظ هذا أي رحالة من الرحالين العديدين فكيف تسنى للحشائشي أن يلاحظ وحده هذا ؟

التجار من سكان طرابلس نفسها ، لكن الايطاليين والمالطيين واليهود يمارسون التجارة أيضا .

ولا توجد بنوك ولا سكك حديدية ولا تراموای (حافلات كهربائية) ولا مؤسسات شبيهة بالمقاهي الفرنسية وليست الشوارع مخططة على الطريقة الاوروبية ، فالمدينة — إذن — ما تزال بعيدة عن التنظيم الناتج عن التقدم في بلاد أخرى .

ويتألف الفلاحون من فئتين : فهناك أصحاب البساتين الكبيرة والاراضي المجاورة للمدينة والمشتملة على آبار ، فهؤلاء يمارسون الزراعة بصفة منظمة ، وما عرب القبائل القاطنون بعيدا فيفلحون الارض مثلما هو الشأن في بنغازي ، وأرضهم — على كل حال — أفضل من الاراضي التونسية بحيث لامجال للمقارنة نظرا لوجود الرطوبة فيها وليس لعرب القبائل أي نشاط في الزراعة .

وللقبائل المجاورة للحدود التونسية ميول تونسية لانها تعرف أن العدالة والامن والنظام مستتبة في الايالة ، والقبائل الاكثر قربا من المذكورة تميل نفس الميل ، وقد كانت لي فرصة الالتقاء ببعض أعيان القرى فشرحت لهم أن إخوانهم **المسلمين** في تونس في وضع يحسدون عليه في الدنيا والآخرة !؟! فالنظام يسود بينهم ، واختفت أعمال النهب فبدا على سامعي التأثر بكلامي .

ويتمتع جميع العسكريين الاتراك في طرابلس من السرجان إلى الجنرال برفاهية كبيرة ، فيأكلون جيدا وتدفع لهم مرتباتهم شهريا ويسكنون في أفضل الاحياء ، وأغلبهم متزوجون ، وهم يبحثون عن جميع الملذات ويرتدون الثياب الجميلة ، وهيئت مساكنهم على الطريقة الاوروبية وليس لهم — حسبما رأيت — كبير عمل ، وأما الجنود فوضعهم يرثى له ، إذ يلبسون الردىء ، ويأكلون الردىء ، ولا يقبضون مرتباتهم بانتظام ، وهم

قساة تجاه الأهالي ، وخاصة البدو لانهم يكرهونهم .

ولا تؤمن مداخيل البلاد موازنة المصاريف ، وميزانية الولاية ـــ حسبما ذكر لي حسونة بن عمر ـــ خمسة ملايين ، ولكن لا أظن أنها تبلغ هذا الرقم ، وترسل الحكومة التركية سنويا أموالا لتسديد النقص في المقابيض .

وتشتمل الولاية على ثلاث مقاطعات وهي : فزان التي يديرها متصرف عام يتبع الباشا ، والجبل ، وسرت ، ويدير كليهما متصرف ، وتحتوي كل مقاطعة على قرى ومدن ، ويحكم كل مدينة حاكم يدعى قائم مقام بلا رتبة عسكرية ، وهو تابع للمتصرف الذي هو بدوره تحت سلطة الباشا التابع لوزارة الشؤون الخارجية .

ومثلما ذكرت اعلاه فان على التونسي الذي يصل طرابلس أن يتجنب مخالطة الطرابلسيين وأن لا يهتم إلّا بشؤونه ويمتنع عن كل محاورة سياسية لانه سيكون حتما مراقبا من المدعوين علي الوسلاتي وابن حفيظ بن الشيخ التونسيين اللذين تحدثت عنهما من قبل .

ويشغل ابن حفيظ بطرابلس مهام كاتب المجلس البلدي ويتقاضى من الاتراك مرتبا قدره ستون فرنكا شهريا ، وأما علي الوسلاتي فيقدم نفسه بصفته وكيلا (محاميا) لدى المحاكم ، وقد نبهني حسونة بن عمر لحسن الحظ ـــ مثلما رويت ذلك ـــ إلى أن هذين الشخصين المذكورين يشيعان بين الاتراك أني تونسي معتبر عالم بشؤون السياسة وان قدومي إلى طرابلس ورحلتي في البلاد لا بدّ أن يكون لهما هدف سياسي فلاحظت ـــ عندئذ ـــ الاهتمام الذي استهدفني من جانب الاتراك واقتنعت بأنه كان على حق عندما نصحني بالحذر فسارعت إلى تكليفه بحجز مكان لي على الباخرة المسافرة إلى تونس ، فذهب لمقابلة سي حسن المكلف بفحص جوازات السفر وسلمه جواز سفري من تونس إلى بنغازي عبر

مالطة ، وبعد أن فحص سي حسن هذه الوثيقة لاحظ لي سي حسونة أن حامل الجواز لم يؤشره لدى البلدية عند مغادرة بنغازي ولم يعلم هذه الادارة برحيله رسميا ، وبما أن هذا الاجراء قانوني فقد أعلن سي حسن أن عليّ أن أتقدم إليه للتعريف بأسباب هذا الاهمال ، وبمجرد أن وقع اعلامي بهذا الطلب ذهبت بدوري لمقابلة سي حسن ، فأعاد علي ما قاله لصديقي ، وتعللت بعذر جهلي لقوانين بنغازي فأعلمني — إذ ذاك — بأنني معرض لغرامة قدرها أربعون قرشا ولكنني قلت له ، لو فتشت جميع امتعتي لما وجدت قرشا واحدا فلست ثريا ، ولا حتى ميسور الحال ، واني مسافر بسيط ، أجوب أرض الله ، حاملا كتاب الله وأحاديث رسوله (صلى الله عليه وسلم) زائرا لاوليائه الصالحين ، وأنتمي أخيرا إلى عائلة الاشراف ، وقدمت له شجرة نسبي الشريف فاطلع عليها وأعفاني من دفع الاربعين قرشا ، وأعطى تعليمات للقمارق حتى لا تفتش امتعتي ولا أطالب باي معلوم ، ثم طلب مني الدعاء الصالح فدعوت الله له ، وبعد ذلك ابحرت على متن الباخرة الايطالية التي رفعت مراسيها يوم 21 فيفري 1897 على الساعة الخامسة مساء .

وكان يوجد على ظهر السفينة المدعو سي علي المداوي (11) وهو تلميذ سابق بالمدرسة الصادقية وذهب إلى القسطنطينية حيث التحق بالمدرسة الحربية وعاد ليخدم بلده .

وفي صباح 22 فيفري وصلنا جربة حيث توقفنا لمدة ساعة ثم توجهنا نحو قابس التي بلغناها على الساعة الرابعة بعد الزوال ، ومنذ ذلك الوقت كان رفيقي في السفر سي محمد القداشي كاتب المحكمة الجهوية بقابس وكان أحد أصدقائي وابن بلادي ، فملأ قلبي بهجة عندما أخبرني أن عائلتي في صحة جيدة وكذلك أصدقائي ، وعرفني بأن أهلي كانوا في حيرة شديدة منذ وصلتهم عني أخبار سيئة .

11) هكذا في الاصل الفرنسي : Madaoui

وقد جعلتني مرافقة القداشي سعيدا جدا طيلة بقية الرحلة وفي 23 فيفري على الساعة الخامسة صباحا بلغنا صفاقس ومنها أرسلت برقيات إلى صهري سي الحاج علي بن عمار وشقيقي سي عزوز ، وصديقي الحميم سي الطاهر العجيمي لاعلامهم بقدومي السعيد ، وفي الساعة السادسة توجهنا نحو المهدية التي بلغناها ، من الغد ، وغادرناها عند الزوال متوجهين نحو سوسة التي وصلنا ميناءها على الساعة الثالثة ، وكان ينتظرني هناك سي الطاهر العجيمي ، فلما رأيته قادما نحوي أحسست بمدى وفائه في صداقته وأخيرا توجهت الباخرة على الساعة السادسة إلى تونس مسقط رأسي .

وقبل شروق الشمس صعدت على ظهر الباخرة ، وعندما لاحت لنظري هضاب قرطاج وجبل سيدي بوسعيد حمدت الله ورفعت كفّيّ نحو السماء ، متوجها اليه بدعاء حار .

وعلى الساعة السادسة وصلنا الميناء البحري ، ووجدت على الرصيف سي الحاج علي بن عمار ينتظرني ، فتأثرت أيما تأثر باستقباله الحار وأركبني عربة متوجهين إلى منزلي أين وجدت الجميع من أبناء وأقارب في صحة جيدة وهو ما أشكر عليه الله من صميم قلبي .

ذيــــل

في يوم 15 ذي القعدة 1314 هـ (17 أفريل 1897) انهيت تحرير هذه القصة معتمدا على الملاحظات التي تمكنت من جمعها خلال رحلتي ورغبت حالا في طبعها مثلما طلب مني أصدقائي لكنني رأيت من الافضل أن أنشرها أولا في ترجمة فرنسية ، لان الملاحظات التي دونت فيها تهم ــ خاصة ــ الاوروبيين الذين لا يعرفون الّا قليلا عن شؤون داخل افريقيا بينما يعرف جميع مسلمي البلاد بعد ، قسما كبيرا من محتويات هذا الكتاب وزيادة على ذلك لم أكن أستطيع نسيان أن هذا العمل قد طلبه مني المأسوف عليه المركيز دي موريس وأنني بنشره بالفرنسية انفذ رغبة الذي خطط مشروعه .

ولكن قبل أن ترى الترجمة التي تمت بصفة كاملة بحضوري النور انتجت ظروف اغتيال المركيز دي موريس جدلا صحافيا حيا جدا ثم اضطلعت العدالة الفرنسية بالقضية وشرعت في اجراء تحقيق كامل فدفعت بالطبع إلى تعريف القضاة بكل ما أعلم في هذا الموضوع ، وان اقص عليهم أخبار رحلتي مع تمكينهم من كل الادلة على ما أوكده لهم ولم أكن اعتقد في هذه الظروف اني استطيع إقحام الجمهور كطرف ثالث بين القضاة وبيني .

واليوم وقد وقعت مناقشات قضية القتلة بصفة علنية وصدر حكم

نهائي (1) وبدا أن باب الجدل في هذا الموضوع قد أغلق تماما أعود إلى مشروعي المتمثل في تعريف جميع المهتمين بما يجد في شمال إفريقيا بما رأيته أثناء رحلتي وخاصة بالطريقة التي تمارس بها التجارة حاليا في هذه الجهات ، وهو ما كان الهدف الرئيسي الذي اقترحه عليّ المركيز دي موريس إذ لا ينبغي أن يغيب عنا أنه كان يرغب خاصة في فتح طريق تجارية من تونس نحو السودان ، وباعتبار النتائج التي يتوقعها فقد أمضى اتفاقا في تكوين شركة مع عدة أشخاص لتقسيم العمل والارباح المحتملة ، وكنت من بين هؤلاء الاشخاص ومازلت أملك نسخة من العقد المحرر بالفرنسية والعربية والحامل إمضاءه وامضائي ، وانني بصفتي شريكا للمركيز دي موريس ومعاونيه الاخرين قمت برحلتي لا بصفتي أجيرا للقيام بهذه المهمة فحسب مثلما يعتقد بعض الناس ، إذ لو كان الامر كذلك لتحصلت على مكسب مادي ، وهذا لم يقع .

وقد طلب ان أتمم عملي باضافة فصل يلخص تاريخ الصحراء والسودان خلال السنوات الخمس التي مرت على رحلتي وكان يمكن أن أقص هذه الاحداث بالاعتماد على شهادة كثيرة من الغدامسية القاطنين بتونس والذين يرتبطون بعلاقات مستمرة مع بلادهم لكن كان عليّ أن أذكر أحداثا لم أشاهدها وأن أعطي تقييمات لم أتحقق منها من شهود عيان ، وقد رأيت أنه ليس لي أن أقوم بذلك بل ماذا يستطيع قلمي الضعيف اعلام الفرنسيين به ، حول تاريخ السودان خلال السنوات الاخيرة ؟ والحال أن فرنسا هي الكاتبة لهذا التاريخ بواسطة مكتشفيها الشجعان وجنودها ، ورأيت من الافضل أن أتوقف عند نقل ما رأيت وسمعت ، وأعتبر أن هذا هو ما يكسب كتابي قيمة لو أعترف له بقيمة ما .

---

1) بدأت المحاكمة يوم 21 جويلية 1902 وصدر الحكم يوم 29 منه ويقضي بإعدام اثنين من الشعانبة وثلاثة آخرين غائبين وأربعة عشر من التوارق غائبين وبراءة الباقين .

وطلب مني أيضا أن أقدم وثائق أصلية تبرهن على صحة ما أتيت به وتسمح ــ مثلا ــ بالتحقيق من أني مررت حقا بالبلاد التي أصفها ، ولو كنت أحتاج إلى ذكر من يضمن صحة كلامي فسأجد عديد الضامنين بتونس ، حيث شوهد رحيلي وحيث وقع الحصول على أخباري بصفة غير مباشرة خلال رحلتي وحيث جلبت عند عودتي أغراضا ورسائل خاصة من الكفرة نفسها إلى تجار وأعيان الفرنسيين والأهالي ، ولقد أتيحت لي فرصة عرض جميع هذه الوثائق أمام القضاة والموظفين الذين احتفظوا ببعضها لكن لقراء هذا الكتاب الحق أيضا في الحصول على ضمانات لصحة كلام المؤلف ، وهو غير معروف لديهم وسآخذ هذه الضمانات من مجموعة الوثائق والرسائل التي سلمت إليّ في مختلف الامكنة التي مررت بها ، وكنت راغبا في التمكن من تقديم وثيقة صادرة عن سيدي المهدي نفسه ، لكن الوثائق التي بقيت على ملكي عند وصولي إلى تونس ، وقع تسليمها إلى أشخاص مختلفين ولم يبق لدي منها إلّا إهداء تفضل بأثباته على نسخة من كتاب لوالده اعطاه لي بيده احتفظ به كتذكار ثمين وعدا العصوبات المادية لتصوير هذا الاهداء فقد رأيت أنه لاختصاره لن يقدم شيئا هاما للقارىء بينما بدت لي مختلف رسائل التوصية التي سلمت إلي خلال رحلتي أقرب الى تنوير القارىء وقد اخترت منها ثلاثا تأتي نصوصها مصورة فيما يأتي ، وإني أملك عددا كبيرا من الوثائق الاخرى من نفس النوع رويت فيها مختلف مراحل رحلتي وهي على ذمة من يهمه أمرها (2)

الرسالة الأولى

رسالة من سيدي الحاج أحمد بن شتوان الشريف شيخ الطريقة

2) وبعد هذا ذكر المترجمان ترجمة الرسائل التي اكتفينا بنصوصها الإصلية مع مقدمات المؤلف وتعاليق المترجمين .

السلامية ببنغازي وبرقة وسرت في التوصية بي لدى جميع اخوان هذه الطريقة .

نص الرسالــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة كافة اخواننا العروسية (3) السلام عليكم ورحمة الله والبركة . ها هو قادم عليكم من طرفنا الشيخ العربي السيد الشريف الجامع بين الشريعة والحقيقة السيد محمد بن عثمان الشريف التونسي تبقوا تكونوا منه ببال (4) وتواضعوا له بالادب والطاعة حتى يرتحل من طرفكم ولكم من الله الاجر والثواب .

وهذا ما لزم عرفناكم به مع بلوغ سلامنا الى كافة المنسوبين الى الطرق العروسية وغيرها والسلام من الداعي لكم بخير الطالب منكم مثله مقدم الزوايا العروسية خديم اثر نعل الفقرا الحاج أحمد بن السيد الشريف عمر بن شتوان 1314 (اثر الخاتم وبه اسم أحمد بن شتوان)

وتحمل هذه الرسالة في اسفلها اثر خاتمه المعروف حق المعرفة بطرابلس وفي كامل الولاية .

---

3) ان الشيخ سيدي أحمد بن شتوان هو إذن شيخ الطريقة العروسية مثلما هو شيخ الطريقة السلامية وقد أسس الاولى سيدي أبو العباس احمد العروس وكان احد شيوخ سيدي أبي العباس أحمد زروق مؤسس طريقة أخرى تحمل اسمه ، وكلاهما مذكور ضمن الدعاء الذي يتوسل به مؤسس الطريقة السنوسية ، والطريقة الزروقية مثل الطريقة العروسية والسلامية هي فروع هامة من الطريقة الشاذلية الكبرى ، وهي أكثر الطرق قربا من السنوسية (المترجمان) .

والشيخ أحمد بن شتوان المذكور في أول التعليق مولود بمصراتة أوائل القرن 13 هـ وأخذ العلم بمصراتة وطرابلس واتصل بالسنوسي الكبير في برقة وتتلمذ عليه وتولى القضاء ببرقة ثم تحول إلى مصر في طلب العلم ورحل إلى الاستانة فتعين مدرسا بجامع محمد الفاتح ويعتبر من أبلغ شعراء عصره وتوفي بالاستانة أوائل القرن لرابع عشر هـ (عن أعلام ليبيا) .

4) يريد ـــ فلتكونوا منه ببال

صورة الرسالة (1)

I

Lettre de Sidi El-Hadj Ahmed ben Chatouane, chérif, cheikh de la confrérie des Sellemia à Benghazi, Barka et Sert, pour me recommander à tous les Khouans de cet ordre.

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة كافة اخواننا العروسية السلام عليكم ورحمة
الله وبركاته فهاهو قادم عليكم من طرفنا الشيخ العربي
السيد الشريف الجامع بين الشريعة والحقيقة السيد محمد
بن عثمان الشريف التونسي تبغوا تكونوا منه ببال
وتتواضعوا اليه بالادب والطاعة حتى يرتحل من طرفكم
ولكم من الله الاجر والثواب وهذا ما لزم عرفناكم
به مع بلوغ سلامنا الى كافة المنتسبين الى
الطريقة العروسية وغيرها والسلام من الداعي لكم
بخير الطالب منكم مثله مقدم الزوايا العروسية
خديم اثر نعل الفقرا الحاج احمد بن السيد الشريف بوعمر بن
شتوان ١٢١٤



Cette lettre porte au bas l'empreinte de son cachet

19

الرسالة الثانيـــة

سلم لي هذه الرسالة بالكفرة سيدي محمد التواتي **كاتب** سيدي المهدي وهي من هذا الاخير لتكون رسالة تقديم إلى قاضي قبيلة التمامة وهو من بين ممثلي سيدي المهدي الموثوق بهم لدى قبائل فزان .

وهذه الرسالة هي بخط سيدي محمد التواتي نفسه وخطه معروف جدا في كامل افريقيا الشمالية لانه هو الذي يحرر عامة الوثائق المكتوبة والمرسلة من الرئيس الاكبر للطريقة السنوسية ، وبسبب ذلك لاتحمل الرسالة ختما لان الختم مخصص للرسائل التي يكتبها شخص آخر غير الذي ترسل باسمه .

ومن بين أهم رسائل التوصية التي سلمها لي ممثلو الطريقة السنوسية بالنسبة لي رسائل حامّي وصديقي سي أحمد مختار مقدم الطريقة بمرزق الا أني رأيت انه عليّ اعطاء الاولوية للرسالة الوحيدة التي أملكها من سيدي محمد التواتي لانها بالنسبة لاخوان الطريقة لها نفس اهمية الكتابة بخط سيدي المهدي نفسه .

نص الرسالـــة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

إلى الفقيه الفاضل العالم الشيخ سيد عبد الحفيظ قاضي عرش التمامة بالجفرا (5) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فان شيخنا وقرة أعيننا (6)

---

5) الجفرة

6) يقصد = الشيخ محمد المهدي

في خير من الله ونعمة هذا وإن حامل الجواب آخونا (7) في الله الشيخ محمد الحشائشي الشريف الشاعر كان عندنا بالكفرة زائرا الاستاذ الاكبر وقد فرح به شيخنا محمد المهدي وأوصى به خيرا هو الآن متوجه إلى **مرزق** ويمر عليكم فإذا اتصلتم به فلتكونون (8) منه ببال وتوصي به خيرا واعلم أن جميع الاخوان كلهم بخير وعافية ويبلغوا (9) لكم السلام وكذا شيخنا الاستاذ ويدعوا (10) لكم بالخير وبلغ سلامنا إلى الشيخ سيف النصر ومن يسأل عنا والسلام من محمد التواتي كتب في صفر **1314** .

الرسالة الثالثة

الرسالة التالية من الشخص الذي أظهر أنه صديقي الوفي أيوب باي ولي عهد غات الذي يعرف خاتمه الموجود في أسفل هذه الوثيقة معرفة جيدة لا في كامل طرابلس فقط بل وفي تونس أيضا حيث له عدة مراسلين في الشؤون التجارية ، والرسالة موجهة إلى تاجر بتونس .

نص الرسالة

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم

الاعز المرعي جناب أخينا موسى بن دنقنا (11) أما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فنحن نسأل عنكم وعن أحوالكم أجراها الله طبق آمالكم وإذا سألتم عنا فنحن بخير ولا يخصنا من الله إلّا الاجتماع

---

7) صوابه : أخانا

8) صوابه : فلتكونوا

9) صوابه : ويبلغون

10) صوابه : ويدعو (بدون ألف)

11) صوابه : دنقنة

صورة الرسالة (2)

APPENDICE

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

الى الفقيه الفاضل العالم الشيخ سيدي عبد الحي

قاضي عرش التماسين بالجزائر السلام عليكم ورحمة

الله وبركاته وان شيخنا فرح امينا في خير من

الله ونعمة هذا وان حامل الجواب اخونا في الله

الشيخ محمد الحشاشي الشريف الشامي كان

عسكريا بالجزائر زائرا الاستاذ الاكبر

وفرح به شيخنا سيدي محمد المهدي

واوصى به خيرا هو الآن قاصد ارض مزاب ويمر

عليكم فان اشتغلتم به فلتشكرون منه بعد

ونرجو به خيرا واعلم ان جميع الاخوان كلهم

بخير وعافية ويبلغوا لكم السلام وكذا شيخنا

الاستاذ ويدعوا لكم بالخير [illegible] سلامه

[illegible] الى الشيخ سيدي [illegible] ومزيان عند

والسلام من [illegible] في [illegible] ١٣١٤

بكم في أبرك ساعة ، ولم نر منكم جواب (12) مدت (13) مديدة ونحن الآن نيتنا التجارة مع أراضي تونس بسببكم (14) ، وإن شاء الله نحصل عليها وإذا كان أصحابك نيتهم التجارة فلتعلمنا بجواب يكون عاجلا وإلّا فإن سي محمد الحشائشي الشريف يكون معنا في التجارة لأنه مثل نفسي فنصيك (15)به خيرا والسلام من أيوب باي كتب بغات سنة 1313 (16) في ربيع الثاني (اثر الخاتم وبه اسم أيوب بالحاج أمين الانصاري)

وكان بإمكاني أن أعدد هذه الشهادات وأضيف شهادات أخرى مؤرخة ، من مدن أخرى في الصحراء الطرابلسية وأن أعطي رسائل التوصية العديدة التي كتبها من أجلي حامي وصديقي سي أحمد المختار . وكان بإمكاني أن أضيف إليها رسالة وجهها إليّ سي محمد بن أحمد حاكم هون الذي رأيته وقابلته بالكفرة ودعاني إلى الاقامة بعض الوقت في منزله ، وتلقيت هذه الرسالة خلال إقامتي بسوكنة ، وكان من السهل عليّ أن أضيف إلى هذا وثائق أخرى من جميع الانواع كالاجازات المسلمة لي باسم الطرق التي انتمي إليها ، والتي تصلح لتكون رسائل تقديم لدى جميع أعضاء هذه الطرق ، والابيات المنظومة في مدحي من نظم سي حامد بن الشريف محمود بركات تلميذ سيدي المهدي والشعر الذي أرسله إلى أحمد المختار لتهنئتي بشفاء ركبتي إلخ ... إلخ ..

---

12) صوابه : جوابا

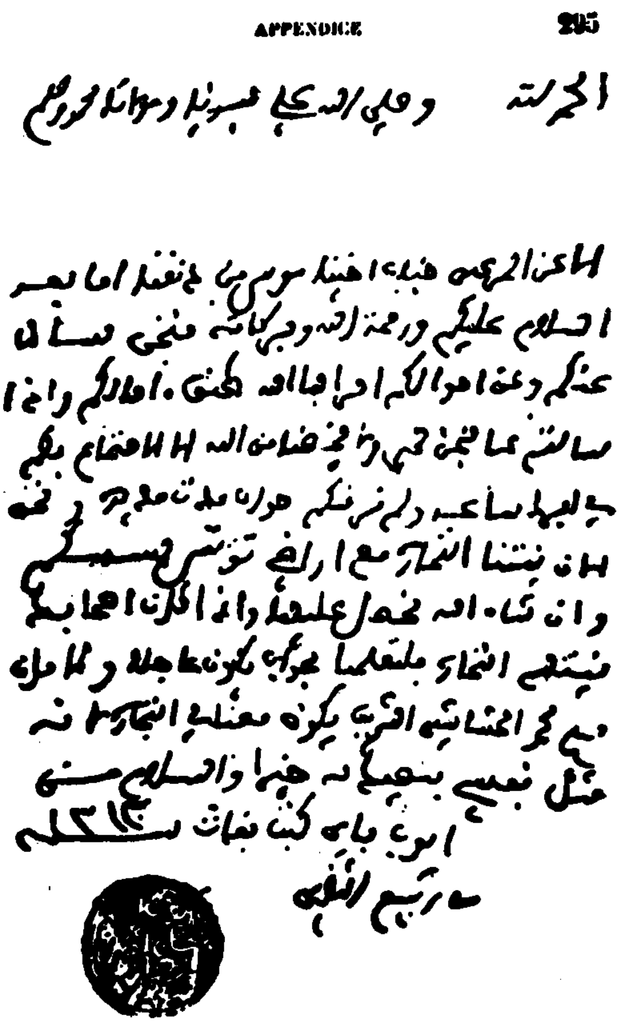
13) صوابه : مدة

14) يقصد : بسبب وجودكم فيها ، أو بواسطتكم حسب الترجمة الفرنسية ويذكر المؤلف في الذيل أنه كان حاضرا مع المترجمين أثناء الترجمة .

15) صوابه : فنوصيك

16) هذا خطأ من صاحب الرسالة إذ ربيع الثاني من 1313 يصادف سبتمبر 1895 والحشائشي لم يدخل غات إلّا في سبتمبر 1896 فيكون الصواب : 1314 وهو التاريخ الموجود في الرسالتين السالفتين وكلها محررة في سنة هجرية واحدة .

صورة الرسالة (3)



الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

[illegible] اما بعد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فنحن نسأل

عنكم وعن احوالكم [illegible] وانا

[illegible] الا الاهتمام [illegible]

[illegible]

[illegible] مع [illegible] تونس [illegible]

وان شاء الله [illegible]

[illegible] جواب يكون عاجلا [illegible]

[illegible] التجارة [illegible]

[illegible] والسلام [illegible]

[illegible] سنة ١٣٢١

[illegible] ربيع الثاني

وقد رأيت أن الرسائل الثلاث المثبتة اعلاه والتي تبين بصفة واضحة الطريق التي سلكتها تكفي حججا ، وان القارىء سيتابع بفضلها — بدون أفكار خلفية — هذه القصة المتواضعة التي حرصت فيها على نقل كل ما رأيت وعلمت يوما بيوم مثل شاهد دقيق وصادق وليكن الله حسبي .

1 ــ فهرس البلدان والمواضع

ــ أ ــ

— ب —

ـ ت ـ

ـ ج ـ

— ح —

— خ —

— ر —

— ز —

— س —

— ض —

— ط —

— ع —

— ش —

— ص —

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

— ل —

— م —

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

2 ــ فهــرس الأعــلام

ــ أ ــ

— ب —

— ت —

— ج —

— ح —

— س —

— ش —

— ص —

— ض —

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

— ل —

— م —

يوسف القرمانلي : 118 .
اليعقوبي : 7 .

3 ــ فهرس الأعلام الأوروبية

4 ــ فهرس الشعوب والقبائل والجماعات

ــ أ ــ

— ب —

— ت —

— ث —

— ج —

ــ ش ــ

ــ ص ــ

ــ ط ــ

ــ ع ــ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

5 ـــ فهرس الطرق والمذاهب

6 ـ فهرس الكتب والمؤلفات

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ م ـ

— ن —

— ه —

— ي —

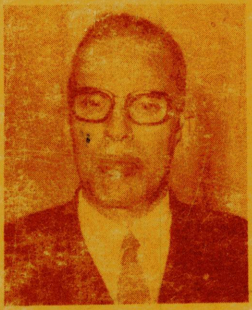
7 ــ فهرس الأشعار

8 ــ فهرس الآيات القرآنية

ــ إنّما يريد الله ... ويطهّركم تطهيرًا ــ الأحزاب ــ الآية 33 : 116، 117 .
ــ طه . ما أنزلنا عليك القرآن
ــ طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لِتَشْقَى ــ طه ــ الآيتان 1ــ2 : 94 .

فهرس الموضوعات

سحب من هذا الكتاب 3300 نسخة في طبعته الأولى



هذا الكتاب :

وثيقة خطيرة ، بعيدة الشأن ، فقد أصلها العربي المخطوط ، ولم يبق غير الترجمة المطبوعة سنة 1903 م.

وهي عبارة عن يوميات رحلة قام بها سنتي 1896 و1897م، محمد بن عثمان الحشائشي (المتوفى سنة 1912 م) ، ووصف فيها الصحراء الطرابلسية ومدن طرابلس وبنغازي والكفرة وغات ومرزق ومصراتة ...، وتحدّث طويلا عن سكان البلاد ومنهم التوارق ، وطرق عيشهم ، كما تناول بالذكر الطريقة السنوسية وشيوخها ونظامها ، وأثبت الكثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية مما يجعل من الكتاب على تشيّع مؤلّفه للفرنسيين مصدرا لا غنى عنه لدراسة أوضاع المنطقة في أواخر القرن التاسع عشر م.

قام بإعداد الكتاب للنشر محمد المرزوقي (1916–1981) قبيل وفاته ، وبذلك يكون آخر ما ألّف .

الثمن : ...

...N 9973 – 12 – 038 – 8